

د. عبدالعزيز كامل — د. أحمد كمال أبو المجد

د. يوسف القرضاوي — خالد محمد خالد

د. إدريس الكتاني — د. محمد عمارة

د. محمد جابر الأنصاري — د. محمد سلام مدكور

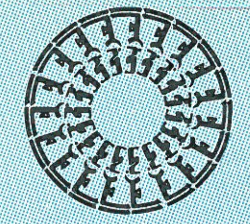
وآخرون

المسلمون والعصر

الكتاب الرابع عشر

١٥ يناير ١٩٨٧







مرآة العقل العربي

رئيس التحرير :

الدكتور محمد الرميحي

هذه السلسلة :

- تصدر عن مجلة العربي
- مؤقتاً فصلياً .
- تقدم مجموعة من المقالات والموضوعات لكاتب واحد أو موضوعاً واحداً تتناوله عدة أقلام .

السعر

الكويت ٢٥٠ فلسا ، العراق ٢٥٠ فلسا ، السعودية ٥ ريالات ، الأردن ٢٥٠ فلسا ، سوريا ٣ ليرات ، لبنان ٣ ليرات ، مصر ٢٥٠ مليما ، السودان ٢٥٠ مليما ، المغرب ٥ دراهم ، قطر ٥ ريالات ، الامارات ٥ دراهم ، سلطنة عمان ١/٤ ريال ، اليمن الشمالي ٣ ريالات يمني(ش) ، اليمن الجنوبي ٣٠٠ فلس يمني (ج) ، ليبيا ٣٥٠ درهما ، تونس ٤٠٠ مليم ، الجزائر ٤ دنانير ، البحرين ٣٠٠ فلس ، بريطانيا ١ جنيه ، فرنسا ١٥ فرنكا ، اوروبا ٢ دولار / أو جنيه استرليني واحد ، أمريكا ٢ دولار .

د. عبدالعزيز كامل — د. أحمد كمال أبو المجد
د. يوسف القرضاوي — خالد محمد خالد
د. إدريس الكتاني — د. محمد عمارة
د. محمد جابر الأنصاري — د. محمد سلام مدكور
وآخرون

المسلمون والعصر

- كتاب العربي
- سلسلة فصلية تصدرها مجلة العربي

الكتاب الرابع عشر
١٥ يناير ١٩٨٧

تقديم

بقلم : الدكتور محمد الرميحي

الفكرة أولاً

شهدت السنوات الأخيرة فيضا من المواد المنشورة ، تدور معظمها حول الاسلام والمسلمين في هذا العصر ، بعضها صدر في الغرب ، وبعضها صدر في الشرق ، وجزء منها صدر عنا نحن العرب والمسلمين ، وما زالت الدوريات والكتب والمقالات تتوالى في النشر ، محللة وناقدة ، أو مؤيدة أو معارضة هذا الجانب أو ذاك من مناشط العمل الاسلامي .

ولعله نتيجة لذلك الزخم اختلطت مفاهيم كثيرة على القارىء المتابع ، بين ما يمكن اعتباره رؤية اسلامية وبين ما يعتبر رؤية الاسلام ، فالرؤية الاسلامية هي اجتهاد لأفراد أو جماعات يؤجرون

عليها ويثابون كجماعات وأفراد ، حسب اجتهاداتهم في طريق الصواب أو الخطأ ، أما رؤية الاسلام في هذا الموضوع أو ذاك ، فتخضع لشروط متفق عليها بين الجماعة الاسلامية لايجوز فيها اخضاع قياس الجزء على الكل ، ولاترجح مصالح قلة كي تسود كثرة .

وعندما نقدم هذا الكتاب الى القارىء العربي نقدمه على أنه رؤية اسلامية لبعض القضايا المطروحة علينا جميعا ، وهي اجتهادات قابلة للمناقشة وحتى النقض في بعضها ، وقابلة للتثبيت والانتشار في بعضها الآخر أيضا .

ذاك هو الحوار المطلوب من أجل تأصيل فكر ثقافي اسلامي يعايش العصر ويتفاعل معه .

المؤسف أن البعض قد انقسم اليوم أمام محاولات الاستنهاض الوطني والتنموي الى فئات وطوائف كلها تنادي بالمثل الأعلى المفروض أن يكون مشتركا ، ولكنها في نفس الوقت تناصب بعضها البعض العداء ، ووصل الغلو ببعضها الى أن أخرجت هذه الفئة أو تلك عن جادة الاسلام ، الا أن الخطأ الذي ارتكبه الجميع تمثل في أن كل فئة اعتقدت أنها تملك الحقيقة ، وخلطت في هذا المقام بين الرؤية الاسلامية ـ الاجتهادية ورؤية الاسلام .

من هنا نجد أن التلاوين متعددة ، فالبعض يعتقد أن هدف التغير الاجتماعي مقدم على هدف الاجتهاد الفكري ، والبعض الآخر يعتقد أن وسائل العنف خير من وسائل اللين والاقناع والمجادلة بالتي هي أحسن .

كما أن البعض يعتقد أن التربية المتشددة ، وغلق العقول بمقولات جاهزة ترفض الحوار والاقناع هي أنسب من التربية المنفتحة التي تقوم على تحكيم العقل ، ويعتقد آخرون العكس تماما ، فوسائل الاجتهاد الفكري والاقناع والتربية القائمة على الحوار والعقل هي الطريق الأسلم ـ حتى ولو كان الأطول في الزمن ـ للوصول الى الأهداف المبتغاة .

والقضية ليست سهلة ، ولايمكن لأي عاقل أن يعتقد أن حلها قاب قوسين أو أدنى ، الا أن الاعتقاد جازم لدى كثير من العقلاء أن الطريق الفكري هو السبيل الأفضل للوصول الى الهدف ، فلا السفسطات الفلسفية ولا الخشونة ولا الزام الناس بما لم يلزمهم الله به ، يمكن أن يخلق مجتمعا متجانسا قريباً من آمال المجتمع العربي والمسلم ، وحتى ان نجح ذلك فان نجاحه مؤقت يتبعه ضرر كبير .

من القضايا الفكرية الكبرى التي تواجه المسلمين اليوم ، قضية الاحتفاظ بالهوية الاسلامية في اطار تغير المحتوى الاجتماعي والاقتصادي للمجتمع المسلم ، يعتقد البعض أن ذلك غير ممكن ، وفي الحقيقة أن ذلك ممكن ، وهذا ما يتم بالفعل ، فنحن اليوم كمسلمين طورنا محتوى نظامنا الاجتماعي والتربوي ، فافتتحنا مدارس وجامعات حسب الأنماط الجديدة ، وكذلك المؤسسات ودور المال ، ونظمنا علاقاتنا الخارجية حسب ما هو سائد في العصر ، وركبنا وسائل المواصلات الحديثة ، وبنينا بيوتنا بطرق جديدة ، ولكن هويتنا كعرب ومسلمين ما زالت كما هي ، فالتغير الضار ليس هو التبدل في المحتوى ، بل هو تغير التركيب الهيكلي والقيمي للمجتمع ، وذلك ما يجب أن نحافظ عليه دون تغيير .

من مظاهر محاولات تغير التركيب ، زرع الشقاق بين الأشقاء والأخوة ، بل وزرعه في المجتمع الواحد ، وتحويل الخلاف من اجتهاد في وجهات النظر الى صراع خبيث ، ينبذ فيه الرجل أهله والابن أباه والزوج زوجه . . ان مظاهر الغلو هذه لاتتعلق بأصول الدين الا من جانب عرضي وبصورة هامشية .

لقد حاكمنا واقعنا بمقاييس وأيديولوجيات أخرى ،وليس بمقاييس رؤية اسلامية تشدد على أن المسلم لأخيه المسلم ، كالبنيان المرصوص .

ان قدرتنا على دمج رأس المال الثقافي الذي وصلت اليه الانسانية اليوم في صلب مسارنا ، مدمجين الأصيل بالمصير بدلا من انقسامنا بين أنصار للاصيل بلا مصير ، أو انشغالنا بالمصير بلا أصيل ، تلك هي المحصلة الحضارية التي نتوخاها .

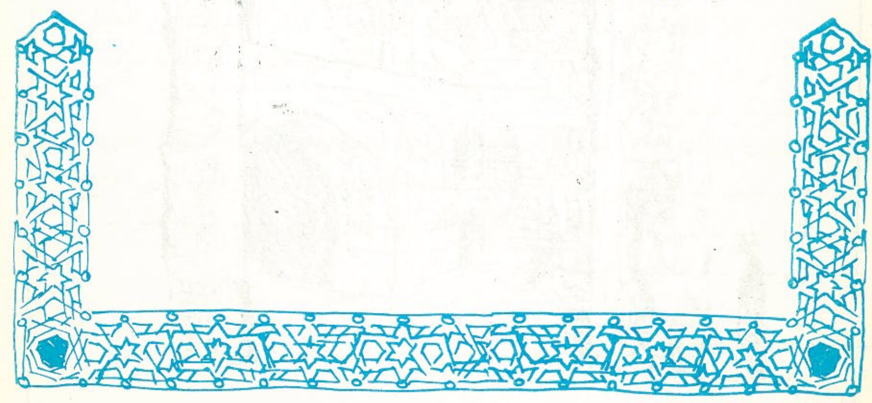
وما الكتاب الذي بين يديك أيها القارىء الكريم ، والذي نقدم موضوعاته بمناسبة مهمة وتاريخية هي انعقاد مؤتمر القمة الاسلامي الخامس على أرض الكويت ، في نهاية هذا الشهر (يناير ١٩٨٧) ما هو الا محاولة لاثراء الحوار العاقل البناء ، ووضع لبنة أولى في صرح دمج الأصيل بالمصير .

وقد وزعنا هذا الكتاب على أربعة فصول أساسية ، قاربنا بين موضوعاتها ما أمكن ، ونوعنا بين كتابها ما أمكن ، وهي محاولة لطرح اجتهاد عربي اسلامي في قضايا كثيرة ، نرجو أن ينتفع بها الناس .

محمد الرميحي



اجتهادات لعمل إسلامي موحد



العمل الإسلامي بين المأمول والممكن

د. عبد العزيز كامل

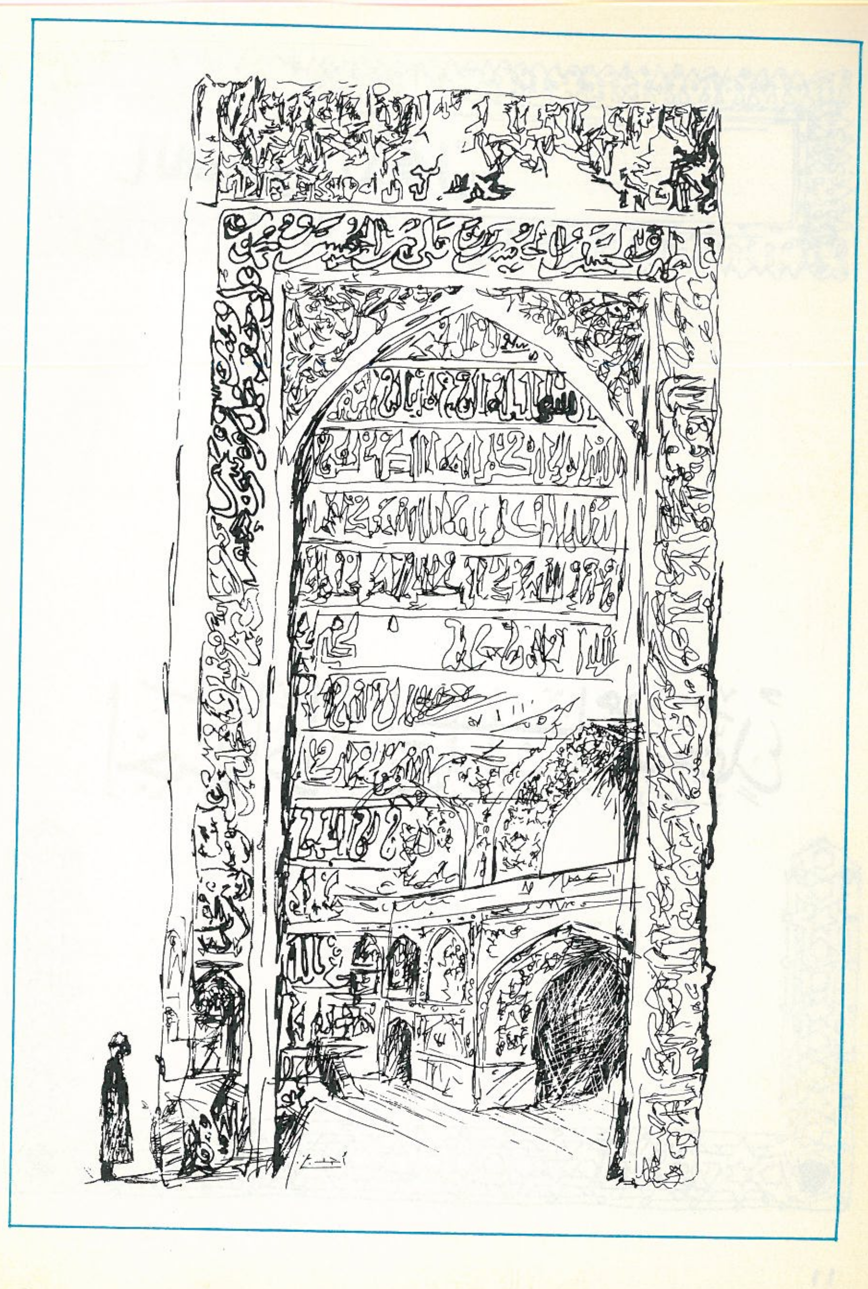
في عام ١٩٧٤م كنت في زيارة المرحوم الاستاذ عبدالرحمن عزام اول امين عام للجامعة العربية .

كان اللقاء في منزله بحلوان جنوبي القاهرة ، ودار الحديث عن العمل العربي والاسلامي ،وضرورة التدرج فيه في اطار من صورة متكاملة مرنة .

واذكرمن قوله :

ـ عندما بدأ العمل في جامعة الدول العربية ، كانت المشروعات محدودة المدى . وحرصت كل الحرص على ألا تحمل الجامعة فوق ما تطيق ، وذلك حتى تنجح فيما تقوم به ، وتذوق طعم النجاح ، الذي يشجعها على مزيد من الخطوات ، وتوسيع دائرة العمل والتعاون .

العربي العدد ٢٦٤ نوفمبر ـ تشرين الثاني ١٩٨٠ م .



وتابع قوله :
ـ فرق كبير بين المأمول والممكن . آمالنا في العمل العربي كبيرة وجهودنا محدودة وخطواتنا قصيرة . لابد لنا من العمل المشترك والتعاون .

وكان هذا الحديث مقدمة لحوار عن العمل الاسلامي بعد تكوين منظمة المؤتمر الاسلامي ، واتخاذ قرار انشائها في المؤتمر الاسلامي الاول الذي عقد في الرباط في ديسمبر ١٩٦٩ بعد حريق المسجد الاقصى .

وتكاثرت الامال المعقودة على المنظمة ، باعتبارها أول تجسيد عملي لارادة الدول الاسلامية بعد سقوط الخلافة ١٩٢٤ . وكان من امال عزام ـ رحمه الله ـ ان تسير المنظمة سيرا هادئا والا تحمل اكثر مما تطيق حتى تحس طعم النجاح وتتابع مسيرتها

بين المأمول والممكن

وفي استقبال القرن الهجري الخامس عشر تتكاثر في نفوسنا الامال ، وللآمال اجنحة تحلق في آفاق المستقبل ، ويقيدنا الممكن ، وللممكن اقدام يسير بها على أرض الحاضر سعيا الى الغد . وفرق كبير بين خفقة الجناح وخطوة القدم . وهذه الفجوة بين الممكن والمأمول ، علينا في العمل الاسلامي ان نقابلها ، وان نعبرها ، حتى يصبح المأمول ممكنا نتحرك من مواقعه الى امل جديد .

ولنقف اولا على الا تعارض بين المأمول والممكن فالممكن طريق المأمول ، والحاضر باب المستقبل .

على ان اهم ما يعترض طريق العمل الاسلامي ، انصرافنا بعد حين عما نتفق عليه ، اما مخالفة عن أمره ، او قعودا عن تحمل مسئولياته ، او اشتغالا باهداف جانبية او محلية . بينما قيادة العمل الحقة تقتضي تطبيقا لقوله تعالى « وجعلنا منهم ائمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا باياتنا يوقنون » (السجدة : ٢٤) : القيادة بالصبر واليقين ، بوضوح الرؤية الفكرية والاعتقاد القلبي والثبات على الطريق .

ولكي تتضح دائرة العمل علينا ان نجول في مواقعها الرئيسية ، وان نتعرف على معالمها . والنظرة الشاملة هنا اولى من النظرات التفصيلية الدقيقة التي يحتاج اليها العمل التنفيذي .

ومرة أخرى اقول كما قلت في العلاقة بين الممكن والمأمول : الا تعارض بين النظرة الجزئية والشاملة : من الجزئيات يتكون الكل . والنظرة الكلية تعين على أن نضع الجزئيات في مواقعها الصحيحة . والنظرتان متكاملتان وتتبادلان التأثير . ولهذا الشمول عمقه التاريخي وامتداده المكاني وابعاده الموضوعية .

عمق تاريخي

لانود ان نبتعد الى اكثر من مطلع القرن الرابع عشر الهجري ، مائة عام تكفي . كان العالم الاسلامي موزعا بين دول العالم الكبرى وقتئذٍ او في طريقه الى التقسيم والخضوع تحت سيطرة الاستعمار . كانت الفجوة العلمية والتقنية واسعة بين العالم المتقدم والعالم التقليدي . الثورة الصناعية شملت اوروبا وامريكا . . خيرات الدنيا تحملها السفن عبر المحيطات الى عواصم الاستعمار . . حتى البشر كانت تحملهم السفن عبر المحيط الاطلسي من افريقيا ليكونوا وقود الزراعة والصناعة في العالم الجديد ، حيث اجتاح الارض اعصار بشري ابيض يحرق الهندي الاحمر وداره ويدمر حضارته فلا يبقى من المجد والتاريخ الا اطلالا بشرية وحجرية في متحف الحضارة الامريكية الجديدة . . مجرد نماذج لشيء كان .

وقد استطاعت بعض حضارات الشرق الاقصى ان تكون أكثر مقاومة . . واستطاع الاسلام رغم الحروب الدامية والتخريب واستنزاف الخيرات أن يبقى القرآن كما كان مركز الثقل في الحياة الاسلامية ومحورها الذي تدور حوله هو الدين واللسان والرباط بين المسلمين جميعا بقيت الصلاة لقاء يوميا يجمعهم بالاجساد والأرواح ، وبقيت الزكاة رباطا اقتصاديا واجتماعيا بينهم . بقي الصوم موسما سنويا للعبادة والتذاكر والتواد وبقي الحج مؤتمرا جامعا ، وأن حالت بعض الاقطار بين المسلمين وبين ادائه

ولقى المسلمون عنتاً وصل احيانا الى الابادة الكاملة . او الى التضييق الشديد ، او الى الاغراء ببريق من الغرب حيث يختلط الطيب بالخبيث ، والتقدم العلمي بموجات الانحلال ، والتقنية بالانسلاخ من الجذور .

وتوزعت المسلمين حضارات وثقافات وتعددت الألسنة واللهجات وبرزت المصالح المحلية الطائفية والعصبيات وان بقيت اصوات ترتفع بكلمة الحق ، تكتب وتخطب وتدعو بالاسوة الحسنة والكلمة المنطوقة والمكتوبة .

سكانيا وموضوعيا

سكانيا ، امتدت موجات الاستعمار الظاهر أو المستتر فغطت معظم العالم الاسلامي ولم يبق فوق الموج الا اجزاء محدودة معصومة من الماء . . وانتشرت الوان الدول الاستعمارية فوق خريطة العالم الاسلامي ولبريطانيا وفرنسا وهولندا منها النصيب الأوفى .

وموضوعيا ، حاول الاستعمار طمس الهوية الاسلامية : وكانت اعنف المعارك موجهة الى القرآن الكريم والى اللسان العربي والى الحرف العربي . . وإن معركة الحرف العربي وحدها تحتاج الى دراسات ورصد وخطة مقابلة . . فاقتلاع الحرف أو غرسه . . انما هو قطع او ربط حضاري واتجاه فكري . .

واضعاف الصلة بالقرآن وباللغة العربية والحضارة الاسلامية يؤدي بدوره الى الانحسار الحضاري ، وظهور النزعات الضيقةو . . تماما كالماء . . اذا ماكان فيضا متدفقا غطى الحفر الصغيرةوالنتوءاتوظهر سطح الماء مستويا .

اما اذا قل ، تحول النهر الجاري الى مستنقع آسن . . والماء المتصل الى جيوب وبرك صغيرة متناثرة . . وتظل هكذا حتى يأتي فيض ويربط ، ويبعث الخصب والنماء على الضفاف

قدر الله وجهد البشر

وتمر عقود القرن الرابع عشر الهجري ويتغير العالم الاسلامي تغير كبيرا اقول تغيرّ ، ولا اقول تطور . والعالم الاسلامي يحتل كتلة وسطى بين قارات

العالم القديم . قل هو قارة وسطى تمتد اجنحتها ما بين المحيطين الاطلسي والهادي ولها ثغورها الامامية في قلب افريقيا وجنوب شرق آسيا واوروبا الآن . ومع عهد الطيران وسهولة الانتقال ظهرت ثغور جديدة في العالم الجديد . وبعد ان كان العالم الاسلامي جسما متصلا اصبح له نظام كوكبي : اقمار وكواكب تدور حول الشمس . . نور الله من مهد الاسلام ، والكواكب عواصم العالم الاسلامي ، والاقمار جاليات اسلامية جديدة : في اوروبا والعالم الجديد واستراليا .

ويتفجر البترول من باطن ارض الاسلام . ثروة جديدة من الاعماق . واختبار جديد للبشر .

لكم ايها المسلمون موقع متوسط . وهذه هي الطاقة . وهذه هي الثروة . وفي دياركم ارض تصلح للزراعة . واخرى للمراعى . وثالثة تغطيها الغابات . عندكم معادن متنوعة . عندكم الاسمدة . عندكم البشر . . وعليكم ان تصوغوا هذا كله لصناعة الحياة الجديدة

استقلالكم السياسي بين ايديكم . . اقداركم الاقتصادية بين ايديكم ولكن عليكم ان « تعلموا » فالمرحلة الى العلم جهد . تستطيع ان تشتري بالمال ما تشاء الا العقل والفكر المبدع . . هذه منطقة الابداع . وهي من قبل هذا منطقة التكوين وهي بين هذا وذاك منطقة التحدي الحضاري .

اكاد اقول : ان الله لم يجمع للمسلمين من اسباب القوة المادية بعد عهد الرسالة ما جمع لهم الان .

وان مطلع هذاالقرن الخامس عشر الهجري هو موعد التحدي الكبير للارادة الاسلامية فالمسلمون جميعا يستعدون له . .

وهذا « النفط » « الى حين »وافر الانتاج قصير العمر . على خلاف الزراعة : محدودة الانتاج طويلة العمر . النفط في الارض له قدر معلوم . ومطر السماء ينزله الله بقدر معلوم ولكنه من سنن الله الكونية كالليل والنهار . .

ففي هذه المرحلة التاريخية تلتقي في العالم الاسلامي قوى الوجود المستمرة مع الطاقة والمال . يلتقي المستمر والمحدود ، ومجال التحدي هو التخطيط والعلم ، في منعطف تاريخي هو مجمع القوى الاسلامية حيث قوة الاستمرار وذروة التركيز .

ولكن من يقوم بهذا ؟
الشباب . . فلننظر في بعض امره !

هذا الشباب

ولقد شهد الثلث الاخير من القرن الرابع عشر الهجري الكثير من حركات الشباب الاسلامي . ومشكلة الشباب في الاسلام تكاد ان تنحصر في الانحراف عن الاسلام او الانحراف بالاسلام او الاندفاع الشديد به . .

ودون دخول في تفاصيل انشطة الشباب التي انتهت احيانا الى ما يمكن ان نسميه « الانتحار الجماعي الدوري » ، اقول : نحن في حاجة الى صيغة جديدة - او صيغ جديدة - لعمل الشباب الاسلامي .

وتمتاز منطقة الشرق الاوسط بعنف صراعاتها - بصفة عامة - اذا ما قارناها ببعض أقطار جنوب شرق آسيا وفيها أكبر كتلة اسلامية .

كنت في زيارة قريبة لهذه الاقطار خلال شهر سبتمبر ١٩٨٠ ورأيت فيها من صور العمل الاسلامي ما نحتاج معه تبادل الخبرات فيه ، ذكرتني بعض هذه الاقطار في اخلاقياتها بوداعة اهل المدينة المنورة . الدين هناك اخلاق وتعامل ، وبناء اجتماعي وتعاون مع الحاكم على الخير ، ونشر للاسلام بالحسنى ، ورفع للمستوى العلمي والتقني للمسلمين ، وتعايش وودود بين الاديان .

ولا يخلو الامر من صراعات - شأن البشر - ولكن الطابع الغالب هو البناء والمشاركة فيه .

فلنحاول ان ندرس حركات الشباب وكيف ظهرت ، وكيف تعاملت مع اجهزة الحكم ، واخذت منها الاجهزة ، مواقع الحذر ، ثم العداوة ، ثم الصدام ، وكيف انتهى معظمها - ان لم يكن كلها - الى فتات وشظايا حادة لا تلبث ان تتجمع من جديد لتلقى نفس المصير .

نحن فعلا في حاجة الى صيغ جديدة تأتي نتيجة دراسة للصيغ السابقة وحوار مفتوح بين الاجهزة الحاكمة والشباب ، تشترك فيه المؤسسات الدينية والثقافية ، وتتجه به طاقات الشباب الى البناء الايجابي ، في مسالك طيبة يرضون

عنها ، ويحفظ لهم نتائج عملهم ، وتحقيق دولتهم وتنأى بهم عن التوتر والرفض الداعي - من بعد - الى العداوةوالصدام .

ولا ريب في ان مراجعة التكوين العلمي في المدارس والكليات والجامعات ، وتنسيق العلاقة بين البيت والمدرسة والمسجد وأجهزة الاعلام مما يساعد على التوجيه نحو البناء والايجابية والقدرة على مواكبة الحياة في تقدمها .

الحصانة الاسلامية

واعود الى خطة التنمية الشاملة في العالم الاسلامي .

وأبدأ بدءا متواضعا : ان نتفق اولا على ان نجعل هذه المشروعات حين نضعها بعيدة عن مجالات الخلاف والصراع السياسي

لنقل ان قضايا اعداد الشباب للمستقبل وقضايا التنمية لها « حصانة اسلامية » لايعدو عليها الصراع السياسي . يكفي اولا : اعداد الشباب ومشروعات التنمية ، كمناطق حصانة نحاول ان نوسع دائرتها فيما بعد .

هذه التنمية تتجه بها اموال المسلمين الى ارض الاسلام . فمن الغريب ان نجد الاستثمارات الاجنبية في ارض الاسلام ، والاستثمارات الاسلامية في العواصم الاجنبية ، اكثر من الاستثمارات الاسلامية في ارض الاسلام . .

ولا اريد ان القي اللوم على الاستعمار ، ولا على خضوع المشروعات لتيارات السياسة . . فمع البدء الجديد لابد من فكر جديد . . واعتقد ان فكرة « الحصانة الاسلامية » لما تتفق عليه من مشروعات على مستوى ثنائي او اقليمي او اسلامي شامل يمكن ان تحل لنا الكثير من المشكلات وتكون لنا عونا على مزيد من التقدم الى ما بعدها من مشروعات .

ومع الجهود التي تبذل الآن في الربط بين المراكز الاسلامية المتقدمة في العالم الغربي وبين جسم العالم الاسلامي . . الا ان هذا الامر ينبغي ان تنظمه خطة شاملة تحاول بها جمع اطراف الخطط الجزئية المطبقة في هذا المجال الان . .

وتستهدف اساسا تنسيق العلاقة بين المتخصصين في الاقطار الجديدة وثانيا مزيدا من التعاون بينهم وبين دار الاسلام .

فإذا ما استطاعت خطط التنمية عن طريق المنظمات الاسلامية العالمية ان توسع مجالات التعاون بين دار الاسلام والمراكز المتقدمة ، واذا ما امكن ان تقوى دورة الدم والحياة بين العواصم الاسلامية حيث مراكز الحضارة الاصلية ، وبين الثغور الاسلامية الجديدة ، حيث التقدم العلمي ، اذا امكن هذا ، وصبرنا على دعمه ، استطعنا فعلا ان نجعل للقرن الجديد طبيعة علمية وحضارية متميزة عن طبيعة القرن الرابع عشر .

اقتصاديات الجهد

هذا التعاون يحتاج منا الى « بنك معلومات اسلامي . . مركز توثيق اسلامي عالمي ، ينظم المعلومات عن : العلماء . . الابحاث التي يقومون بها . تبادل المعرفة بين الباحثين ، مجالات البحث . وهذا يؤدي بدوره الى اختصار الزمن فلا يضيع لها جهد مكرر . او يسير في خطوط متعارضة . . ولهذا البنك يمكن ان تنشأ فروع في عواصم الاسلام ، تربطها شبكة اتصالات منتظمة . . ولنحاول ان ندخل هذا البنك في دائرة الحصانة الاسلامية . . فالباحثون يبنون المستقبل ، فلنعطهم حقهم في العمل والاستقرار ليعطونا حقنا من الانتاج .

ومن نافلة القول ان هذه المقترحات لا تتعارض مع خطوات اوسع يقوم بها العرب والمسلمون من اجل استعادة الارض والمقدسات والتعاون في مجالات علمية او عسكرية . .

واعود الى نقطة البدء . .

اعود الى المأمول والممكن . .

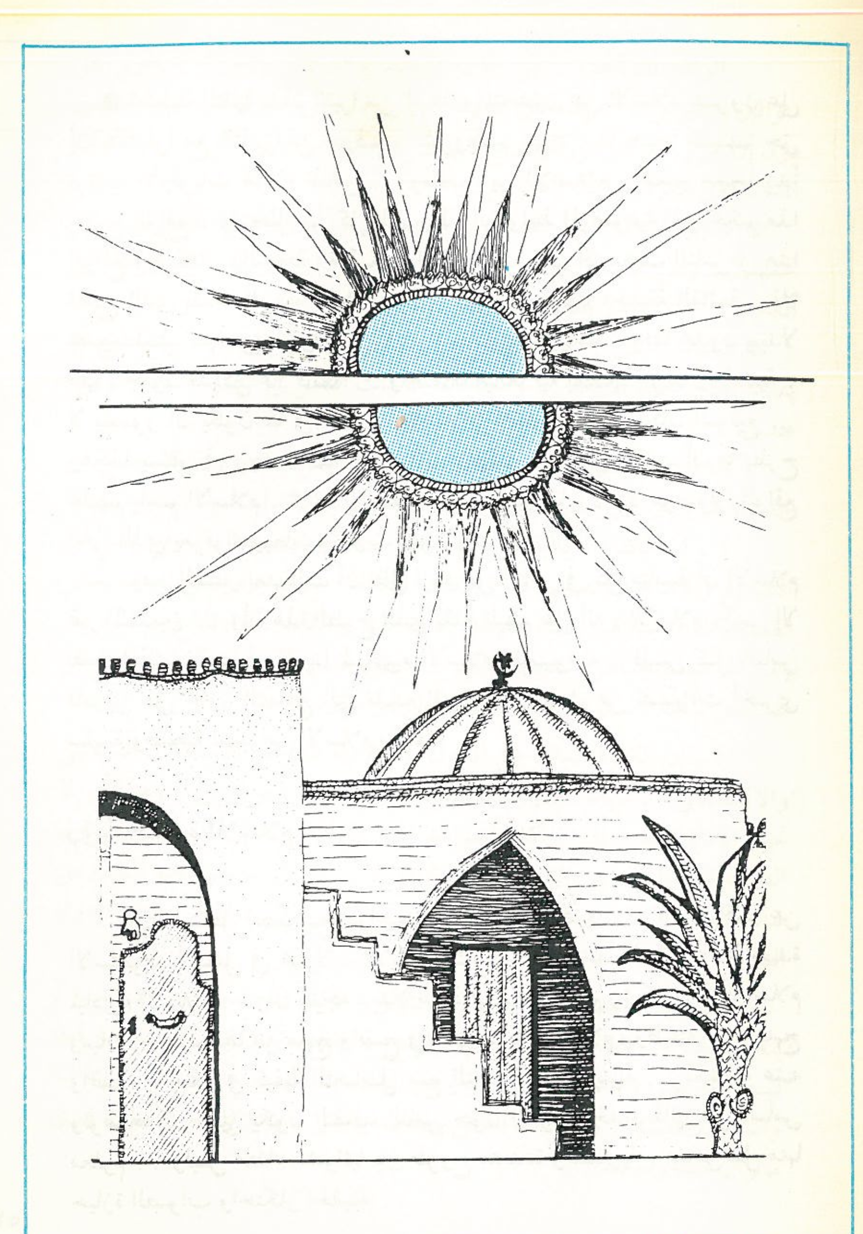
فلتكن الآمال كبيرة . ولتكن الخطوات ممكنة وثابتة على الطريق . والحياة ممتدة ، فلنعط الآمال حقها من النضج عن طريق الممكن . . ولنتأمل طويلا في قوله تعالى « لا الشمس ينبغي لها ان تدرك القمر ، ولا الليل سابق النهار . وكل في فلك يسبحون » . .

وهذه خطوط عامة ، يحتاج كل منها الى تفصيل في القول ، ولتكن اولى المحاولات في التخطيط ان تتولى هيئة كمنظمة المؤتمر الاسلامي جمع الاقتراحات والبحوث التي تنشر الآن لاستقبال القرن الهجري الجديد ، ولتحاول ان تصوغ

منها خطة شاملة ثم تحدد مراحل السير فيها واولوياتها ، ويمكن ان تعاونها في هذا الصحف والمجلات والمؤسسات العلمية التي تساهم في هذا الامر ، بان ترسل اليها صورا من الدراسات المنشورة فيها توطئة لترجمة الاقتراحات . خطة شاملة وخطط جزئية ومراحل وبرامج عمل .

نسأل الله الثبات في الامر والعزيمة على الرشد .





الحاجة إلى الإسلام في هذا الزمان

د . أحمد كمال أبو المجد

لا أكاد استفتح حديثا عن الاسلام هذه الأيام حتى تداخلني رغبة دفينة في أن استمهل القراء حتى لا ينفضوا عني . . باحثين عن حديث آخر أوثق اتصالا بما يرونه قضاياهم الحقيقية القائمة وعذرى في هذا الاحساس ، وعذر القراء فيما يهمون به من الانصراف عن أحاديث الاسلام . . أننا ـ نحن المهتمين بالاسلام والمشغولين بقضاياه ـ قد وقعنا ، أو وقع كثير منا في خطيئتين . .

● الخطيئة الأولى : أننا منذ عشرات السنين نتحدث فنطيل الحديث ، ونقول فنكثر القول ، عن عظمة الاسلام وشموله وخلوده وكماله ، وأنه الحل الذي لا حل غيره لمشاكل المسلمين وغير المسلمين . . غير أننا لا نكاد نجاوز القول أو نعدوه ، ولا نريد أن ننتقل منه الى عمل ، يحرك الدنيا ، ويغير الواقع ، ويقدم الدليل الحقيقي على صحة المقولات التي نطرحها في حماس بالغ والحاح شديد . .

العربي العدد ٣١٩ يونيو - حزيران ١٩٨٦م .

● الخطيئة الثانية : أن كثيرا من الدعاة والمتحدثين عن الاسلام يصرون على أن يتعاملوا مع الناس من حولهم ، بشروطهم هم . . مانحين أنفسهم حق ترتيب الأولويات لهؤلاء الناس . . ومتصورين للاصلاح والتغيير منهجا يبدأ خارج الواقع ، ويتحلل من كل الشروط والضوابط الموضوعية التي تحكم هذا الواقع وتحركه ، والنتيجة الحتمية لهذا المنهج المتعسف أن يبحث الناس في هذا المنهج الذي يقدمه الدعاة المسلمون عن حلول لمشاكلهم الحقيقة القائمة ، فلا يجدون لكثير منها موضعا ولا ذكرا في برنامج أولئك الدعاة ، وانما يجدون ـ بدلا منها ـ حلولا لمشاكل غير قائمة . . واهتماما مبالغا فيه بقضايا جزئية وهامشية ، لا يتصور أن يكون لها في التصور الاسلامي السوي ذلك المكان الرفيع . . وهكذا يستقر في وجدان كثير من الناس ـ ولهم العذر في ذلك ـ أن ما يطرح عليهم باسم الاسلام ، لم يعد « نافعا » ، ولا « صالحا » ، ولا موصولا بالواقع الحي الذي يعرفونه ويعايشونه ويشتغلون به . .

ومن العسير بعد ذلك أن نظل نردد على الناس في كَل مناسبة أن الاسلام غير المسلمين . . وأن هذا الطرح الذي يقدم اليهم على أنه « الاسلام » ليس إلا تفسيرا ذاتيا ناقصا أو فاسدا لمبادىء الاسلام ونصوصه . فليس كل الناس قادرين على تجاوز النماذج التي تقدم اليهم ، والبحث عن تفسيرات أخرى سليمة وصحية لنصوص الاسلام ومبادئه . .

رؤية جديدة للاسلام

إن المدخل الصحيح لمواجهة هاتين الخطيئتين . . أن نتوقف عن الاستغراق الكامل في محاولات الاستدراك والمراجعة على الطروح الفاسدة لمبادىء الاسلام . . وأن نتوجه ـ بدلا من ذلك ـ الى تقديم رؤية جديدة للاسلام ومبادئه ، نستمدها من منهج واضح في فهم حقيقة الاسلام ووظيفته . . ومنهج واضح كذلك في كيفية التعامل مع النصوص الدينية . . نكشف عنه ونوضحه . . حتى يكون التفاف الناس حول الطرح الجديد قائما على أساس معلوم . . وليس انتقاء عشوائيا بين طروح متعددة ومتساوية ، يدعى كل منها حيازة الصواب واحتكار الحقيقة . .

والواقع أن الحديث عن حاجة المسلمين اليوم الى الاسلام ينطوي على سؤالين متميزين ، أعرف حق المعرفة أنهما يلحان على عقول كثير من المسلمين دون أن يجرؤ أكثرهم على التصريح بهما أو اخراجهما من دائرة الهواجس والأفكار المستترة الى دائرة البحث الصريح . .

● السؤال الأول : هل المسلمون المعاصرون في أزمة حقيقية تحتاج الى مفتاح لحلها ؟ . وهل هذه الأزمة جزء من أزمة عالمية تحكمها ظروف التطور التاريخي العام . . أم أنها أزمة خاصة بالمسلمين وحدهم ؟

● السؤال الثاني : هل لدى الاسلام ـ حقيقة ـ ما يتفرد به ، ويستطيع أن يقدمه علاجا لهذه الأزمة . . واستجابة لحاجات الناس في عصر جديد وظروف جديدة ؟

أما أن المسلمين في أزمة فهذه حقيقة لاتتحمل المكابرة ، ولا تحتاج الى حديث طويل . . وأخص مظاهر هذه الأزمة أمور ثلاثة أساسية :

١ ـ أن الكثرة الغالبة من مجتمعاتهم متخلفة اقتصاديا . . وقدرتها على التصنيع والانتاج والتصدير قدرة محدودة للغاية . . والرخاء الذي تعيشه بعض المجتمعات الاسلامية رخاء عارض أتاحه ظهور النفط ، وارتفاع اسعاره . . ومبادلته بسلع جاهزة أنتجها الغير . . حتى صار صحيحا في حقنا ـ نحن المسلمين ـ أننا نستورد غذاءنا وكساءنا ودواءنا وسلاحنا . .

٢ ـ ان الكثرة الغالبة من الدول الاسلامية منقوصة الاستقلال السياسي والاقتصادي . . تابعة ـ بدرجات متفاوتة ـ لدول كبيرة أو كبرى . وهذا أمر لا تجوز المكابرة فيه ، بل إن أكثر الشواهد تشير الى أن استمرار الفجوة بين الدول الصناعية المتقدمة وبين الدول الصغيرة التي لاتزال تشق طريقها نحو التقدم من شأنه أن يثبت هذه التبعية ، وأن يقلل فرص الاستقلال الحقيقي لهذه الدول النامية . .

٣ ـ إن « الشكل الاجتماعي والثقافي » لأكثر المجتمعات الاسلامية لم يتحدد بعد . . فنظامها القيمي غير واضح ، ونظام العلاقات الاجتماعية فيها ليست له صورة معلومة . . وكثير من القضايا الأساسية الخاصة بالثقافة واساليب المعيشة ، وعلاقات الناس بعضهم ببعض ، وعلاقاتهم بالأمم الأخرى ماتزال قلقة ومعلقة . .

ولا تزال قضية القضايا في « الوجدان المسلم » هي التساؤل عن كيفية التوفيق بين قيم الدين ومبادئه وشرائعه وشعائره من ناحية . . وبين صور الحياة المعاصرة التي وفد ويفد كثير منها من حضارات أخرى . . كما نبت بعضها في التربة الاسلامية نتيجة تطورات موضوعية طرأت تباعا على تلك التربة . .

ومن العبث الحديث عن قيادة المسلمين لركب الحضارة ، وعن دور ينتظرهم في توجيهها وترشيد مسيرتها ، وهم على هذا الحال من الضعف والتفرق والحيرة الهائلة ازاء شروط النهضة ، ما ينبغي أن يؤخذ منها . . وما يتحرجون ـ باسم الاصالة ـ من أخذه . .

إن القوة الذاتية ، وتماسك النسيج الداخلي للأمة ، هما المدخل الطبيعي والضروري لممارسة دور ـ أي دور ـ في التأثير على مسيرة الآخرين . . ولو كان هذا دور الناجح الذي يقترح الحلول النافعة . .

والى جوار هذه الأزمة [illegible]ر أخرى تعكس الأزمة الحضارية العالمية . . وأخص معالمها . . انتش[illegible] القلق . . وسيادة النرجسية وعبادة الذات . . والاندفاع المحموم نحو المادة ، وحيازة الاشياء واكتسابها . . والزهد في المحافظة على المود[illegible] العلاقات الانسانية الحميمة والعميقة . . وما أدى اليه ذلك كله من انتشار العنف الفردي والجماعي بصورة لا شبيه لها في تاريخ الانسانية الطويل . . ومن المؤسف أن هذه الظواهر أعراض لأمراض تصاحب الخطو السريع على طريق النمو والتقدم الصناعي ، وما يتحقق من وفرة في السلع والخدمات . . لهذا ارتفعت الشكوى منها باعتبارها أعراضا « لازمة » في المجتمعات الصناعية المتقدمة . . وتلك التي شهدت تعاقبا وتسارعا في القفزات العلمية والصناعية . . وتراكما في الآثار الاجتماعية والنفسية لهذه القفزات كلها . . ومع ذلك فقد وجدت هذه الأعراض سبيلها الى أكثر المجتمعات الاسلامية ، وهكذا شاء الله لنا أن تجتمع علينا في هذه المرحلة من تاريخنا مظاهر أزمة التخلف . . وأعراض أزمة النمو السريع . . وصار على الذين يرفعون شعارات الاسلام وينادون باللجوء إليه لمواجهة « أزمة المسلمين » أن يبحثوا فيه

عن مفاتيح لعلاج هذه الأزمة المزدوجة بشقيها هذين . .

ولكن هل يقدم الاسلام ـ حقيقة ـ مفاتيح لعلاج هذه الأزمة ؟ وماهي هذه المفاتيح التي ينفرد بها ؟ وكيف نضعها ـ عمليا ـ في متناول المجتمعات الاسلامية المعاصرة ؟

ان الاجابة المفصلة عن هذه الأسئلة تحتاج الى حديث طويل يجاوز ـ كثيرا ـ حدود مثل هذا المقال . .

ولكن هذه الاجابة ـ بخصوص واقع المسلمين ـ تكمن في حقيقتين كبيرتين :

● الحقيقة الأولى : أن الخروج من أزمة التخلف الذي تعيشه المجتمعات الاسلامية لا يمكن أن يتحقق بأدوات حضارية مقطوعة الصلة بالاسلام وحضارته وثقافته ونظامه القيمي . . ومهما بدا لبعض المحللين والمؤرخين والمصلحين من وجود « أدوات للنهضة » مستقلة تماما عن روح الحضارات المتميزة فإن الحقيقة التاريخية تؤكد أن التفاعل مع هذه الأدوات والاستجابة لتأثيرها لا يكتملان أبدا في اطار الشعور « بالغربة عنها » وهو شعور يضيع الثقة بالنفس . . ويزرع الاعتقاد بالعجز . . ان الدعوة الى الأخذ من ثقافة الآخرين ، مهما بدت مبررة ومقنعة فإنها تظل محملة بخطرين كبيرين : أولهما ـ أن تتحول الاستجابة لها الى استجابة مطلقة . . تأخذ مع « الأدوات الحضارية » « قيما حضارية » ، ومع الأساليب التقنية أساليب حياة ومعيشة ، ونظما للعلاقات الانسانية . . أي تحمل مع « أدوات النهضة » . . أدوات الانتكاس في ميادين أخرى ... وتنتقل الى البيئة المحلية مع اسباب التقدم ، أمراض التقدم وأعراض الأزمة المصاحبة له . .

أما الخطر الآخر ، فهو خطر الاستجابة الناقصة نتيجة المقاومة الداخلية والباطنية الناشئة من الاحساس بالخطر . . والشعور بالغربة ازاء « أدوات التقدم » المستعرة . . ان الشعوب في مراحل ضعفها ، واحساسها بأخطار الغزو الثقافي والسياسي ، تميل ـ بتلقائية غريزية ـ الى الانغلاق على نفسها ، واغلاق النوافذ في وجه التيارات الوافدة ، وتثبيت أقدامها في أرضها المحلية خوفا من أن تقتلعها العواصف القادمة . . وفي هذه المراحل يكثر الحديث عن الأصالة ، وضرورة المحافظة على ذاتية الثقافة . . وضرورة رفض « الافكار

المستوردة » . . كما تغلب نزعة محافظة تتجه الى اجترار الماضي والالتصاق به . . خوفا من مجاهيل المستقبل وما يحمله . .

لهذا فإن استخراج أدوات النهضة . . وشروط التقدم من داخل الحضارة الذاتية . . يغدو المسلك الأمثل ، ان لم يكن الطريق الوحيد الفعال ، لمتابعة مسيرة التقدم متابعة لا يتهددها خطر الاندفاع الذي ينخلع أصحابه من ذاتهم . . ولا خطر الرفض والتحفظ ومقاومة « الأدوات الجديدة » لأنها وافدة وغربية وتحمل في طياتها مداخل متعددة للتبعية وفقدان الاستقلال وضياع الهوية . .

ومن هنا تغدو عملية تجديد الفكر الاسلامي « واستخراج » شروط النهضة من باطنه عملية بالغة الأهمية في التوجه للخروج من الأزمة التي يعيشها المسلم المعاصر ، وتعيشها المجتمعات العربية والاسلامية القائمة . .

● الحقيقة الثانية : أن الاسلام ينطوي - حقيقة - على « أدوات النهضة وشروط التقدم » . . ولكن ظروفا تاريخية بالغة التعقيد دفعت بالشعوب الاسلامية ، وبكثير من روافد الفكر الاسلامي ، بعيدا عن اكتشاف القيمة الكبرى التي يمنحها الاسلام لهذه الأدوات كلها . . ومن ثم فإن تجليتها من جديد ، وتقديمها للناس في وضوح ، في ارتباطها العضوي بالتصور الاسلامي الشامل للانسان ودوره . . لا تزيد على أن تكون حركة تصويب وتصحيح . . واكتشافا ثانيا للتراث - في اطار نظرة وظيفية - غير شكلية للاسلام ومبادئه وشرائعه وآدابه . .

اكتشاف أدوات النهضة

ان هذا الاكتشاف المتجدد « لأدوات النهضة » يحتاج الى تحديد الأولويات في بيان التصور الاسلامي للحياة وللانسان .

ان إلحاح الاسلام على « تعمير الكون » باعتباره جوهر مهمة الانسان على هذا الكوكب . . هو المدخل لعلاج « الأزمة المحلية » التي تأخذ بخناق المجتمعات الاسلامية . . ذلك أن تعمير الكون له شروط وآليات ، وله مداخل وقيم خادمة وأخلاقيات . . واذا كان في تراثنا الفقهي أن ما لا يتم الواجب الا به

فهو واجب . . فالحال كذلك هاهنا . . لا يمكن للمسلين أن يعمروا الكون . . الا اذا اكتشفوا قوانينه بالنظر العقلي الحر . . وبالتجربة العملية الدقيقة . . ولا يمكن لهم - بعد ذلك - أن يستخدموا هذه القوانين الا اذا أحكموا المنهج العلمي في تغيير المجتمع والتأثير في الطبيعة . . والا اذا وجهوا جانبا كبيرا من جهدهم نحو تشكيل أوضاعهم الاجتماعية تشكيلا يعينهم على مواصلة السعي الذي لا يفتر بالعمل المنتج والمبدع . .

وهم في النهاية لا يستطيعون أن يفعلوا شيئا من ذلك كله الا اذ أقبلت أجيالهم على الحياة في حماس وأمل ورغبة في البناء . . أما اذا أعرضت تلك الأجيال عن الحياة . . وزهدت فيها . . واعتزلتها . . بدعوى أن الشر فيها غالب . . وأن طويلها قصير على أي حال . . وأن الآخرة وحدها جديرة بالعناية والاحتفال . . فإن « البناء النهضوي » فيها - ينهار من أساسه . . كما أن فرص التقدم تضيع كلها قبل أن تبدأ . .

لهذا لا نمل أبدا من الدعوة في الحاح الى تجلية أمور ثلاثة نراها وثيقة الصلة بتحريك هذا الاكتشاف الجديد لأدوات النهضة من داخل الاسلام وتصوره الشامل . .

١ - الأمر الأول الالحاح على انسانية الاسلام . . وارتباطه بسياق التطور الانساني ، وتاريخ التجربة الانسانية . . ان هذا الالحاح من شأنه أن يتيح قدرا أكبر من تبادل التجارب الحضارية في غير احساس - خاطىء - بالغربة عنها . . كما أن من شأنه أن ييسر للمسلم المعاصر اقتحام ساحة السباق التي ينفرد بها الآن الآخرون . . ويضع المسلمون أنفسهم خارجها . . وذلك حين يضعون أنفسهم وحضارتهم خارج « تاريخ الآخرين » . .

٢ - الأمر الثاني الالحاح على « دور العقل » في بناء النهضة . . وتصفية الحرب القديمة التي لا تنقضي بين « العقل والنقل » وبين التراث والتجربة المعاصرة . . فبغير العقل وابداعه لا تقوم نهضة ولا يتغير واقع . . والاسلام لا يصنع للمسلمين نهضتهم ، وانما ينهض بهم .

٣ - الأمر الثالث الالحاح على وجود دور « للمكان » و « الزمان » و « الظرف الموضوعي » في تحديد المضامين التي جاءت بها النصوص . . وذلك استنادا الى تجدد الحكمة الالهية ، والى ارتباط التشريع بالمصلحة ، ودوران

أحكامه مع مقاصده ، والى القواعد العديدة التي تقوم على هذا الأصل كقاعدة منع الضرر ، ورفع الحرج ، وتغير الفتوى باختلاف الأزمنة والأمكنة . .

والاسلام - فوق ذلك - حقيقة كذلك - على مداخل أساسية لتخفيف الأزمة الهائلة التي تواجهها المجتمعات المتقدمة . . والتي تنتظر كل قادم الى « نادي الدول الصناعية المتقدمة » وهي أزمة « الجفاف » في المشاعر الانسانية ، و « الفتور المتنامي » في علاقات الناس بعضهم ببعض . . والعزلة الموحشة التي تصنعها النرجسية والانغلاق على الذات . . وما يصاحب ذلك من موجات القلق ، والاحساس بكآبة الوجود الانساني ، والميل الهائل الى العنف الذي دخل - فرديا وجماعيا - دائرة الانحراف والمرض . .

قيم أولية

ان الاسلام يخفف كثيرا من أعراض هذه الأزمة من خلال إلحاحه على مجموعة من « القيم الأولية » التي تتناول أكثر الدوائر قربا . من « الذات الفردية » وهي دائرة الابوة والامومة والبنوة في نطاق دائرة الأسرة ، حيث حول الاسلام علاقة « البر والمودة » في نطاقها من مجرد قيمة اجتماعية ذات منطلقات غريزية الى أمر وثيق الصلة بالعقيدة نفسها . . تال مباشرة في أهميته والتذكير به لعقيدة التوحيد التي هي ركن الأركان في تصوره الشامل ، وبنائه الفلسفي والايماني . . كما حول الاسلام « علاقة الجوار » من علاقة تبادل للمنافع المادية الى شعيرة دينية خاصة لا أدري كيف غفل كثير منا عن دلالتها . . وكأني بالنبي (ﷺ) وهو يقول : « مازال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه » . . كأني به - (ﷺ) كان يتجاوز ببصيرته وقلبه النبوي الملهم ، مسافات الزمان والمكان . . ويخترق حجب المستقبل وما يحمله من تغيرات . . ويتصدى بالعلاج لأزمات الناس فيما بعد القرن العشرين . .

ان من الحقائق المستقرة في عقيدتي . . أن كثيرا من أحكام الاسلام أوصى بها النبي (ﷺ) ووجب العمل بها منذ جاءت عن الله سبحانه . . ولكنها - بالمفهوم التاريخي الشامل - ظلت مدخرة تنتظر قرونا من الزمان . . حتى جاء

الميقات المعلوم للحاجة الهائلة اليها . . وهي حاجة تظهر في عصرنا هذا ، وفي عصور مقبلة بما لم تظهر بمثله في عهد النبوة وصدر الاسلام . .

ان التكامل في البناء القيمي الذي أقامه الاسلام للعلاقات الانسانية يكشف في موضوعية كشفا رائعا مؤداه أن الاسلام - حقيقة - يحمل مفاتيح فعالة لحل أزمة التخلف التي تواجهها مجتمعات المسلمين كما يحمل مداخل أخرى مذهلة للتخفيف من الآثار السلبية للتقدم السريع ، والتي يتصورها كثير منا ضريبة لا فكاك منها يدفعها كل راغب في التقدم المادي . .

فهل يحمل بعض مثقفينا عبء رحلة جديدة على هذا الطريق الرائع - على وعورته - يجددون من خلالها للناس أمر دينهم ويصلحون بها كثيرا مما فسد من أمر دنياهم ؟

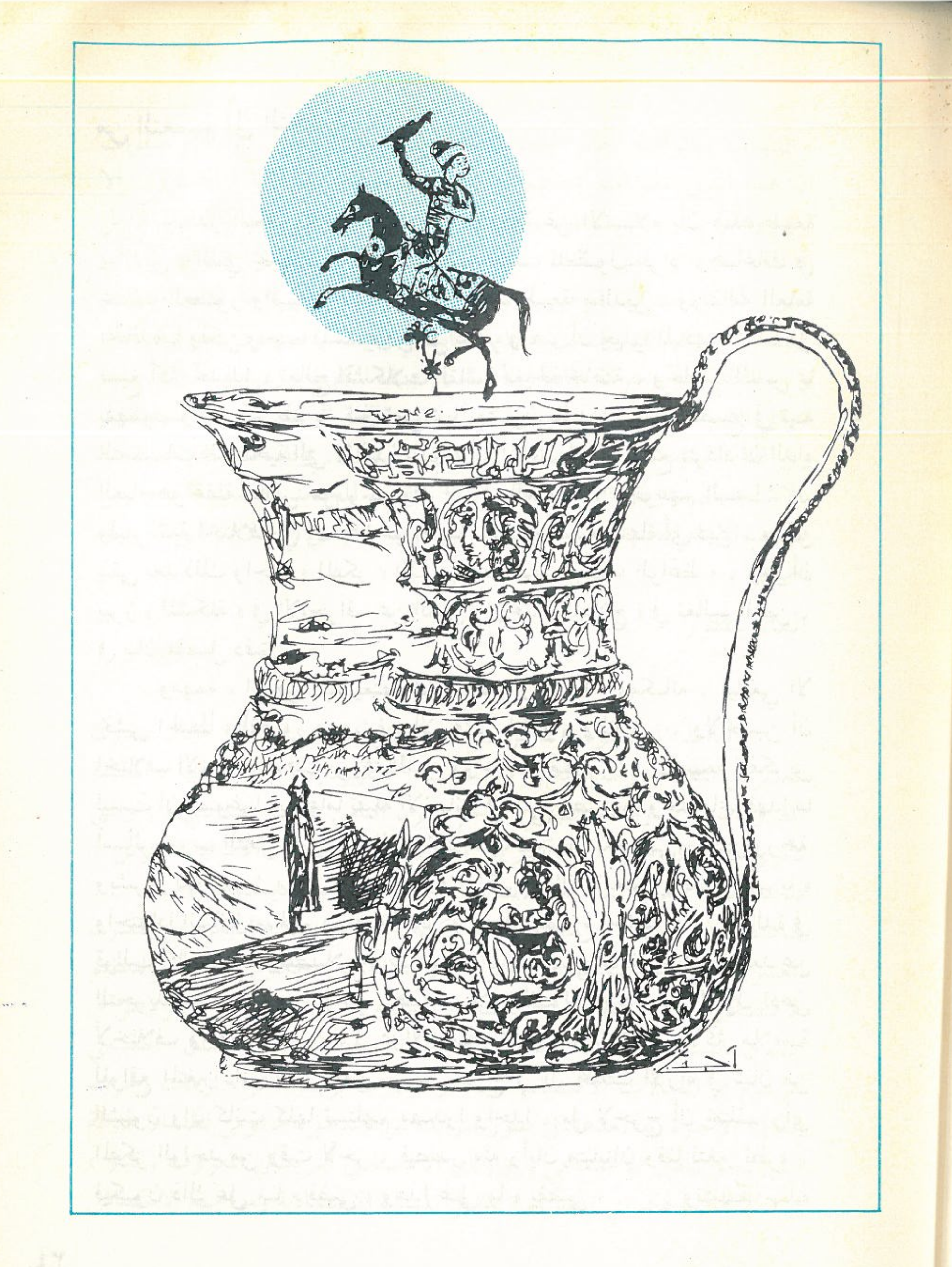


الفكر الإسلامي ومسؤوليات قرن جديد

د. محمد فتحي عثمان

ان الفكر الاسلامي احوج ما يكون الى النهوض والانطلاق . . . فلم يعد يكفي العقول تلك التعميمات والاطلاقات التي تؤكد أن الاسلام صالح لكل زمان ومكان ، بل لابد من تفصيل وتدقيق لتبين أن الاسلام صالح لعلاج مشكلات زماننا ومجتمعاتنا . . . واذا كانت التعميمات قد فعلت شيئا فيما مضى لاعادة ثقة المسلمين في دينهم وانفسهم حين تعرض كيانهم المتداعي للهجمات الضروس ، وحين بلغ اليأس منهم مبلغه ورأى بعضهم أمل الانقاذ في الانسلاخ من تاريخهم وشخصيتهم ومتابعة « الغرب » المظفر في كل شيء « ما نحب منه وما نكره » وانقياد اكثرهم لهذا الرأي ، فان العبارات الساذجة المتفائلة لم تعد تغني العقل الاسلامي المعاصر فضلاعن غيره ، وهو يحتاج الى معالجة أكثر تعمقا لمشكلات المسلم - والانسان بوجه عام - في القرن الجديد .

العربي العدد ٢٦٧ فبراير - شباط ١٩٨١ م .



من التعميم الى التحديد

ويتندر البعض للاقوال المجملة المتفائلة عن الاسلام بأن هذه طبيعة « الدين » الذي يخاطب به منزل الكتاب مختلف العقول افرادا وجماعات في مختلف العصور والبيئات . . . ولاينكر أحد طبيعة « الدين » ورسالته العامة الخالدة ، ولكن واجب المسلمين في كل عصر ومصر أن يحيلوا المبادىء العامة الى صيغ أكثر تحديدا ، تعالج المشكلات القائمة معالجة خاصة ، وتخاطب الناس بما يفهمون وتبين لهم طريق الخلاص مما يعانون بالذات ، ولا تضيع في تيه التعميمات السطحية التي لا تحدد الدواء أو الداء ، ولعلها تقنع بترداد أن الداء العياء هو غفلة الناس عن ربهم وان الدواء الفريد هو رجوعهم اليه !! . .

وليس ثمة اختلاف في أن هذا هو الأصل العام بالنسبة لدعاة أي دين ، ولكن يبقى بعد ذلك واجب « المفكر » الذي يختلف عن واجب « الواعظ » ، وهو أن يبرز « المشكلة » في الانحراف عن الدين ، ويحدد« العلاج » في تعاليم الدين ، في بيان مفصل دقيق .

ومهمة « المفكر » بطبيعتها محدودة بحدود زمانه ومكانه ، فينبغي الا يخشى الخطأ والقصور ، وينبغي الا يخشى الحوار والنقاش ، ولايحسبن أن اختلاف الآراء مما يذهب بروعة الدين ووحدة المؤمنين . . . ان مهمة المفكرين ليست أن يصوغوا دينا عاما تقبله الانسانية في جميع عصورها ومجتمعاتها فهذا ما استأثر به رب الناس اله الناس الذي نزل الكتاب«تبيانا لكل شيءوهدى ورحمة وبشرى للمسلمين » . . . وانما مهمة المفكرين ان يقدموا « فكرا بشريا » واجتهادا انسانيا يستلهم مبادىء الدين واصوله ليصوغ تعاليم الدين الخالدة في قوالب أكثر تحديدا وتفصيلا وأقرب لمعالجة الواقع الذي يعايشه الناس وابعد عن التجريد والتعميم . . . وهي بطبيعة ملامسةالواقع وتفصيل القول ادعى لاختلاف وجهات النظروأولى بموالاة التعديل ابتغاء الافضل والاكثر ملاءمة للواقع المتغير دائما . . . ومن ثم فلا حرج في أن تختلف الآراء في شأن من الشئون وان كانت كلها تستلهم مصدرا واحدا ، بل لاحرج أن يختلف رأي المفكر الواحد من وقت لآخر ، فيصدر منه رأيان متباينان وفقا لتغير نظره ، فيكون ذاك على ما « قضى » وهذا على ما « يقضي » . . . . وتشهد بهذه

« الدينامية » الرائعة ذخائر الفكر الاسلامي منذ عهد رسول الاسلام صلوات الله عليه الذي علم امته بمحكم قوله « كنت نهيتكم عن زيارة القبور ، ألا فزوروها . . . » « كنت نهيتكم عن ادخار لحوم الاضاحي ، انما كان ذلك لأجل الدافة . . . » . وسواء أكان ذلك منه صلى الله عليه وسلم اجتهادا بالرأي تغير ، أم كان تشريعا موحى به نُسخ ، فان الحقيقة تبقى قائمة تعلم المسلمين كيف يواجهون الظروف بالاحكام المتباينة ، وكيف يواجهون بحركة الفكر و « ديالكتيكيته » حركة المادة والأحياء في هذا الكون « وديناميته » . . . ثم تتوالى الشواهد على هذه الدينامية في أحكام الخليفة الراشد عمر واجتهاداته ؛ وفي فقه مالك الأخذ بالمصلحة المعتبرة والمرسلة ، وفقه أبي حنيفة الأخذ بالاستحسان ، وفقه الشافعي المنتقل من القديم للجديد بحسب ما تغير من ظروف الامام المجتهد ومن ظروف الناس ،وفقه مجتهدي الاسلام رضي الله عنهم أجمعين

العالم يتطور

وليأخذ المسلمون ومفكروهم من تطور الفكر العالمي خلال القرن العشرين الميلادي وحده العبرة والمثال . . . فالليبرالية « الكلاسيكية » المطلقة المعروفة منذ الثورة الفرنسية في أواخر القرن الثامن عشر (الميلادي) ، والتي لاترى قيدا على حرية الفرد أكثر من واجب ضمان حريات الافراد الآخرين ، قد تعرضت لتعديلات وتعديلات في المجالات الاقتصادية والسياسية . . . فاضطرت الولايات المتحدة الامريكية ازاء كساد الثلاثينيات من القرن العشرين الى (سياسة جديدة تعلن ضرورة التدخل الحكومي في مجال التنظيم الاقتصادي ، وتعلن بذلك خطأ نظرية « التوازن الميكانيكي » المفروض في السوق بالنسبة للعرض والطلب ، وفي غير ذلك من صورة « الاتساق » الطبيعي المزعوم في المجالات الاقتصادية . . . واضطرت بريطانيا ازاء أزمات الحرب العالمية الأخيرة وما بعدها الى صور متزايدة من التدخل الحكومي لضمان عدالة التوزيع والتأمين الاجتماعي ، وارتأى الاقتصادي البريطاني المعروف « كينز » في « الانفاق الحكومي » ضرورة تعديل المسيرة الاقتصادية ومواجهة الانكماش

والبطالة ، ولم يعد « سعر الفائدة » وحده هو العصا السحرية التي تعدل ميزان الاقتصاد .. وتزايدت أهمية العمال الفنيين الخبراء ، ناهيك « بالتأميم » لبعض مرافق الانتاج والخدمات تحت حكم العمال . الى جانب الضرائب التصاعدية على الدخول المتطورة والمعقدة نتيجة التقدم التقنى الهائل فغدوا قوة ضاغطة لها وزنها وحسابها ازاء قوة رأس المال ، ولم يعودوا مجرد « ناخبين » كل قوتهم في أصواتهم ، بل مارسوا حقوقهم النقابية وسائر حقوقهم في الاجتماع والتظاهر والاضراب ، بل استخدموا العنف في بريطانيا ، موطن الديمقراطية الكلاسيكية . حتى شكت الحكومة العمالية من أن العنف الجمالي يهدد حقوق السلطة التشريعية والنظام البرلماني الحزبي العريق في بريطانيا .. وأرتأت فرنسا بعد حركات الطلاب في الستينيات أن تعدل عن فكرة « رئيس الدولة » (الرمز) الذي يملك ولايحكم . واستشعرت منذ زعامة ديجول حاجتها الى الرئيس (الزعيم) الذي يحكم ويسعى لتعديل الموازين بين الاحزاب وبين الحكومةوالبرلمان .

حدث هذا في العالم الرأسمالي ... وحدث في الكتلة الشرقية الماركسية ما يعرفه الجميع من انشقاق تروتسكي عن لينين في الاتحاد السوفييتي من اختلاف خروشوف عن سياسية سلفه استالين بالدعوة الى « التعايش السلمي » بدلا من الحرب المحتومة بين العالم الاشتراكي والعالم الرأسمالي وبتقرير أن انتصار الاشتراكية قد يأتي عن طريق ما تعانيه الرأسمالية من تناقضات داخلها وتكلم ليبرمان عن ضرورة الحوافز الاقتصادية للعمال ، وتكلم غيره عن وجوب مراعاة مطالب المستهلكين كما حدث تطور في « الشيوعية الأوروبية » منذ أيام (تولياتي) الأخيرة في زعامة الحزب الشيوعي الايطالي ، فاعلنت ايمانها بالنهج الديمقراطي وعدم ضرورة اعتبار العنف الشورى ودكتاتورية البروليتاريا النهج الأوحد لتحقيق الاشتراكية ... كذلك حدث الانقسام والخلاف الخطير بين يوغسلافيا والاتحاد السوفياتي ، ثم الانقسام والخلاف الأخطر بين الصين والاتحاد السوفييتي .

فاذا كانت هذه حصيلة التطور داخل كل من الايدولوجيات العالمية في مدى قرن من الزمن .. فما أحوج الفكر الاسلامي الى التطور وقد جمد طيلة قرون متتابعة ... ولا يقال هنا : ان الدين الهي خالد لايحتاج الى التطور كما تتطور افكار البشر ، فانما الحاجة هنا الى تطور الفكر الانساني المتجدد من المباديء والاصول الالهية الخالدة ، والى الاجتهاد في الفهم والاستنباط من النصوص وفي الحكم فيما لا نص فيه كما لايقال هنا : ان الخلاف والانقسام والشقاق نذير موت لاأمارة حياة ، فان اختلاف الآراء ظاهرة صحية اذا توافرت له الشروط المنهجية والاخلاقية ، فلا يصدر عن هوى وفتنة بل يكون تمحيصا رشيدا ، وحوارا بناء مثريا للفكر معينا على تلمس وجه الحق .

ان المسلمين اثبتوا ازاء دورات الزمن وما واجهوه من أهوال ومحن جسام قدرتهم على الصمود والبقاء . وقدرتهم على التحرك من حين الى حين للخروج من ربقة الاستعمار والاستعباد ، ولكن يبقى أن يثبت المسلمون قدراتهم في مجالات الوجود الفكري والحركة الفكرية . لقد مضى القرن المنصرم والمسلمون يلحون على فتح باب الاجتهاد . وينعون على اغلاقه وعلى الذين أغلقوه ... ولكن ما يكاد أحاد يحكمون رؤوسهم ويعملون اذهانهم ويقدمون للناس رأيا - صوابا أو خطأ - حتى تنقض عليهم الغالبية العظمى من متعلمين وغير متعلمين بحجارة المروق والضلال وأحيانا الزندقة والكفر ، وتصب عليهم أصوات عذاب لهم وارهاب لمن قد يتأثر بهم . ولعل المسلمين مع اطلالة القرن الجديد يعون حق الوعي ان فتح باب الاجتهاد يقتضي ضمان حريات المجتهدين وحرماتهم أصابوا أم أخطأوا . ويستلزم الحفاظ على الحق في الخطأ غير العمدي وما أروع حديث المعصوم صلوات الله عليه الذي ضمن للمجتهد المخطيء اجرا حين قرر للمصيب أجرين !! ولعل المسلمين قد تبينوا أن الاجتهاد ممارسة عملية ، وان تقرير اباحة الاجتهاد أو وجوب الاجتهاد لن يخرج مجتهدين ، وانما يتكون المجتهد الذي استكمل ادوات الاجتهاد وعدته ومقوماته وشرائطه بممارسة الاجتهاد فعلا والوقوع في الخطأ الى جانب ادراك الصواب .

وامام المفكرين المسلمين مجالات واسعة متعددة لتقديم صيغ اسلامية لمقتضيات العصر وحصيلةالتطور الانساني الجاد والمنجزات التي حققها البشر بكد الفكر وكفاح البدن .

مجالات واسعة للحركة

نعم ما أحوج المسلمين في القرن الجديد الى صياغة اسلامية لمقتضيات العصر وقضاياه على هدى الاسلام ووفقا لمناهجه وأساليبه . حقوق الانسان وحرياته العامة (وفي مقدماتها حرية الرأي والتعبير ، وحرية الاجتماع وما ينبثق عنها ويترتب عليها ، وحرية اقامة الجمعيات ومنها الاحزاب . . الخ) ، متوازنة مع واجبات الفرد والتزاماته ازاء الافراد الآخرين وازاء الجماعة والدولة . . . المؤسسات السياسية وطبيعة وضعها ومهامها وحقوقها وواجباتها . . المساواة الدستورية والقانونية والاقتصادية . . المساواة الدستورية والقانونية والاقتصادية : طبيعتها وحدودها ، ضماناتها وفعالياتها في مجال التطبيق وبخاصة بالنسبة للمرأة ولغير المسلم . . . المؤسسات الاقتصادية في مجالات الانتاج والخدمات والنشاط الرأسمالي والفعاليات الممكنة للقطاعين العام والخاص ومناشط المؤسسات المصرفية ومؤسسات التأمين حكومية وأهلية . . .

ولن يقنع أولي الالباب في القرن الجديد بين المسلمين وفي العالم أجمع ، أن يقال أن حقوق الانسان تكفي في بيانها وتفصيلها آية من القرآن ذكرت كرامة بني آدم ، وان بقيت الآية الاصل الجامع الخالد الذين تتفجر منه صيغ غير متناهية تتوالى بتوالي الأزمان وتباين الحاجات والافهام لتفصيل ما يحقق كرامة الانسان وما يضمن انفاذ الحقوق المقررة . . . ولن يقنعه ان في الآيتين اللتين ذكرتا الشورى في القرآن غناء عن معالجة طبيعة هذه الشورى وحدودها ومجالاتها والاجهزة القائمة على تحقيقها . . . ولم يعد مقنعا أن يذكر تحريم الربا بنصوص محدودة معدودة من القرآن والسنة دون نفاذ الى تطوره التاريخي وصور المعاملات الواقعية التي ورد عليها التحريم وحكمة التحريم بالنسبة لتلك المعاملات في

اطار الأوضاع الاقتصادية السائدة وقتذاك ، ودون متابعة للتطور الاقتصادي واثاره بالنسبة لقيام المؤسسات الرأسمالية والمصرفية والتأمينية ومناشطها ، حتى تكون المقارنة عن بينة ويصدر الحكم بقبول معاملة معاصرة أو رفضها أو تعديلها بناء على البحث المستوعب والمتعمق . ولن يقبل المسلمون اليوم ما يكون بعضهم قد قبله بالأمس وما يكون افراد منهم قد افتتنوا به فيما مضى من تصيد شيء من النصوص تعالج بالتأويل السطحي لتتسع للتأميم والاشتراكية تارة ، أو لتوجه لنقيض ذلك تارة أخرى .

ان المسلمين في القرن الجديد حري بهم أن يتنازلوا عن نزعات الرفض المطلق لكل مؤسسات العصرالسياسية والاقتصادية ولكل صور معاملاته واجتهاداته الفكرية والعلمية . مثلما شرع مسلمو هذاالقرن بالتنازل عن نزعات القبول والمتابعة باطلاق لكل مؤسسات العصر ومعاملاته واجتهاداته . ان التقليد مذموم في كل حال ، والاصالة مطلوبة بالنسبة لمعالجة اجتهادات المعاصرين المسلمين واجتهادات الاسلاف المسلمين سواء بسواء ، والرد الى كتاب الله وسنة رسوله بالنسبة للقديم والجديد يقتضي التمحيص والتعمق والحكم بعد قيام الدليل الناصع المبين .

المسلمون والآخرون

وحري بالمسلمين في القرن الجديد كذلك ، وقادة الحركات الاسلامية منهم بوجه خاص ، ان يتوصلوا الى صيغ لملاءمة التعامل مع العاملين على اساس المصلحة الوطنية وحدها . مع اصحاب النزعات القومية بصورة من صورها . . . فليس كل من اعتبر النطاق الوطني أو المجال القومي منطلقا للعمل السياسي زنديقا لايتعامل معه الاسلاميون وكأنه أنكر معلوما من الدين بالضرورة . . وانما تعالج القضية بحوار منير لابعادها ، يوضح المكاسب والخسائر في كل حال ، والمسلمون مدعوون لان يوفقوا بين تعاليم الاسلام في التآلف والتعاون وبين تصور لدولة الاسلام الشرعية وكأنما ينبغي أن تكون دولة عالمية واحدة ، وأن يفرقوا بين « الخلافة » باعتبارها صورة تطبيقية تاريخية .

وبين التعاون الدولي الاسلامي كهدف يمكن أن يتحقق في صور متباينة وفقا لتباين الظروف في العصور المتوالية ، وأن يتبنوا أن « الخلافة » باعتبارها صورة للدولة الاسلامية العالمية الواحدة لم تعش طويلا وان التطلع الى مثل هذه الدولة على أنها أمل بعيد منشود مثلما يتطلع مفكرون آخرون الى الحكومة العالمية الواحدة ، مثل هذا التطلع شيء والمبادرة الى تحقيقه فورا ورفض كل ما عداه شيء آخر .

نظرة المسلمين الى علاقاتهم الدولية مع العالم المعاصر الذي يعيشون فيه تحتاج الى تأمل ومراجعة . . . فاذا كان المسلمون قد عانوا من استعمار الغرب وسيطرة عمالقته في جميع المجالات ، وواجهوا في حضارة الغرب وأيديولوجياته السائدة ما يخالف قيمهم ومبادئهم ، فلايعني هذا الرفض المطلق لعالم اليوم والعزلة عن التعامل مع دوله القائمة . . . ولايعني الخلاف السياسي أو الايديولوجي عزوفاً عن التعاون الدولي واعلانا للعزلة . . ان الولايات المتحدة الدولة العملاقة شبه القارية قد فشلت سياستها في النزوع الى العزلة . . . ودول العالم كلها محتاجة الى التعاون والتعامل . . . وعزلة المسلمين تزيدهم ضعفا وتزيد غيرهم فيهم شكا وبدينهم جهلا ومنهم ومن دينهم نفورا . . . وتقسيم العالم الى «دار السلام » و « دار حرب » ليس هو التقسيم الثابت المطرد الصحيح ، ولم يرد به كتاب او سنة ، وانما قال به بعض الفقهاء وارتأى آخرون أن يضاف الى الدارين « دار العهد » ، وغير هؤلاء وأولئك من قال بالتقسيم الى « أمة الاسلام » و « أمة الدعوة » . ولم يذكر الحرب على الاطلاق .

ان على المسلمين في القرن الجديد أن يعيشوا بفكرهم وعقيدتهم في عصرهم ، وأن يتعاملوا مع الناس من حولهم . في بلدانهم وفي عالمهم . . وأن يعوا جيدا أن دعوتهم انما تعيش في اطار من العلاقات الانسانية . وانها تجد طريقها حين تقام الجسور وتتوافر المواصلات الجيدة أمامها ، وانهم يقطعون السبيل على فكرهم ودعوتهم في بلدان الاسلام وفي العالم اجمع بالعزلة والرفض والانطواء !

ان الاسلام فتح الطريق للتواصل الانساني والحوار الفكري المنير حتى حين تضيع الثقة وتتعطل الكلمة ويمتشق الحسام ، فهتف كتاب الاسلام بالمؤمن المجاهد والمعلن للحرب أن يحكم الكلمة والحجة عند أول فرصة تتاح لذلك بين

قعقعة السلاح ، فقال عز من قائل : « وان أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه . ذلك بأنهم قوم لايعلمون » . (التوبة/٦) .

وهكذا يفعل الواثقون بانفسهم ودينهم وحجتهم . . الواثقون بالانسان الذي فطره الله عاقلا مميزا بصيرا ، وعلمه البيان من جهة ، والاستماع الى القول وتفهمه وتمييزا لحسنه واعطاء الارادة لمتابعة الاحسن من جهة أخرى .

وهكذا يكسب المسلمون لانفسهم ودينهم كلما عاشوا في العالم وتعاملوا مع الناس ، وتواصلوا مع غيرهم على الحفاظ على حقوقه وكرامته ، وأخلصوا للتعاون العالمي على أساس العدالة الدولية « فبشر عباد الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، أولئك الذين هداهم الله واولئك هم اولوا الالباب » (الزمر/١٧-١٨)

صدق الله العظيم



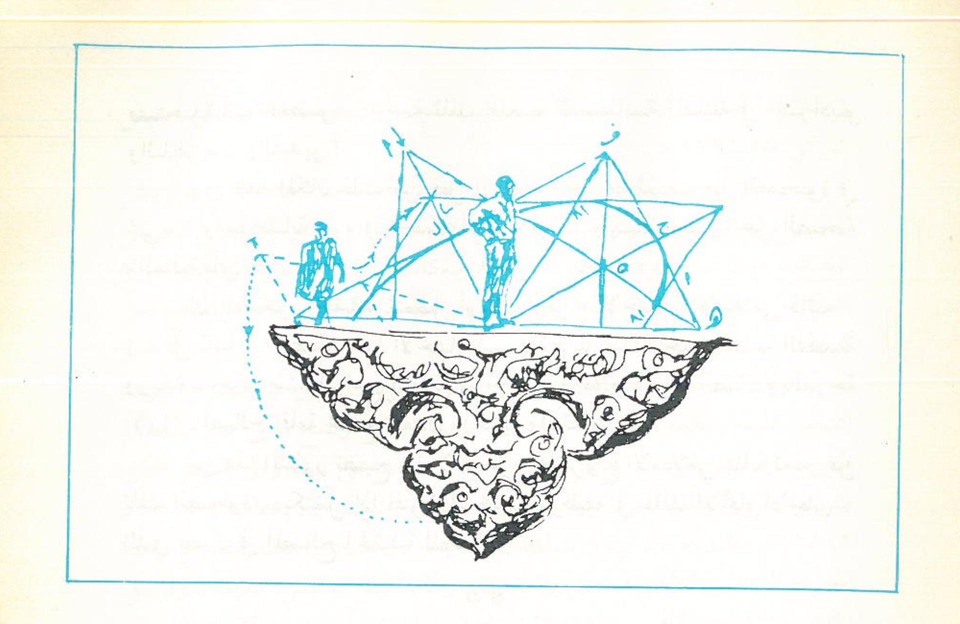
خطوط عريضة لمشروع إسلامي

فهمي هويدي

ينبغي أن تستوقفنا وتثير انتباهنا تلك المحاولات الجادة لصياغة « مشروع اسلامي » ، وهي محاولات لا تباشرها جماعات من الهواة أو الغلاة أو المحترفين أو المرتزقة . وانما مؤسسات علمية لها وزنها واحترامها . وأهم ما في تلك الظاهرة انها تمثل انتقالا نوعيا في الموقف ، يتمثل في حسم السؤال : ما العمل ؟ ، والسعي اللحوح وراء اجابة لسؤال تالٍ في الترتيب ومساو في الأهمية هو : كيف ؟

ذلك يعني أن ثمة اختيارا اسلاميا قد تحدد ، وان المشروع الاسلامي لا بد وأن يطرح - أولا - لأنه تعبير أمين وصادق عن أحلام وطموحات الأمة . وثانيا ، لأنه اذا لم تقم بتبني هذا المشروع المؤسسات العلمية القائمة وأهل الحل والعقد ، فستقوم بالمهمة جماعات سرية ، مما يعرف الجميع مخاطره ، تحت قيادة تلاميذ الخوارج أو تلاميذ الثانوية العامة ، أو غيرهم من مجتهدي الظلام وأمراء

العربي العدد ٢٩٥ يونيو - حزيران ١٩٨٣ م .



ممالك الأوهام . وثالثا ، لأن ذلك هو الخيار الوحيد الذي ينبغي التعامل معه ، بعدما أدرك كثيرون ان الانحياز الفكري والحضاري للغرب أو الشرق لن يحل مشكلة الواقع العربي والاسلامي . وانما غاية ما يمكن أن يحققه هو أن يؤدي مهمة الترقيع أو التسكين ، التي تقود الى مزيد من الانسحاق والتبعية الفكرية .

واذا كان الباحثون الغربيون ، ومن ورائهم بعض المقلدين في بلادنا ، قد رأوا الصحوة الاسلامية في ظاهرة الجماعات السرية ورواج الأفكار الغربية المنسوبة للدين ، فاننا اذا فسرنا الأمر ببراءة وحسن نية ، سنقول ان ذلك خطأ في الرؤية فادح وجسيم . واذا نحينا البراءة جانبا وافترضنا سوء النية ، فسنقول ان ذلك « فخ » منصوب لنا ، يراد به امتصاص المد الاسلامي وايهام المسلمين ان حلمهم قد لاحت بوادر تحقيقه - أخيرا - وان العصر الاسلامي الأول - والذهبي - بسبيل العودة فها قد ألقى الناس ثياب الكفر وارتدوا الجلابيب البيضاء ، وها هم قد انفصلوا عن مركبة عصر الفجور والالحاد ، وأغلقوا على أنفسهم الأبواب ، حيث تمثلوا مجد السلف ، ابتداء من اللحى والحجاب (لاحظ ان النقاب لم يكن معروفا وقتئذ) وانتهاء بالأكل بالأصابع ، ومرورا برفض كل

مستحدثات العصر ، خاصة تلك اللعب الشيطانية المتمثلة في الراديو والتليفزيون والفيديو !

وفي هذا المكان قلت من قبل ان هذه الظواهر ليست من الصحوة في شيء ، وانها بمثابة ورم في الجسم الاسلامي ، وليست تعبيرا عن الصحة والعافية بأي حال .

ان الصحوة الحقيقية تتمثل أولا في وقوع الاختيار الاسلامي ذاته . وتتمثل ثانيا في توظيف هذا الاختيار ليس فقط لملء المساجد واشاعة الفضيلة وزيادة ساعات بث البرامج الدينية في أجهزة الاعلام ، وانما أيضا ـ وبالدرجة الأولى ـ لصالح اقامة مجتمع العدل والحرية والتقدم .

من هذا المنظور تصبح محاولات طرح المشروع الاسلامي بمثابة تعبير عن تلك الصحوة ، يكتمل اذا اقترن الاختيار بتوظيفه في ذلك الاتجاه الايجابي ، الذي يصب في المصالح الحقيقية للجماهير .

**

لست أتحدث هنا عن « تطبيق » ، فنحن ما زلنا في بدايات طريق طويل . . . طويل ، فضلاً عن أن التدرج من سنن الكون ، لكني أتحدث فقط عن تصور وطرح نظري وموضوعي .

وقد يستغرب البعض اعتبار مجرد الاختيار الاسلامي من قبيل الانجازات وعلامات الصحوة ، وبالأخص في مجتمعات أغلبيتها الساحقة من المسلمين ، يشهدون أن لا اله الا الله ، وأن محمدا رسول الله ، ويقيمون الصلاة ويصومون ويحجون ويؤدون الزكاة . لكن تلك حقيقة لا سبيل الى انكارها ، لأن هذا الاختيار كان موضع أخذ ورد في دوائر الساسة والمثقفين ، منذ تكرست الهزيمة وخيم التدهور والانحطاط على الأمة في أواخر العهد العثماني ، أي منذ أواخر القرن الثامن عشر على وجه التقريب .

في ظل تلك المرحلة القائمة كان السؤال : « ما العمل ؟ » مطروحا بقوة . وكان البحث عن مخرج من مستنقع الانحطاط والتدهور يشغل الجميع ويؤرقهم . وفي معقل الخلافة ، تركيا ، امتد بصر السلطان سليم الثالث الى الغرب لينقذ بعضا مما فسد في ملكه ، وكان هدف النظام ـ وكل نظام ـ أن يحمي نفسه لا أن ينقلب على مؤسساته . فاستقدم « الخليفة » الخبراء من أنحاء أوروبا

لاصلاح الجيش « أداته العسكرية » حيث كون أول فرقة نظامية في الجيش التركي عام ١٧٩٦ م .

ولكن الوضع كان مختلفا في الدول الخاضعة للتبعية العثمانية ، اذ لم يكن المشروع الغربي هو المطروح كمخرج من الأزمة فقط ، ولكن المشروع العثماني كله كان مرفوضا . ولأن الخلافة الاسلاميةكانت أحد أعمدة هذا المشروع المرفوض ، فان الاختيار الاسلامي ـ لسوء حظه ـ لحقته الادانة ، وأصبح محل شبهة .

واذا كان تعلق السلطان سليم الثالث بالنموذج الغربي قد صدر في صيغة اقتباس فنونه ونظمه العسكرية وآلاته الحربية ، فان أوضح تعبير عن الانحياز للغرب في ذلك الوقت المبكر تمثل في موقف محمد علي باشا والى مصر الذي فصلها عن الدولة العثمانية ، وحكم البلاد حوالي ٤٤ عاما (١٨٠٥ ـ ١٨٤٩) . ذلك أنه منذ توليه السلطة كان اختياره واضحا . عندما سارع بدعوة الخبراء الأجانب للاشراف على بناء جيشه واقامة نظام تعليمي جديد ، وأرسل دفعات متتالية من المصريين في بعثات الى فرنسا بوجه أخص . وكان هؤلاء هم دعاة الاستنارة في مصر حقا ،لكنهم كانوا أيضا دعاة التغريب وعلى سبيل المثال فان رفاعة الطهطاوي ، (١٨٠١ ـ ١٨٧٣) وهو الأزهري الذي كان من ألمع الذين أوفدهم محمد علي للدراسة بالخارج ، عاد مبهورا بالحضارة الغربية ، ورغم تبنيه خطا فكريا منفتحا ومتقدما ، الا أنه وقع في محظور التعلق بالنموذج الغربي ، حتى خصص في مؤلف له باسم « مباهج الألباب المصرية في مباهج الآداب العصرية » فصلا مستقلا بعنوان « في أن أعظم وسائل تقدم الوطن في المنافع العمومية رخصة المعاملة مع أهالي الممالك الأجنبية ، واعتبارهم في الوطن كالأهلية » !

وفي تلك الفترة كان باي تونس أحمد باشا (حكم فيما بين سنتي ١٨٢٧ و ١٨٣٧) يمضي في ذات الاتجاه حيث افتتح لأول مرة مدرسة للعلوم العسكرية بادارة واشراف ضباط من ايطاليا وفرنسا وانجلترا . وهي المرحلة التي سافر فيها المصلح التونسي الشهير خير الدين ـ أول مدير لتلك المدرسة ـ الى باريس (أقام فيها من ١٨٥٢ الى ١٨٥٦) ليعبر عن تعلقه بالنموذج الغربي أيضا في مؤلفه المعروف ، أقدم المسالك في معرفة أحوال الممالك » .

وكما ظهرت بذرة التغريب في معقل الخلافة (الآستانة) وفي قلب الوطن العربي (مصر) ، وفي جناحه الغربي (تونس) ظهرت أيضا في أقصى الجناح الشرقي ، في ايران ، حيث اختارت أسرة القاجار الحاكمة أن تدخل النظم الغربية في اداتها العسكرية ، وافتتحت عام ١٨٥٢ « دار الفنون » التي كان كل أساتذتها من الأوروبيين .

على الدرب ، وباندفاع أكبر ، سار الجيل التالي من الساسة والحكام . ففي حين سعى الخديوي اسماعيل باشا (تولى سنة ١٨٦٣) لكي يجعل مصر قطعة من أوروبا ـ على حد تعبيره ـ جاء كمال أتاتورك وأسقط الخلافة في تركيا سنة ١٨٢٣ معلنا الانحياز الكامل للغرب . ووقف في المربع ذاته شاه ايران رضا بهلوي منذ توليه السلطة عام ١٩٢٥ . وكانت تونس بعد استقلالها في الخمسينيات من الدول التي اختارت النموذج الغربي مشروعا لبناء الدولة الحديثة .

وفيما كانت الاختيارات واضحة ومعلنة من جانب المؤسسات الحاكمة في تلك الدول ، فان بقية الدول العربية توزعت بين اختيار غير معلن للنموذج الغربي ، أو جدل غير محسوم حول جدوى المشروع الاسلامي . وكان أطراف هذا الجدل بالدرجة الأولى هم أبناء الثقافة الغربية المتترسون وراء مختلف المواقع القيادة والفكرية البارزة ، ومعهم بعض المفكرين غير المسلمين في جانب ، ودعاة المشروع الاسلامي في جانب آخر .

ومع بروز حركة التحرر الوطني بعد ثورة يوليو المصرية في الخمسينيات ، كان طبيعيا أن يطرح المشروع الحضاري المستقل ، كاحدى الصيغ المنطقية والضرورية لتكريس الاستقلال والافلات من قيود التبعية . وكان المشروع القومي العربي ، الذي نمت بذرته في العقد الثاني من بدايات القرن الحالي كرد على الهيمنة العثمانية ، هو المرشح لتحمل هذه المسؤولية التاريخية .

وفي وقت لاحق ، ظهر البعد الاسلامي بقوة في الساحة . وكان ظهوره رد فعل لاستمرار موجة التغريب التي كانت تمثل تحديا استفزازيا ودائما للمشاعر والهوية الاسلامية . كما ارتبط هذا التطور الجديد بالمرحلة التي برزت فيها بعض السلبيات التي حدثت في ظل المشروع القومي ، وتجسدت أساسا في أزمة

الديمقراطية وهزيمة ٦٧ . وفوق هذا وذاك ، فقد تلقى التيار الاسلامي دعما معنويا ضخما بالانتصار الذي حققته الثورة الاسلامية في ايران عام ١٩٧٩ .

في ظل هذا المناخ ، تحقق طرح البعد الاسلامي على مستويين : فهو عند البعض سبيل الى انضاج المشروع القومي وتأصيل وترسيخ تعبيره عن طموحات الجماهير العربية . وهنا ينبغي أن نسجل لمنظري ذلك المشروع أنهم لم يغفلوا البعد الاسلامي من البداية ، وانما اعتبروه أحد الأعمدة والعناصر المعتمدة وكان ذلك تعبيرا منقوصا عن حجم وأهمية دور الاسلام ، الذي يتجاوز حدود العمود أو العنصر ، ليشكل في الحقيقة حجر الأساس في بنية المجتمع العربي وفي مشروعه الحضاري المستقل .

والمستوى الثاني الذي طرح عنده البعد الاسلامي ، تمثل في اعتبار المشروع الاسلامي بديلا عن المشروع القومي . وفي هذه الدائرة فان هناك من اعتبر المشروع الأول هو الأصل والكل ، بينما الثاني هو الفرع والجزء ، وهو ما عبر عنه الدكتور محمد عمارة « أحد رموز هذا الاتجاه » بقوله ان المحيط الاسلامي يحتمل ـ ولا يمنع من ـ وجود عدة جزر قومية في داخله . واستشهد في ذلك بما قاله الامام حسن البنا من أن الوحدة العربية طريق الى الوحدة الاسلامية .

غير أن هناك أيضا من اعتبر المشروع الاسلامي يتجاوز المشروع القومي بل ويرفضه ، مستندين في ذلك الى فكرة عالمية الاسلام ، واستنكاره لدعاوى التميز العرقي وليس بمستبعد أن يكون أكثر هؤلاء متأثرين برواسب المحنة القاسية التي تعرض لها التيار الاسلامي في الحقبة الناصرية .

وأيا كانت الدوافع والملابسات ، فالثابت أن الاختيار الاسلامي الصريح بات حقيقة واقعة ، وان المشروع الاسلامي بات مطلبا ملحا .

وهنا ينبغي أن نوضح أمورا أربعة :

ـ الأمر الأول ان الاختيار الاسلامي وان كان في أصله اختيارا قائما على الانتماء العقيدي الا أنه يتسع بطبيعة الحل لانحياز يقوم على الانتماء الحضاري ، فالحضارة الاسلامية شارك في صنعها المسلمون وغير المسلمين . وهؤلاء هم الآن أبناء شرعيون لهذه الحضارة ، سواء تعاطاها البعض من باب العقيدة ، أو تعاطاها الآخرون من باب الثقافة .

ـ الأمر الثاني انه قد يكون من المبالغة القول بأن قضية الاختيار الاسلامي قد حسمت تماما على كل المستويات في الوطن العربي ، وانما الأكثر دقة أن نقول بأن الأمر محسوم فعلا وبقوة على مستوى الشارع ، ولدى أكثرية المتعلمين وقطاعات متزايدة من المثقفين في عديد من البلاد العربية . غير أن المد الاسلامي لا يزال يواجه مقاومة من جانب دوائر الرافضين والمتغربين في بعض الجيوب الموزعة ما بين المشرق والمغرب .

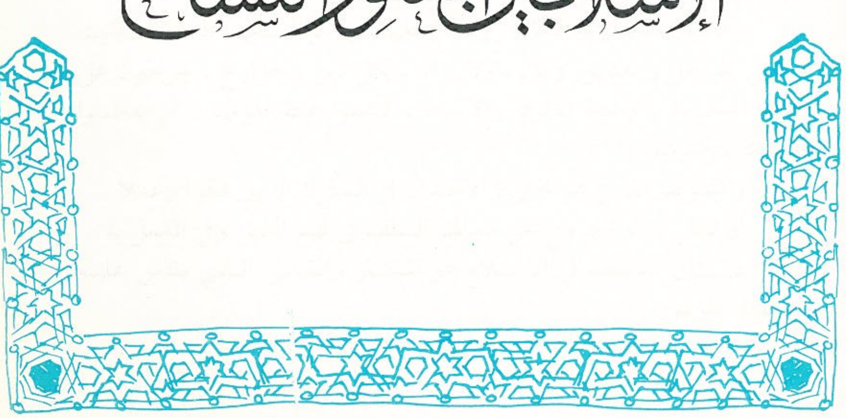
ـ الأمر الثالث انه من المغالطة تصوير المشروع الاسلامي على انه « الدواء المعجزة » لهموم الخلق أفرادا ومجتمعات فليس هناك مشروع يستطيع بذاته ـ أيا كانت عبقرية واضعيه بل حتى لو كانت ينابيعه سماوية ـ أن يحل تلقائيا مشكلات البشر . انما الأمر مرهون بكيفية توظيف هذا المشروع واستثمار عناصره لصالح الحاضر والمستقبل ، وتهيئة المناخ المناسب ـ بالحرية والديمقراطية ـ لجني ثماره في نهاية الأمر .

ـ الأمر الرابع أن المشروع الاسلامي لا تضعه مؤسسة أو فرد ، وانما هو يتبلور من خلال معالجات واجتهادات كل الذين يشغلهم الهم العام ويستشعرون الانتماء الاسلامي ، لفترة زمنية تطول أو تقصر لا يهم . لأن الأهم هو جدية الالتزام وعلمية المنهج . فلسنا نريد في النهاية موعظة تدغدغ مشاعرنا وتملؤنا زهوا ، ثم تعود بنا الى نقطة البدء مختصرة مصير الأمة في عبارتين هما : ان القرآن حوى كل شيء ، وانه صالح لكل زمان ومكان ، فيما يتصور القائلون بذلك ان المشكلة حلت وانتهت ! . واذا كان هذا التبسيط المخل هو أحد أسباب مأزق التطبيق الذي واجهته الثورة الاسلامية في ايران ، فان أي طرح علمي للمشروع الاسلامي لا بد أن يتجاوز مخاطبة العواطف والمشاعر الى مخاطبة العقول والمصالح . ولا بد أن يتجاوز الهتافات والشعارات والصياغات المختزلة ، الى المواقف المبرمجة والمحسوبة . ولا بد أن ينجو من أسر الماضي ليواجه بشجاعة تحديات الحاضر والمستقبل .

لهذه المبررات كلها ، فان ترحيبنا لا بد وأن يكون كبيرا وحميما بكل جهد يبذل لبحث ذلك المشروع الاسلامي ووضع معالمه ، حتى ان كان هذا الجهد ما يزال جنينا يتشكل في الرحم . وينبغي ألا نستعجل لحظة الميلاد ، فطالما ظلت الروح تدب في الجنين ، فالميلاد آت باذن الله .



الإسلام بين الغلو والتسامح



أسباب أربعة للتطرف الديني

خالد محمد خالد

ينشأ التطرف الديني من فراغ في النفس ، أو التياث في الفكر ، أو رد فعل لتطرف آخر ينتقص من نفوذ الاسلام ، أو ائتمار خبيث تقوده قوى غامضة لتقويض الدين وهدمه .

أهناك سبب خامس أو سادس . . ؟ ربما . . ولكن أيًّاما تكن فمردها جميعا الى هذه الأسباب الأربعة .

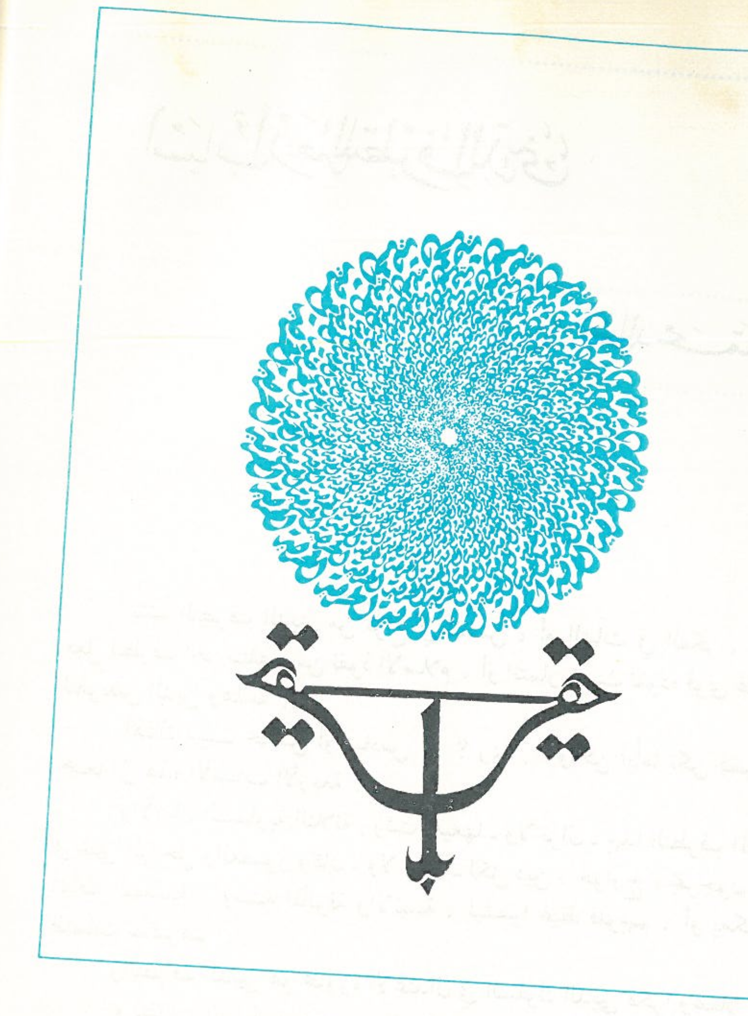
والأديان السماوية الثلاثة رزئت جميعها - ولا تزال - بهذا التطرف المقيت في شتى المراحل والعصور وكان - ولا يزال - لكل دين « خوارج » يخرجون على أنماطه السديدة ، وسنته المألوفة والانيسة ، ليشفوا غيظ قلوبهم ، أو يعكسوا ظلمات تفكيرهم .

والتطرف الديني هو مجاوزة الاعتدال في السلوك الديني فكرا وعملا .

أو لنقل : انه الخروج عن مسلك السلف في فهم الدين وفي العمل به .

فمسلك السلف في الاسلام هو المسبار والمقياس الذي يقاس عليه السلوك القويم .

العربي العدد ٢٧٨ - يناير - كانون الثاني ١٩٨٢ م .



فلقد نهل السلف من رسولهم الكريم ، وكانوا أدرى الناس باتجاهات التشريع ، وكانوا موضع احترام الكافة والخاصة ، حتى رأينا اماما عظيما كالامام مالك ، رضي الله عنه يجعل عمل أهل المدينة أساسه الاسلام واستنباط أحكامه وفقهه . .

الرسول قاوم التطرف

لقد قاوم الرسول عليه صلاة الله وسلامه التطرف مقاومة مفعمة بالحسم والحزم .

فمثلا ـ عندما اجتمع ثلاثة من أصحابه يتواصون على أن يرتفعوا بعبادتهم الى ما يؤود طاقة الانسان . . فقال أحدهم : اني سأصوم الدهر ، ولا أفطر . . وقال الثاني : اني سأقوم الليل ، ولا أنام . . وقال الثالث : أما أنا فلن أتزوج النساء أبدا . . عندئذ ، وعندما نمى الى الرسول خبرهم استدعاهم اليه وسألهم : أأنتم الذين قلتم كذا ، وكذا . . ؟ قالوا ـ وجلين ـ نعم يا رسول الله . فقال لهم الرسول عليه السلام !

« أما والله ، اني لأخشاكم لله ، وأتقاكم له ، ولكني أصوم وأفطر . . وأقوم من الليل وأنام . . وأتزوج النساء . . فمن رغب عن سنتي ، فليس مني » !!

ان الصيام والقيام عبادتان لهما في الاسلام مكانة عالية . ومع ذلك اعتبر الرسول مجرد المغالاة فيهما عملا مرفوضا . . وذات يوم ، والرسول مع أصحابه في سفر ، وكانوا صياما ، خشي الرسول على أصحابه من وقدة الحر ولفح الهجير ، فافطر ، ونادى في أصحابه أن يفطروا . .

وامتثل الصحابة أمر الرسول الا نفرا منهم واصل صيامه ، فلما نقل الى الرسول نبأهم غضب وقال : أولئك العصاة : أولئك العصاة . . أولئك العصاة !! فلما سمعوا ذلك افطروا . .

ويضع الرسول منهجا ذكيا للاعتدال والقصد فيقول عليه السلام :

« ان هذا الدين متين ، فأوغل فيه برفق ، فان المنبت لا أرضا قطع ، ولا ظهرا أبقى » . .

وفي متابعتنا لتاريخ السلف . سواء كانوا من أصحاب الرسول أولا . . أو من أتباعهم وأتباع أتباعهم ثانيا . نجد السماحة في تناول الشريعة . والحذق في فهمها .

لا نجد بينهم ـ في مجموعهم ـ سوى العقل النبيل . والوعي الرشيد . يبشرون بكلمات الله في تقوى نبيلة ، فيبعثون الحيوية والقوة في حياة الأمة الروحية والخلقية .

ولكن ، لكل دين نصيبه المحتوم من الأهواء المتطفلة ، والأفكار المضللة . . ولم يسلم دين قط من التطرف والاعتساف بين نفر من أهله وذويه ولكل أمة وعقيدة خوارجها ومحرفوها .

ظواهر وحجج مردودة

ومظاهر التطرف الديني كثيرة . بيد أنها تتلخص فيما ذكرنا ـ الخروج على مسلك السلف في فهم الدين وفي العمل به .

والتطرف في العمل صنو التطرف في الفهم ، كلاهما تحد لسماحة الاسلام وعظمته ، وكلاهما تزيُّد في الدين واتهام له بالتقصير . . وكأن الرسول قد بلغ رسالة منقوصة ، يجيء هؤلاء المتطرفون ليكملوها ويتموها .

خذ اليك هذا المظهر أو هذا المثال : عندما تلمح سيدة أو آنسة تغطي وجهها بما يشبه العباءة ولا تترك من نقابها الا فتحتين صغيرتين كفم العصفور أمام عينيها . . من أين جاءت بهذا الزي العجيب ؟

وخذ مثلا آخر : هؤلاء الذين يرون في المجتمعات الاسلامية المعاصرة دور كفر . . انىَّ لهم الحجة في هذا الادعاء . . ؟ !!

وصفة المسلم معروفة . . فالمسلم من يشهد أن لا اله الا الله ويشهد أن محمدا رسول الله ، ويقيم الصلاة ، ويؤتي الزكاة ، ويصوم رمضان ، ويحج البيت ما استطاع اليه سبيلا .

يسروا . . ولا تعسروا

ولقد شهد مجتمع الاسلام الاول في عصر الرسول والوحي جماعات من المنافقين الذين قالوا للرسول : نشهد أنك رسول الله . . ففضح الله سرائرهم بقوله سبحانه : « والله يشهد ان المنافقين لكاذبون » .

ولقد استأذن الرسول بعض أصحابه ليقتلوا أحد المنافقين فقال الرسول : أولئك الذين نهاني الله عن قتلهم . . !

أجل . . ما دام قد شهد أن لا اله الا الله ، وأن محمدا رسول الله ، فقد عصم دمه وماله ، وأصبح مواطنا له كل حقوق المواطنة في دولة الاسلام .

ما أيسر أن يهرب الانسان من مسؤولياته ، متذرعا بأوهى المبررات وأكثرها ضلالا وبطلانا . . لكن الذين يواجهون تبعاتهم ، ويبنون حياتهم وحياة أممهم بناء صلبا وشامخا ، فأولئك هم الرجال حقا ، وهم المسلمون حقا . .

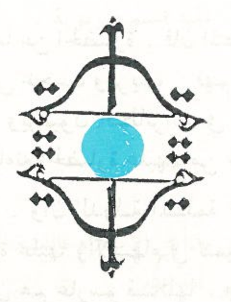
وقوله : « من سلك طريقا يطلب به علما ، سلك الله به طريقا الى الجنة ، وان الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما يصنع » .

وقوله : « من خرج في طلب العلم ، فهو في سبيل الله حتى يرجع » .

أليس قوله عليه السلام « أو علم ينتفع به » واضحا في أنه يعني مع علوم الآخرة علوم الدنيا التي تنفع الناس ، وتيسر لهم وسائل العيش والحياة . . ؟







الا أن الذين يقصرون مدلول هذه الأحاديث على علوم الآخرة ليسلبون الاسلام أعظم مزاياه وخصائصه . فالاسلام هو الدين الذي جمع بين حاجات الدنيا وحاجات الآخرة . . هو الدين الذي يعلم أبناءه أن يعملوا للدنيا كأنهم يعيشون أبدا . . !

اللهم لا حول ولا قوة الا بك . .

الى علم الدنيا والآخرة

ان الاسلام يعلم أبناءه أن يركضوا الى العلم ركضا ، وأن يتزاحموا حوله بالمناكب ، ويقبلوا عليه اقبال العاشق المشغوف .

وهذا العلم الذي يسوق الاسلام أبناءه اليه هو علم الدنيا والآخرة . .

العلم الذي يزكي النفس ، ويسمو بالروح ، ويعرف المسلم حق الله عليه ، ثم العلم الذي يجعل من الدنيا مكانا طيبا للحياة عن طريق المعرفة والحضارة .

وعظمة المسلم اذن ماثلة في أن الله أضاء حياته بالعلم الذي يهديه اليه ، وبالعلم الذي يمكنه من أن يجعل الحياة مرفأ آمنا ، ومكانا طيبا وأنيسا لاقامته .

تناقض عجيب ومريب

هذا عن العلم ، أما عن الحضارة ، فان المتطرفين في هجوها ، والداعين لمقاطعتها يقعون في تناقض عجيب ومريب . فهم يتحدثون في « التليفون » ، ويستضيئون بالكهرباء ، ويركبون الطائرات في سفرهم الى الحج . . أفلا يعلمون أن هذا كله مما أفاءته الحضارة عليهم من عطاء . . ؟ !

ان المجتمع المسلم ، وان الدولة المسلمة هما أولى الناس بتبني قضية الحضارة الانسانية والغيرة عليها والاسهام في تنميتها والأخذ بالحظوظ الوافية منها ، لأن الرواد المسلمين هم غارسو فسائلها ، وواضعو أساسها . .

ان الجانب النظيف من حضارة أوروبا والغرب ، انما ولد وترعرع في أحضان الحضارة الاسلامية . ومن دمشق ، وبغداد ، والقاهرة ، وغرناطة ، وقرطبة بدأ الموكب العظيم مسيرته .

لقد اكتشف العقل الاسلامي في ظل الدولة المسلمة وبمعونتها أروع الكشوف في جميع فروع المعرفة الانسانية . وفي نفس الوقت كان ثبات ايمانه وشموخه أمرا ملحوظا ومثيرا .

ومن آبائنا « البيروني » الذي سبق « كوبرنيكس » و « جاليليو » بخمسمائة عام الى القول بأن الأرض تدور حول نفسها وتدور مع كواكب أخرى حول الشمس . . وان الشمس ليست السبب في تعاقب الليل والنهار بل هي حركة الارض نفسها .

ومن اباءنا « ابن سينا » و « الفارابي » و « الخوارزمي » .

ونحن نملك « عمر الخيام » الذي لا نكاد نعرف عنه للأسف الا الجانب المرح واللاهي من حياته ، بينما أوروبا تعرف أنه الرجل الذي طور علم الجبر وارتقى به الى ذروة سامقة لم يعرف لها فيما بعد مثيل الا على يد الفيلسوف الفرنسي « ديكارت » ! !

ومنا « ابن خلدون » الذي لا يزال فكره موضع اعجاب واحترام العالم .

أفنحن ، ـ وهذا أمسنا ـ الذين نقاطع الحضارة حتى في أبسط مظاهرها وهو ارتداء « البنطلون » والقميص ونستعيض عنها بالجلباب يتوجه به الطبيب الى مستشفاه ، والمهندس الى عمله ، والطالب الى جامعته لابسا في قدميه « الشبشب » الذي يطلق العامة عليه اسم « زنوبة » . . ؟

الفتنة كانت البداية

في رأينا ان التطرف الديني بدأ في الاسلام بالفتنة التي أودت بحياة الخليفة الثالث « عثمان بن عفان » رضي الله عنه .

صحيح ان البواعث كانت خليطا من الفتنة السياسية ، والتطرف الديني ، الا أنها في التحليل النهائي لها تبدو وكأنما لعب التطرف الديني فيها الدور الأساسي والرئيس . . فقد كانت كل المآخذ التي روجها المتطرفون تعتمد في تقديرهم على مخالفات دينية . . ورغم أن الخليفة فند أكثرها ، ورجع عن بعض الأخطاء التي حسبت على حكمه ، فان المتطرفين أججوا لظى الفتنة ، وأضرموا نيرانها ، وراحوا يتوسلون بالمنطق الديني وحده للتأليب على الخليفة ، والتحريض على دمه . . !!

استحلوا قتل الرجال والاطفال وسبي النساء المسلمات . . ولبثوا في ساحة الملعب مائة عام أو تزيد يروعون الدنيا ، ويشغلون الحكومات .

لقد كانوا أوضح وأبشع صور التطرف الديني . . ومن عجب أنهم كانوا في سلوكهم العبادي من كبار العابدين ، ومع هذا فقد تجاوز بهم التطرف كل حدود العدل والرحمة والحق والعقل !!

وهذا يفتح أعيننا على « أزمة » التطرف الديني . وهي تتلخص في القلق الهستيري الذي يعانيه المتطرفون . . اما لفراغ في نفوسهم وشعورهم بالقحط القاتل . . واما لالتياث تفكيرهم وشرودهم عن جادة الصواب والحق . . واما لاحساسهم الذي قد يكون صادقا بنقصان نفوذ الاسلام في المجتمع المسلم . . وأما لمؤامرات خبيثة تمارسها بوسائل غير منظورة قوى خارجية . تطارد الاسلام وتعمل لاحباط دعوته ، وتمزيق وحدته . . وكثيرا ما يجيء التطرف الديني رد فعل لتطرف آخر في جانب الرذيلة والظلم والشر .

وأيا ما يكن الأمر ، فانه ينبغي أن نضع أعيننا على حديث رسول الله هذا . .

وان الله لا يقبض العلم انتزاعا ينتزعه من الناس ، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء .

حتى اذا لم يبق عالم ، اتخذ الناس رؤساء جهالا ، فسئلوا ، فأفتوا بغير علم ، فضلوا وأضلوا » . .

وبعد ، فإلى الشباب المسلم المحب لدينه وللحقيقة نقول : تقدم في شجاعة الى الحياة الفرحة الفاضلة وخذ منها حظوظك الوافية ، ولا تعش في كآبة القلق ، ولا في ظلمات التطرف ومتاهاته ، وأحمل فكرا مقتحما ولكن مستنيرا ،

واجعل من نفسك صورة مضيئة للاسلام العظيم ، فعندئذ تستطيع أن تنادي العالمين :

هنا ادخلوا . .

ادخلوا جميعا . .

لندعم الايمان العميق . .

ونبارك المسيرة الظافرة . .

ستّ علامات للتطرّف الدّيني

د. يوسف القرضاوي

في حديث ابن عباس أنه صلى الله عليه وسلم قال « اياكم والغلو في الدين ، فانما هلك من كان قبلكم بالغلو في الدين » (رواه أحمد والنسائي وابن ماجة والحاكم ، واسناده صحيح) . .

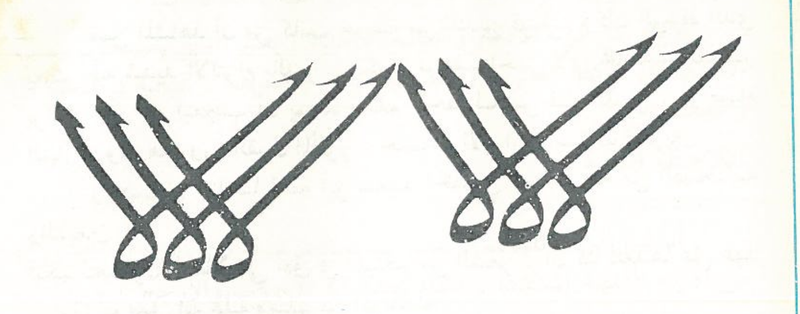
وفي حديث ابن مسعود في صحيح مسلم عنه صلى الله عليه وسلم : « هلك المتنطعون » قالها ثلاثا ، وهم المتعمقون الغالون في تدينهم ، شددوا على أنفسهم فشدد الله عليهم .

وفي حديث سهل بن حنيف ، عنه - عليه الصلاة والسلام - « لا تشددوا على أنفسكم ، فانما هلك من قبلكم بتشديدهم على أنفسهم ، وستجدون بقاياهم في الصوامع والديارات » (رواه الطبراني في الكبير وفي الأوسط) .

وقد استعملت الأحاديث الثلاثة كلمة واحدة في التعبير عن مغبة هؤلاء المتشددين وهي الهلاك ، وكفى بهذا زاجرا .

وعندما يكون الحديث عن مفهوم التطرف ، فانه لا قيمة لأي بيان أو حكم هنا

العربي العدد ٢٧٨ يناير - كانون الثاني ١٩٨٢م



مالم يكن مستندا الى المفاهيم الاسلامية الأصيلة ، والى النصوص والقواعد الشرعية الثابتة ، لا الى الآراء المجردة ، وقول فلان أو علان من الناس ، فلا حجة في قول أحد دون الله ورسوله ، وبدون هذا التوثيق الشرعي لن يعير الشباب المتهم بالتطرف التفاتا الى فتوى هذا أو مقال ذاك ، وسيضربون عرض الحائط بهذا الاتهام الذي ينكرونه ، ويتهمون موجهيه بالتزييف ، وتسمية الأشياء بغير أسمائها . .

ملاحظتان في التطرف

وأود أن أنبه هنا على ملاحظتين جديرتين بالاهتمام في موضوعنا

الملاحظة الأولى :

ان مقدار تَدَيُّن المرء وتدين المحيط الذي يعيش فيه ، حيث القوة والضعف ، له أثره في الحكم على الآخرين ، بالتطرف أو التوسط أو التسيب .

فمن المشاهد أن من كانت جرعته من التدين قوية ، وكان الوسط الذي يعيش فيه شديد الالتزام بالدين ، يكون مرهف الحس لاي مخالفة أو تقصير يراه ، حتى أنه ليعجب أن يوجد مسلم لاحظَّ له من قيام الليل ، أو صيام النهار ، وفي هذا ورد القول المأثور : حسنات الأبرار ، سيئات المقربين .

ويحضرني هنا ما قاله أبو سعيد الخدري لمعاصريه من الصحابة والتابعين :

انكم لتعملون أعمالا هي أدق في أعينكم من الشعر ، ان كنا لنعدها على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم من الموبقات .

وكانت عائشة رضي الله عنها تنشد بيت لبيد بن ربيعة :

ذهب الذين يعاش في أكنافهم
وبقيت في خلف كجلد الأجرب

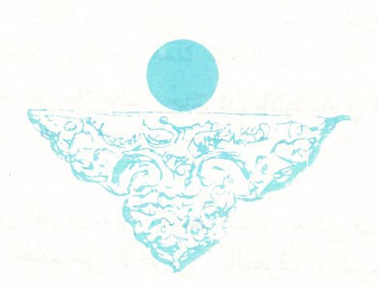
وتقول رحم الله لبيدا ، كيف لو عاش الى زماننا هذا ؟

وكان ابن اختها عروة بن الزبير ، وقد عاش بعدها زمنا ، ينشد البيت ويقول رحم الله لبيدا وعائشة ، كيف لو عاشا الى زماننا هذا ؟

وفي مقابل هذا نجد الشخص الذي قل زاده من التدين علما وعملا ، أو عاش في محيط تجرأ على محارم الله وتنكر لشرائعه ، يعتبر التمسك بالحد الأدنى من الدين ، ضربا من التعصب أو التشدد .

وكلما زادت مسافة البعد بينه وبين الدين ، زاد استغرابه بل انكاره ، بل اتهامه لكل من يتمسك بعروة الدين ، ويلجم نفسه بلجام التقوى ، يسأل في كل شيء يعرض له أو يعرض عليه : أحلال هو أم حرام ؟

وكثير من أولئك الذين يعيشون في أوطاننا بأسماء اسلامية ، وعقول



غربية ، يعتبرون مجرد الالتزام بأوامر الله ونواهيه ، تطرفا دينيا !

وكثير ممن غزته الأفكار والتقاليد الأجنبية ، يعتبر الذين يتمسكون بآداب الاسلام في المأكل المشرب والملبس والزينة ونحوها ، غاية في التطرف والتعصب .

الملاحظة الثانية :

أنه ليس من الانصاف أن نتهم انسانا بالتطرف في دينه لمجرد أنه اختار رأيا من الآراء الفقهية المتشددة ، مادام يعتقد أنه الأصوب والأرجح ، ويرى أنه ملزم به شرعا ، ومحاسب عليه دينا ، وان كان غيره يرى رأيه مرجوحا أو ضعيفا ، لانه ليس مسئولا الا عما يراه ويعتقده هو ، وان شدد بذلك على نفسه .

ومن حقائق الحياة ، ان الناس يتفاوتون في هذه القضية ، فمنهم المتساهل الميسر ، ومنهم المتشدد المعسر ، وقد كان في الصحابة المترخص كابن عباس ، والمتشدد كابن عمر - رضي الله عنهم - .

ويكفي المسلم في هذا المقام أن يستند رأيه الذي تبناه الى مذهب من المذاهب المعتبرة عند المسلمين ، أو يعتمد على اجتهاد صحيح قائم على استدلال شرعي سليم .

والواقع أن كثيرا مما ينكر على من نسميهم « المتطرفين » مما قد يعتبر من التشدد والتنطع ، له أصل شرعي في فقهنا وتراثنا ، تنباه بعض العلماء المعاصرين ودافعوا عنه ودعوا اليه ، فاستجاب لهم من الشباب المخلص من استجاب ، رجاء في رحمة الله تعالى ، وخوفا من عذابه .

ومن هنا لا نستطيع أن ننكر على مسلم ، أو نتهمه بالتطرف ، لمجرد أنه شدد على نفسه ، وأخذ من الآراء الفقهية بما يراه أرضى لربه ، وأسلم لدينه وأحوط لآخرته .

وليس من حقنا أن نجبره على التنازل عن رأيه ، ونطالبه بسلوك يخالف معتقده ، كل ما نملكه أن ندعوه بالحكمة ، ونحاوره بالحسنى ، ونقنعه بالدليل ، عسى أن يدخل فيما نراه أهدى سبيلا ، وأقوم قيلا .

فما التطرف اذن ، وما دلائله ومظاهره ؟

التعصب للرأي

١- ان أول دلائل التطرف : هو التعصب للرأي تعصبا لا يعترف معه للآخرين بوجود . وجمود الشخص على فهمه جمودا لا يسمح له برؤية واضحة لمصالح الخلق ، ولا مقاصد الشرع ، ولا ظروف العصر ، ولا يفتح نافذة للحوار مع الآخرين ، وموازنة ماعنده بما عندهم ، والأخذ بما يراه بعد ذلك انصع برهانا ، وأرجح ميزانا .

ونحن هنا ننكر على صاحب هذا الاتجاه ما انكرناه على خصومه ومتهميه ، وهو محاولة الحجر على آراء المخالفين والغائها .

انما ننكر عليه حقا ، اذا انكر الآراء المخالفة ، ووجهات النظر الأخرى ، وزعم أنه وحده على الحق ، ومن عداه على الضلال .

والعجيب ، ان من هؤلاء من يجيز لنفسه أن يجتهد في أعوص المسائل ، وأغمض القضايا ، ويفتي فيها بما يلوح له من رأي ، وافق فيه أو خالف ، ولكنه لا يجيز لعلماء العصر المتخصصين ، منفردين أو مجتمعين ، أن يجتهدوا في رأي يخالف ما ذهب اليه .

فهذا التعصب المقيت الذي يثبت المرء فيه نفسه ، وينفي كل من عداه ، هو الذي نراه من دلائل التطرف حقا .

فالمتطرف كأنما يقول لك ، من حقي أن أتكلم ، ومن واجبك أن تسمع ، ومن حقي أن أقود ، ومن واجبك أن تتبع .

رأيي صواب لا يحتمل الخطأ ، ورأيك خطأ لا يحتمل الصواب ، وبهذا لا يمكن أن يلتقي بغيره أبدا .

٢- ومن مظاهر التطرف الديني : التزام التشديد دائما ، مع قيام موجات التيسير والزام الآخرين به ، حيث لم يلزمهم الله به ، اذ لا مانع أن يأخذ المرء لنفسه بالأشد في بعض المسائل ، وبالأثقل في بعض الأحوال ، تورعا واحتياطا ، ولكن لا ينبغي أن يكون هذا ديدنه دائما وفي كل حال ، بحيث يحتاج الى التيسير فيأباه ، وتأتيه الرخصة فيرفضها ، مع قوله صلى الله عليه وسلم « يسروا ولا تعسروا ، وبشروا ولا تنفروا » وقوله « ان الله يحب أن تؤتى رخصه ، كما يكره أن تؤتى معصيته » وقوله تعالى « يريد الله بكم اليسر ولا يريد

بكم العسر » ، وخبر « ما خير رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أمرين الا اختار أيسرهما ، مالم يكن اثما » .

وقد يقبل من المسلم أن يشدد على نفسه ، ويعمل بالعزائم ، ويدع الرخص ، والتيسيرات في الدين ، ولكن الذي لا يقبل منه بحال أن يلزم بذلك جمهور الناس ، وان جلب عليهم الحرج في دينهم ، والعنت في دنياهم ، مع أن أبرز أوصاف الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم في كتب الأقدمين ، انه « يحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ، ويضع عنهم أصرهم والأغلال التي كانت عليهم » .

ولهذا كان النبي صلى الله عليه وسلم ، أطول الناس صلاة اذا صلى لنفسه ، حتى أنه كان يقوم الليل فيطيل القيام حتى تتفطر أو تتورم قدماه عليه الصلاة والسلام ، ولكنه كان أخف الناس صلاة اذا صلى بالناس ، مراعيا ظروفهم وتفاوتهم في الاحتمال ، وقال : اذا صلى أحدكم بالناس فليخفف ، فان فيهم الضعيف والسقيم والكبير ، واذا صلى أحدكم لنفسه فليطول ما شاء (رواه البخاري) .

وقال لمعاذ لما أطال الصلاة بالقوم : أفتان أنت يا معاذ ؟ وكررها ثلاثا .

ومن التشديد على الناس محاسبتهم على النوافل والسنن كأنها فرائض ، وعلى المكروهات كأنها محرمات ، والمفروض الا نلزم الناس الا بما ألزمهم الله تعالى به جزماً ، وما زاد على ذلك فهم مخيرون فيه ، ان شاءوا فعلوا ، وان شاءوا تركوا ، وحسبنا هنا حديث طلحة بن عبدالله في الصحيح ، وفي قصة ذلك الاعرابي الذي سأل النبي صلى الله عليه وسلم عما عليه من فرائض ، فأخبره بالصلوات الخمس وبالزكاة وبصوم رمضان ، فقال : هل علي غيرها ، قال : لا ، الا أن تطوع . فلما أدبر الرجل ، قال : والله لا أزيد على هذا ولا أنقص ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : (من سره أن ينظر الى رجل من أهل الجنة فلينظر الى هذا) .

ولطالما قلت : انه يكفينا من المسلم في هذا العصر أن يؤدي الفرائض ، ويجتنب الكبائر ، لنعتبره في صف الاسلام وأنصاره ، مادام ولاؤه لله ولرسوله ، وان ألم ببعض الصغائر من المحرمات ، فعنده من الحسنات مثل الصلوات الخمس وصلاة الجمعة وصيام رمضان وغيرها ، ما يكفر عنه هذه الصغائر (ان

الحسنات يذهبن السيئات) ، (ان تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلا كريما) .

فكيف نسقط اعتبار المسلم بمجرد الوقوع فيما اختلف فيه من الأمور : أهو حرام أم حلال ، ولم يعلم تحريمه يقينا من دين الله ؟ أو ترك ما اختلف فيه . أهو واجب أم سنة ؟ ولم يعلم فرضيته جزما في شرع الله ؟

والتشديد في غير محله

٣ـ ومما ينكر من التشديد أن يكون في غير مكانه وزمانه ، كأن يكون في غير دار الاسلام وبلاده الأصيلة ، أو مع قوم حديثي عهد باسلام ، أو بتوبة ، فهؤلاء ينبغي التساهل معهم في المسائل الفرعية ، والأمور الخلافية ، والتركيز معهم على الكليات قبل الجزئيات ، والأصول قبل الفروع ، وتصحيح عقائدهم أولا ، فاذا اطمأن اليها دعاهم الى أركان الاسلام ، ثم الى شُعب الايمان ، ثم الى مقامات الاحسان .

ولقد راعني أن وجدت بعض الشباب المخلصين من بعض الجماعات الاسلامية ، في أمريكا ، قد أثاروا جدلا عنيفا في أحد المراكز الاسلامية ، لان المسلمين يجلسون على الكراسي في محاضرات السبت والأحد ، ولا يجلسون على الحصر أو السجاد كما يجلس أهل المساجد ، ولأنهم لا يتجهون في جلوسهم الى القبلة ، كما هو أدب المسلم ، وانهم يلبسون البنطلونات لا الجلابيب البيض ، ويأكلون على المناضد لا على الأرض . . . الخ .

وقد غاظني هذا النوع من التفكير والسلوك في قلب أمريكا الشمالية ، وقلت لهم : أولى لكم في هذا المجتمع اللاهث وراء المادة ، ان تجعلوا أكبر همكم الدعوة الى توحيد الله تعالى وعبادته ، والتذكير بالدار الآخرة ، وبالقيم الدينية العليا ، وتحذروا من الموبقات التي غرقت فيها المجتمعات المتقدمة ماديا في عصرنا ، أما الآداب والمكملات التحسينية في الدين فمكانها وزمانها بعد تمكين الضروريات والأساسيات وتثبيتها .

وفي مركز اسلامي آخر ، وجدتهم أقاموا الدنيا وأقعدوها من أجل عرض فلم تاريخي أو تعليمي في المسجد ، وقالوا : قد حولوا المسجد الى سينما ، ونسي هؤلاء أن المسجد وضع لمصلحة المسلمين الدينية والدنيوية ، وقد كان في عهد النبوة دار الدعوة ومركز الدولة ، ومحور النشاط في المجتمع ، ولا يجهل أحد ما رواه البخاري وغيره من اذن النبي صلى الله عليه وسلم للحبشة أن يلعبوا بحرابهم في قلب مَسجده الشريف ، وسماحه لعائشة أن تنظر اليهم وهم يلعبون .

العنف والخشونة

٤ـ ومن مظاهر التطرف : العنف في التعامل ، والخشونة في الأسلوب ، والغلظة في الدعوة ، خلافا لهداية الله تعالى ، وهدى رسوله صلى الله عليه وسلم .

فالله تعالى يأمرنا أن ندعو الى الله بالحكمة لا بالحماقة ، وبالموعظة الحسنة ، لا بالعبارة الخشنة ، وان نجادل بالتي هي أحسن ، لا بالتي هي أخشن (ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن) .

ووصف رسوله صلى الله عليه وسلم بقوله « لقد جاءكم رسول من أنفسكم ، عزيز عليه ماعنتم حريص عليكم ، بالمؤمنين رءوف رحيم » .

وخاطب رسوله مبينا علاقته بأصحابه « فبما رحمة من الله لنت لهم ، ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك » .

ولم يذكر القرآن الغلظة والشدة الا في موضعين :

١ـ في قلب المعركة ومواجهة الأعداء ، حيث توجب العسكرية الناجحة ، الصلابة عند اللقاء ، وعزل مشاعر اللين حتى تضع الحرب أوزارها ، وفي هذا يقول تعالى « قاتلوا الذين يلونكم من الكفار ، وليجدوا فيكم غلظة » .

٢ـ والثاني في تنفيذ العقوبات الشرعية على مستحقيها ، حيث لا مجال لعواطف الرحمة في اقامة حدود الله في أرض الله « ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله ، ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر » .

أما في مجال الدعوة ، فلا مكان للعنف والخشونة ، وفي الحديث « ان الله يحب الرفق في الأمر كله » وفي الأثر « من أمر بمعروف ، فليكن أمره بمعروف » وقال صلى الله عليه وسلم « وما دخل الرفق في شيء الا زانه ، ولا دخل العنف في شيء الا شانه » .

ولا شيء يشينه العنف اذا دخله ، مثل الدعوة الى الله ، فانها تحاول أن تدخل الى أعماق الانسان ، لتجعل منه شخصا ربانيا في مفاهيمه ومشاعره وسلوكه ، وتبدل كيانه كله ، وتنشيء منه خلقا آخر : فكرا وشعورا وارادة ، كما أنها تهز كيان الجماعة هزاً ، لتغير عقائدها المتوارثة ، وتقاليدها الراسخة ، وأخلاقها المتعارفة ، وأنظمتها السائدة . . وهذا كله لايمكن أن يتم الا بالحكمة وحسن التأتي للأمور ، والمعرفة بطبيعة الانسان وعناده ، وجموده على القديم ، وأنه أكثر شيء جدلا ، فلابد من الترفق في الدخول الى عقله ، والتسلل الى قلبه ، حتى نلين من شدته ، ونكفكف من جموده ، ونطامن من كبريائه .

وهذا ما قصه علينا القرآن من مسالك الأنبياء والدعاة الى الله من المؤمنين الصادقين ، كما نرى في دعوة ابراهيم لأبية وقومه ، ودعوة شعيب لقومه ، ودعوة موسى لفرعون ، ودعوة مؤمن آل فرعون ، ومؤمن سورة « يس » وغيرهم من دعاة الحق والخير .

وذكر الامام الغزالي أن رجلا دخل على الخليفة المأمون العباسي يأمره وينهاه ، فأغلظ له في القول ، وكان المأمون على قدر كبير من العلم ، فقال له : ارفق ، فان الله بعث من هو خير منك الى من هو شر مني ، وأمره بالرفق ، ثم بين ذلك المرجل ، فقال : بعث الله موسى وهارون ، وهما خير منك الى فرعون ، وهو شر مني . وكانت وصية الله لهما : « فقولا له قولا لينا ، لعله يتذكر أو يخشى » !

سوء الظن بالناس

٥ ـ ومن مظاهر التطرف ولوازمه : سوء الظن بالآخرين ، والنظر اليهم من خلال منظار أسود ، يخفي حسناتهم ، على حين يضخم سيئاتهم ، فالأصل عند المتطرف هو الاتهام ، والأصل في الاتهام ، الادانة ، خلافا لما تقرره

الشرائع والقوانين ، ان المتهم بريء حتى تثبت ادانته .

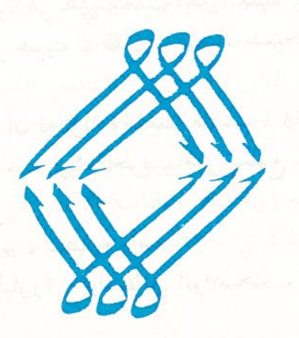
هذا مع أن التعاليم الاسلامية تحذر أشد التحذير من سوء الظن بالله ، وسوء الظن بالناس ، والله تعالى يقول : « يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن ، ان بعض الظن اثم » والنبي صلى الله عليه وسلم يقول : « اياكم والظن ، فان الظن أكذب الحديث » .

وأصل هذا كله : الغرور بالنفس ، والازدراء للغير ، ومن هنا كانت أول معصية لله في العالم : معصية ابليس .

وحسبنا في التحذير من هذا الاتجاه ، الحديث النبوي الصحيح : اذا سمعتم الرجل يقول : « هلك الناس فهو أهلكهم » . (رواه مسلم) .

وهذا مع أن المسلم الحق لا يغتر بعمله أبدا ، ويخشى أن يكون فيه من الدخل والخلل ما يحول دون قبوله ، وهو لا يدري . والقرآن يصف المؤمنين السابقين بالخيرات فيقول في أوصافهم « الذين يؤتون ماآتوا ، وقلوبهم وجلة انهم الى ربهم راجعون » وقد ورد في الحديث ، ان هذه الآية فيمن عمل الصالحات ، ويخاف الا يقبل الله منه .

ومن حكم ابن عطاء : ربما فتح الله لك باب الطاعة ، وما فتح لك باب القبول ، وربما قدر عليك المعصية ، فكانت سببا في الوصول ، معصية أورثت ذلا وانكسارا ، خير من طاعة أورثت عجبا واستكبارا .



وأصل هذا من حكمة للامام علي رضي الله عنه قال : سيئة تسوءك ، خير من حسنة تعجبك .

وقال ابن مسعود : الهلاك في اثنتين : العجب والقنوط .

السقوط في هاوية التكفير

٦ـ ومبلغ هذا التطرف وغايته ، حين يسقط عصمة الآخرين ، ويستبيح دماءهم وأموالهم ، ولا يرى لهم حرمة ولا ذمة ، وذلك انما يكون حين يخوض لجة (التكفير) واتهام جمهور الناس بالخروج من الاسلام ، أو عدم الدخول فيه أصلا ، كما هي دعوى بعضهم ، وهذا يمثل قمة التطرف الذي يجعل صاحبه في واد ، وسائر الأمة في واد آخر .

وهذا ما وقع فيه الخوارج في فجر الاسلام ، الذين كانوا من أشد الناس تعبدا لله صياما وقياما وتلاوة قرآن ، ولكنهم أتوا من فساد الفكر ، لا من فساد الضمير .

ومن ثم وصفهم النبي صلى الله عليه وسلم بقوله : (يحقر أحدكم صلاته الى صلاتهم، وقيامه الى قيامهم ، وقراءته الى قراءتهم) ومع هذا قال عنهم (يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية) ووصف صلتهم بالقرآن فقال : (يقرءون القرآن لا يجاوز تراقيهم) وذكر علامتهم المميزة بأنهم (يقتلون أهل الاسلام ، ويدعون أهل الأوثان) .

وهذه العلامة الأخيرة هي التي جعلت أحد العلماء ، حين وقع مرة في يد بعض الخوارج فسألوه عن هويته : فقال : مشرك مستجير ، يريد أن يسمع كلام الله .

وهنا قالوا له : حق علينا أن نجيرك ونبلغك مأمنك ، وتلوا قول الله تعالى : (وان أحد من المشركين استجارك فأجره ، حتى يسمع كلام الله ، ثم أبلغه مأمنه) .

ولو قال لهم : مسلم ، لقطعوا رأسه .

هذه بعض المعالم البارزة ، والدلائل الواضحة ، للتطرف أو الغلو في الدين .

كيف نفهم التطرف الديني ؟

د . ادريس الكتاني

من بين المصطلحات الجديدة التي ترجمها الاعلام العربي عن الاعلام الغربي أخيرا ، بمناسبة تطور الصراع داخل الوطن العربي والاسلامي ، ضد الاستعمار والهيمنة الغربية ، تجد عبارة « التطرف الديني » تتسرب بسهولة ويسر عبر وسائل الاعلام الغربية ، فتسهل على الكتاب والمحللين للاحداث مهمتهم ، بل هي توجههم أو توحي اليهم على الاقل ، بنقطة الانطلاق في تفسير الظاهرة الاسلامية الجديدة ، واعطائها وصفا معينا لهدف خاص .

في مطلع العام الثاني من القرن الخامس عشر الهجري ، وبداية سنة ١٩٨٢ الميلادية ، توجد الحضارة الغربية المادية بوجهيها الرأسمالي والشيوعي ، في موقف مواجهة وعداء للدين ـ الدين المسيحي التقليدي لهذه الحضارة بعقيدته اللاعقلانية ، وكهنوته ورهبانيته ونظامه الاكليرجي ، وتاريخه ، لم يستطع الوقوف أمام التطور الفكري ، والتقدم العلمي والمادي لشعوب هذه الحضارة ،

العربي العدد ٢٨٠ مارس ـ آذار ١٩٨٢ م .

فبينما اكتفت الثورات الغربية للعالم الرأسمالي بفصل الدين عن الدولة ومؤسساتها السياسية والادارية ، ونظامها التربوي ، وقفت الثورة الشيوعية منه موقف الانكار الفلسفي ، والعداء الايديولوجي الكامل ، وهكذا أصبح الفكر الشيوعي الماركسي يمثل عمليا موقف « التطرف اللاديني » الذي لا يعني الحياد ، وانما الرفض الصريح للدين .

ولم تختلف نظرة شعوب الحضارة الغربية هذه الى الاديان الاخرى ، وخاصة الاسلام ، عن نظرتها الى الدين المسيحي ، ان لم تكن أسوأ منها ، فله عندها مفهوم مترسخ واحد ، ينطلق من الصورة التي ترسبت في أذهانها عن المسيحية فاذا أضفنا اليها بالنسبة للاسلام الصورة السيئة التي رسمتها المسيحية والاستعمار خلال قرون من العداء والصراع مع الحضارة الاسلامية ، أدركنا حقيقة « المفهوم » الكامل للدين الاسلامي في الغرب ، حيث تندمج فيه معاني « الرجعية ، والتخلف ، والبداوة والقسوة والعنف ، والقبلية والطائفية » على اعتبار أنها من خصائص أو نتائج الفكر الاسلامي ، والابحاث التي تم القيام بها أخيرا في مواد الكتب المدرسية ومناهجها التاريخية والجغرافية والحضارية في بعض الدول الاوروبية ،وفي الولايات المتحدة نفسها تأكيد هذه الحقيقة ، بل ان الكتب والمناهج التعليمية التي ورثناها نحن في المغرب العربي عن الاستعمار مليئة بخطوط ومحتويات هذه الصورة السيئة .

على أن هذا « المفهوم » لم يقتصر على شعوب الغرب وحده ، فالأجيال العربية ـ الاسلامية التي تعلمت في الغرب ، أو درست في أوطانها في المدارس الغربية ، أو طبق المناهج الغربية ـ وهي التي تتصدر الشرائح العليا في أغلب البلاد العربية ـ الاسلامية ـ هذه الاجيال ان لم تكن هي نفسها تؤمن بهذا المفهوم بنسبة ثمانين أو تسعين في بالمائة ، فهي على أحسن تقدير واقعة تحت تأثيره الفكري ـ الثقافي بنسبة خمسين بالمائة ، وهذا هو سر انسياقها وتبعيتها ، بوعي أو بدون وعي ، للتيارات المادية للفكر اللاديني الغربي . ووقوفها من قضية الدين ببلادها موقف الحياد أو اللامبالاة .

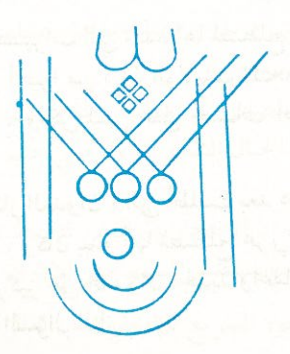
في هذه الظروف الفكرية والحضارية لمجتمعين مختلفي الحضارة والدين واللغة والتاريخ ، ويتميز حاضرهما بصراع حاد على جميع المستويات ، اذا شئنا ان نتعمق في تحليل ما سمي بـ « التطرف الديني » فعلينا أن نتساءل أولا :

- من الذي أطلق هذا المصطلح ؟
- وعلى من أطلق بالذات ؟
- وماهي الصفات المحددة لمفهوم (التطرف) ؟
- وما هو الهدف الخفي من اطلاقه ؟

والخبراء المتتبعون لسير الصراع المذكور لا يختلفون في الاجابة على هذه الاسئلة .

فالاجهزة الاستعمارية الغربية التي تشرف على توجيه الاعلام الغربي ووضع الصيغ والمصطلحات النفسية والاجتماعية الملائمة لمخططاتها السياسية في الوطن العربي ، هي التي أطلقت عبارة « التطرف الديني » كما استعملت عددا من المصطلحات الاخرى ، من بينها على سبيل المثال :

- أزمة الشرق الاوسط .
- الدول المتطرفة والدول المعتدلة .
- الدول الفقيرة والدول الغنية .
- العالم الثالث .
- الاضطرابات في العالم الثالث .
- حقوق الانسان .



هدف المصطلحات :

ولكل من هذه المصطلحات هدف استعماري يغيب عن أكثر الذين يعنيهم الامر ، في الوقت الذين يقعون - بجهلهم - في أحبولته .

وهكذا فان قضية اغتصاب فلسطين ومؤامرة الغرب الاستعماري مع الصهيونية العالمية لتأخير نهضة الوطن العربي - الاسلامي مائة عام أخرى ، هذه القضية البالغة الخطورة ، يجب التقليل من أهميتها ، واحاطتها في الاعلام العالمي بالغموض ، واعتبارها مجرد « أزمة » عابرة بين دول المنطقة ، نتيجة صراع ديني وقومي بين اليهود والمسلمين وخلاف حول حدودها ! ومع ذلك ، فالاعلام العربي يتحدث هو نفسه يوميا عن « أزمة الشرق الاوسط » . . !

وبعض الدول الافريقية « الفقيرة » هي غنية بمعادنها وثرواتها الطبيعية ولكن الاعلام الاستعماري يريد اقناعها دوما بأنها فقيرة ، لتستمر في خدمة واستجداء الدول الاستعمارية الغنية !

ولعلنا لانحتاج الى شرح الغموض المقصود من عبارة « الاضطرابات في العالم الثالث » فهذا وزير الدفاع الامريكي السابق هارولد بروان يقوم بهذا الشرح قائلا : « ان الخطر الأكبر على الأمن الامريكي ليس هو التهديدات الاستهلاكية ، أو التوسع الروسي ، بل هو تكاثر حالات الاضطراب والتمرد الخارجة عن دائرة النفوذ الامريكي في بلدان العالم الثالث » ، وهو يعني حركات التحرر التي تقاوم السيطرة الاستعمارية والفساد .

ولعل من أغرب التفسيرات التي سمعناها لمصطلح « حقوق الانسان » ما صرح به مسؤول أمريكي أخيرا من « أن الولايات المتحدة ستستمر في الدفاع عن (حقوق الانسان) ، ولكن ليس على حساب أصدقاء الولايات المتحدة ! » .

وحتى عبارة « محو آثار العدوان » التي أطلقت بعد هجوم « اسرائيل » على البلاد العربية سنة ١٩٦٧ ، وكان يبدو أنها مصطلح عربي ، لعبت دورا اعلاميا منذ ذلك التاريخ ، في التركيز على العدوان الجديد واغفال العدوان القديم .

ونعود للاجابة على السؤال الثاني :

- من هم المعنيون بالتطرف الديني ؟

- انهم المسلمون فقط من شعوب وحركات وجمعيات ، فاليهود ، مثلا ، رغم كل ما قاموا به من ارهاب وقتل واحراق وتخريب للمسلمين وديارهم منذ قيام اسرائيل وحتى الان ، لا يعتبر عملهم « تطرفا دينيا » ! وما تقوم به حكومات مسيحية كالفلبين ضد المسلمين ، لم يصفه أحد في الغرب بأنه « تطرف ديني » !

ثم ما هي الصفات المحددة لمفهوم « التطرف الاسلامي » في الاعلام الغربي ؟

العنف واللامعقول :

- تجيب عن هذا السؤال وكالة فرانس بريس في تعليق لها بعنوان : (العنف واللامعقول في الشرق العربي) بتاريخ (٩ - ١٠ - ٨١) قائلة :

« يرى كثير من المراقبين في الغرب أن الدقة والجرأة وقبول التضحية بالنفس هي من سمات الاعتداء الذي راح ضحيته رئيس جمهورية مصر ، . . . لقد ألقى المهاجمون بأنفسهم في فم الاسد تقريبا ، وهاجموا هدفهم من الامام في الوقت الذي كان الرجل محاطا بالاف من الجنود ورجال الشرطة .

ان هذا المزيج من الدقة في الترتيب ، والجرأة المجنونة في التنفيذ (٥٠ ثانية) يتكرر في كل أعمال العنف تقريبا التي يتميز بها صعود التطرف الاسلامي منذ عامين أو ثلاثة أعوام ، ان ما يلفت نظر المراقبين في أعمال المتطرفين ، هو تلك القيمة المثالية التي يريدون اضفاءها على عملهم ، والتي تتغلب كثيرا على السعي الى تحقيق كسب فوري .

وسواء كانت قصص البطولات والمغامرات التي تحكى حقيقة أو مختلقة فالواقع أنها تؤثر على الخيال الشعبي ، وترضي حب العرب لبطولة لم تعد ميادين القتال تحققها لهم .

. . . ولا شك أن الانتحاريين الذين قتلوا الرئيس ارادوا أن يثبتوا لشعب أصابه الذهول ، كيف يستطيع المسلم حتى الان أن يموت في سبيل معتقداته .

. . . ان الصعود السريع للامعقول في العالم اللاسلامي هو الذي يتجلى

بذلك في وضح النهار ، فلا تستطيع أي دولة عربية أن تدعى اليوم بأنها في مأمن من هذه الظاهرة الرهيبة ، كما أن رخاء الغرب أصبح الان تحت رحمة أشخاص ، الموت بالنسبة لهم خير لا يطاوله خير آخر .

ان المجال الان لا يتسع للتعليق على هذا التحليل ، وأهميته ليست فقط في توضيح النظرة الغربية لما نسميه بالتطرف الاسلامي، ولكن أيضا في اجابة التحليل على السؤال الرابع الذي ألقيناه :

ـ ما هو الهدف من اطلاقه ؟

ان التحليل المذكور يستشف منه بوضوح ، أن عبارة « التطرف الديني » تهدف لضرب عصفورين بحجر واحد :

١ ـ تخويف وتأليب الحكومات والرأي العام الغربي ضد الحركات الاسلامية بصفة عامة ، باعتبار أنها منبع خطر دائم عليها يتميز بالتطرف الديني ، بدل التعاون معها ضد الخطر الحقيقي الاجنبي المتمثل في الامبريالية والصهيونية .

٢ ـ تخويف وتأليب الحكومات والرأي العام الغربي ضد الحركات الاسلامية بصفة عامة باعتبار أنها مصدر خطر جديد « غير معقول »يقف حائلا ضد رخاء الغرب ـ اذ من (غير المعقول) أن تصبح الشعوب التي حكمها الاستعمار بالامس سيدة نفسها ، بل وتتحكم في مصير أسيادها السابقين !

والتطرف اليساري واليميني :

ان ما يسمى بالتطرف الديني لا يمكن أن يعتبر شذوذا خارجا عما تعرفه ظاهرة العنف والاجرام التي تتميز بها حضارة الغرب المادية المعاصرة ، فحوادث العنف الاسلامية لا تزال أقل خطرا بكثير من حوادث الارهاب التي تعرفها ايطاليا وألمانيا واسبانيا وانجلترا وفرنسا والولايات المتحدة وغيرها من دول العالم ، وقد تحدثت مجلة تايم الامريكية في شهر نوفمبر ١٩٨٢ الماضي عن (المتطرفين اليمينيين) في ألمانيا الغربية وتصاعد عملياتهم الارهابية ، التي ارتفع عددها من ٦٠٦ عملية في عام ١٩٧٧ ، الى ١٥٣٣ عملية في عام ١٩٨٠ ، واشارت الى أن الحركة المسئولة عن عمليات الارهاب ارتفع عدد أعضائها من

١٤٠٠ في السنة الماضية الى ١٨٠٠ وقد جاءت هذه الزيادة في وقت يتواصل فيه التأييد السياسي للمتطرفين اليمينيين .

وفي نفس الوقت تحدث أنريك بوغ رئيس المكتب الاتحادي للبوليس الجنائي عن (المتطرفين اليساريين) الذين ينتمون الى الخلايا الثورية ، ويشكلون أكبر خطر على الامن الداخلي في جمهورية ألمانيا الاتحادية ، وأنهم أكثر خطورة من جناح الجيش الاحمر ، الذي قام بمحاولة اغتيال الجنرال فريدريك كروسي قائد القوات البرية الامريكية في أوروبا .

وهكذا تمر أخبار « التطرف اليميني » و « التطرف اليساري » في الغرب بهدوء تام في الوقت الذي يدق فيه الاعلام الغربي يوميا « ناقوس الخطر » ضد « التطرف الديني » !

لماذا اذن يصف الغربيون ارهابهم بالتطرف اليميني أو اليساري وارهابنا بالتطرف الديني ؟ ، هل فقط لانه عندهم يصدر من مسيحيين لا دينيين ، وعندنا من مسلمين متدينين ؟ ! ، هذا لا تقوم به حجة ، طالما أن المتدين وغير المتدين المسلم ، والمسيحي ، قد يكون لهما رد فعل واحد تجاه الشعور بالظلم والاعتداء ، واذن يجب البحث عن أسباب العنف من طبيعة هذه الاسباب ، واذا كان الاعلام الغربي قد تجاوز هذاالموقف الموضوعي ، ليحكم مسبقا على كل عنف سياسي يصدر في الوطن العربي الاسلامي بأنه صادر عن نزعة دينية محضة ، فهذا يكشف طبيعة التضليل المقصود للاعلام الغربي ، في استعماله عبارة « التطرف الديني » .

ان الاسلام ، كما هو معروف ـ ولا يسعنا المقام لذكر الأدلة على ذلك هنا ـ لا يقر العنف والارهاب ، لانه دين التسامح والسلام، والدعوة الى الله بالحكمة والموعظة الحسنة ، والعنف السياسي الذي عرفه العرب منذ فجر الاسلام ، والذي بدأ بقتل ثلاثة من الخلفاء الراشدين واثنين من أحفاد الرسول عليه الصلاة والسلام هما الحسن والحسين سيداشباب أهل الجنة ، والذي ذهب ضحيته مئات الشهداء من حفدة الرسول وصهره الامام علي بن أبي طالب ، خلال القرون الثلاثة الاولى للهجرة ، وعدد كبير من العلماء ورجال الفكر والسياسة حتى اليوم ، هذا العنف هو (ظاهرة سياسية عربية) ولم ينعته أحد من المؤرخين أو الكتاب ، بأنه عمل ديني ، أو تطرف ديني ، وسيكون من السخف

والبلاهة أن يدعى أحد بأن قتل الخلفاء الراشدين ، وحفدة الرسول و آل بيته وأنصار دعوته ، هو عمل اسلامي ، أو سلوك يوحي الدين بممارسته .

أسباب العنف السياسي :

يدخل العنف السياسي في الاطار العام لتعريف الجريمة ، اذ هو سلوك مخالف للقانون الجنائي ، ولذلك فان البحث عن أسباب هذا السلوك يجب أن يخضع لنفس المنهج الخاص بعلم الاجرام ، ومن المعروف في قواعد علم الاجتماع أنه لا يمكن تفسير حادث وقع في مكان معين الا بحادث آخر وقع في جهة أخرى من المكان . ذلك أن الحياة الاجتماعية هي عبارة عن مسلسل من ردود الفعل ، ورد الفعل العنيف من طرف انسان أو جماعة متجانسة ضد فعل انسان أو جماعة معارضة ، قد يكون نتيجة سلسلة من الافعال الاستفزازية المتراكمة ، التي لا يقوى أحدها بمفرده على احداث رد الفعل ، ولذلك يقول المثل الشعبي المغربي : (حك على الشماتة يرجع راجل) أي أن الانسان الضعيف الذليل الذي يشمت به الناس ، اذا أنت تجاوزت حدود منطقة قابليته للاهانة ، بتكرار عمليات الاذلال والاحتقار ، فانه سيثور ويتحول الى رجل مكتمل الرجولة .

وشعور الجماعة بالظلم والقهر ، أو بالاستبداد والاستغلال ، سواء من خصم داخلي ، أو عدو خارجي ، لا بد أن تكون له انعكاسات سلبية ، ويتبلور رد فعله في صياغة فكرة ، تعبر عن قيمة من قيم المجتمع ، يشترك أفراد الجماعة في ابرازها كقوة مثالية مقدسة ، قادرة على مواجهة قوة الخصم ، وقد تطول مدة صياغة الفكرة ، أو مدة تحويل الفكرة الى عقيدة ، أو مدة تحويل العقيدة الى عمل ايجابي يمثل رد فعل الجماعة تبعا لمستوى ثقافتها وقدرتها على انجاز عمليات رد الفعل بنجاح ، وتبعا أيضا لمستوى ثقافة الخصم ، وقدرته على احباط رد الفعل لدى الجماعة .

وقد قامت الشعوب العربية الاسلامية خلال المرحلة الاستعمارية بمسلسل ردود الفعل الذي انتهى باستقلالها السياسي في فترات زمنية مختلفة ، تبعا لما شرحناه آنفا . وتمثل رد الفعل ضد النظام الاستعماري الكامل بالثورة

الشعبية المسلحة ، بينما اقتصر رد الفعل ضد نظام الحماية والانتداب على المقاومة السياسية ، والحركة الفدائية المسلحة .

ويلاحظ أنه بعد مرور عشرات السنين على هذا الاستقلال ، وخاصة منذ الغزو الصهيوني المدعم بالتحالف الامبريالي ، عجزت أغلب الحكومات العربية عن : ـ وضع أسلوب مستقر للحكم يضمن الحريات العامة ، والعدالة الاجتماعية ، ويستمد سلطته مباشرة من الشعب ، سواء طبق الشريعة الاسلامية ، أو حسب النظام الديمقراطي الغربي .

ـ وضع حد لمشاكل الشعب المتزايدة ، وضمان حقوق المواطنين في الشغل والتعليم والصحة والسكنى ، وتطبيق قوانين الضمان الاجتماعي ضد العجز والحاجة والمرض والشيخوخة على جميع المواطنين .

ـ تحقيق الوحدة العربية ، سواء باسم القومية العربية أو باسم المذهب الاشتراكي رغم كل الجهود التي بذلتها الحكومات المعنية ، وكان من أهم عوامل فشلها انطلاقها من وهم انشاء دولة عربية واحدة وتجاهل النظام الوحيد الناجح في الغرب والشرق والقائم على الاتحاد الفيدرالي .

ـ مواجهة اسرائيل ، وكأنها الدولة التى لا تقهر ، بحجة أنها حليفة الولايات المتحدة . ومعاملة هذه الاخيرة وكأنها إلهة الارض التي بيدها ملكوت كل شيء مع أنها عانت الهزيمة أمام ارادة شعبين دونها عدة وعددا .

وأمام تراكم مسلسل العجز والقصور والجمود ، وعدم القدرة على تحسين الاوضاع الاجتماعية والاقتصادية للشعوب العربية ، وتزايد الشعور بالقهر والهزيمة والاحباط والمذلة أمام « اسرائيل » وحلفائها الغربيين ، في ظروف وأوضاع لعل العرب لم يعرفوا في تاريخهم الطويل أشد منها قساوة ومهانة ، كان لا بد أن تكون هناك ردود أفعال ، في مستوى الافعال وفي حجمها ، ولكن من طرف من ؟ الاحزاب شريكة الحكومات في مسؤولية الحكم ، لا ينتظر طبعا ـ أن يكون لها رد فعل الجماعات الشعبية الاخرى التي ظلت خارج المسؤولية والمشاركة في الحكم . هي جماعات اسلامية كعموم الشعب ، ولأنها لا تحمل شعارا أو عنوانا غربيا ، هي المؤهلة بحكم قيمها الاصلية السلفية لظهور ردود الفعل في اطار « ظاهرة العنف السياسي » العربية التاريخية التقليدية .

البديل الوحيد :

لعبت الاحزاب الوطنية العربية في مرحلة مقاومة الاستعمار دورا عظيم الاهمية في الحصول على الاستقلال ، وهذا ما جعلها تكتسب التأييد الشعبي الساحق الذي حقق لها الانتصار . وبعد الاستقلال أخذ نفوذ هذه الاحزاب يتضاءل ويتقلص بسبب عدة عوامل أهمها :

انغماس أغلب قادتها في الاستمتاع بمكاسب الاستقلال ، وفتور علاقاتهم بالقاعدة الشعبية نتيجة لذلك ، وبالتالي فتور روح التضحية والحماس في هذه القاعدة التي خاب أملها في عهد الاستقلال ، الذي لم يحقق لها ما كانت تحلم به من تقدم وازدهار . (مقدرة الانتهازيين والوصوليين على التسرب لمراكز القيادة والسلطة واستعمالها لخدمة المصالح الخاصة والشخصية) .

عدم ثقة السلطة السياسية بالاحزاب الوطنية التقليدية ، وقيامها بانشاء أحزاب خاصة بها تدين لها بالولاء ، ولكنها لا تملك رصيدا شعبيا .

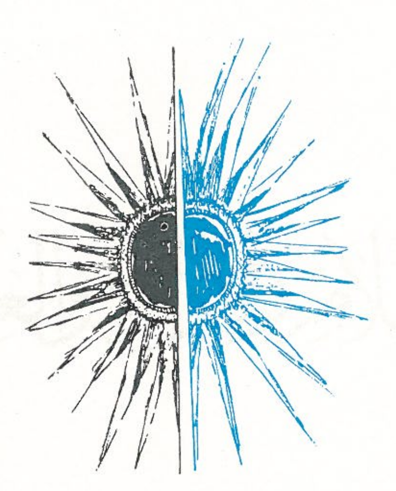
وهكذا وجد الشعب نفسه بين أحزاب فقد ثقته بها ، وأخرى لا علاقة له بها ، وتم عمليا (فك الارتباط) بين الشعب والسلطة السياسية . واذاكانت هذه السلطة لا تجد أية صعوبة في ترشيح من يمثل الشعب وينطق باسمه ، في المجالس ووسائل الاعلام ، فان أفراد الشعب الذين يشعرون بالكبت والحرمان ، حتى من حق المعارضة وابداء التذمر والسخط ، يلتجئون - بحكم الضرورة وحتمية رد الفعل - الى المقاومة السرية باسلوب « العنف السياسي » الذي أصبح (ظاهرة عالمية) بفضل وسائل التدمير والتفجير الحديثة ، وتطور تقنيات العنف والارهاب .

اذا اقتنعنا بأن « العنف السياسي » مهما كانت أسبابه ، هو عبارة عن سلوك مخالف للقانون الجنائي ، وبهذا يعتبر نوعا من الاجرام الذي هو ثمرة الخلل الموجود في أبنية ومؤسسات المجتمع ، فان الاسلوب العملي لمنع الجريمة يتركز على منع أسبابها وعواملها ، وقد فشلت جميع أساليب العلاج القائمة على الردع والزجر حتى الان . ولذلك فان كل محاولة لعلاج « العنف السياسي » بأسلوب الوعظ والارشاد الديني مع استمرار الاسباب والعوامل الدافعة اليه ،

سيكون مآلها الفشل أيضا .

اذن لنبدأ بازالة أسباب (العنف السياسي) . وقبل ذلك ، علينا أن نبدأ بتشخيصها .

هذه هي (القصة العربية) التي لم تتم فصولها بعد ، في انتظار من يمثل دور البطل .



الفصل الثالث



مكان الإرادة الإنسانية في فكر الإسلام السياسي

د. محمّد عمارة

في كثير من الاحيان يبلغ الخلط بين الامور المتمايزة نفس النتائج التي يبلغها الجهل او تعمد التضليل ! . . وأحد نماذج هذا الخلط ما نقرأ ونسمع عنه من نتائج يتوصل اليها نفر من العاملين والمشتغلين بالدراسات الاسلامية السياسية ، عندما يقررون ان نظرية الاسلام السياسية تختلف ، جوهريا ، مع الديمقراطية السياسية ، لأن الديمقراطية هي حكم الشعب والامة ، والسلطة فيها للشعب ، على حين ان السلطة في الاسلام - كما يقول - هي لله سبحانه وحده ، اذ هو الحاكم والحاكمية له ، ولا حاكم الا الله . .

وهذا النفر من المشتغلين بالدراسات الاسلامية يصنفون نظام الحكم الاسلامي مع نظم الحكم « الحتمية » غير « الارادية » ، لأن النظم الارادية تجعل للارادة الانسانية القول الفصل في تأسيسها وتطويرها ، على حين يسلب الاسلام - في رأيهم - هذا الحق من الامة ، ويجعله خالصا لله سبحانه وتعالى . .

وهم ، بقولهم هذا ، يجعلون صاحب السلطة السياسية في النظام الاسلامي - الحاكم - وكيلا عن الله - سواء صرحوا بذلك ام لم يصرحوا - لأن الحاكم هو في النهاية منفذ شريعة ومطبق قانون ، وهو في عمله هذا انما ينوب عن

العربي العدد ٢٢٠ مارس - آذار ١٩٧٧م .

صاحب السلطة الاصلي في المجتمع ، فاذا قلنا ان السلطة لله ، كانت دينا وحيا ، ومن ثم كانت سلطة دينية ، وكان متوليها حاكما « بالحق الالهي » ونائبا عن الله ، وخليفة له وظلا ! . . اما اذا قلنا ـ كما هو الحال في الفكر الديمقراطي ـ بان صاحب السلطة الاصلي هو الشعب ، كان متوليها نائبا عن الامة ووكيلا ، او شبه وكيل ، وكان مسئولا امام الامة التي لها الحق في محاسبته ومراقبته ، وعزله ان هو اخل بشروط عقد البيعة والتفويض والاختيار . .

واذا كان اسلافنا قد قالوا : ان حسن الظن ورطة ، وسوء الظن عصمة ! ، فنحن نستأذنهم في التخلي عن حكمتهم هذه ، فنستحسن الظن بمرامي هذا النفر من المشتغلين بالدراسات الاسلامية ، وسنقول ان الذي اوقعهم في هذا التشخيص لفكر الاسلام السياسي هو الخلط ، وليس الجهل او تعمد التضليل ! . .

كل النظم ارادية

ذلك ان تقسيم النظم السياسية التي عرفتها وتعرفها البشرية الى :

أ ـ نظم حتمية ، لا مكان فيها لارادة الانسان . .

ب ـ ونظم ارادية ، تقوم على الارادة الانسانية ، وتتأسس على مبدأ : ان الامة هي مصدر السلطات . . ثم القول بان الاسلام هو من النوع الأول ، لأن الحاكم فيه هو الله ، وليس الانسان . . ان هذا التقسيم غير واقعي ، ومن ثم غير صحيح . . ذلك ان السلطة في اي مجتمع من المجتمعات ، وفي ظل اي نظام وتحت اي فلسفة ، انما هي في النهاية ، وبصرف النظر عن الصيغ والشعارات بل وبرغم هذه الصيغ والشعارات ، في يد بشر يمارسون التشريع ، والقضاء ، والتنفيذ . . وحتى لو تصورنا المجتمع الاسلامي الذي يتحدث عنه هذا النفر من الباحثين ، والذي يعلن حكامه : ان الحكم لله ، لا للامة . . فاننا سنجد انفسنا امام بشر يمارسون سن القوانين ، بالاجتهاد ، والحكم بموجبها ، والقيام على تنفيذها . . مع ادعائهم انهم وكلاء عن الله ، مصدر السلطة والحكم ، وليسوا وكلاء عن الامة . . فهم بشر يحكمون ، رغم القول بان الله هو الحاكم ، ولا حاكم سواه . . وكل الجديد في هذا الامر ـ اذا جاز ان يسمى ذلك

جديدا ـ اننا سنكون عندئذ قد عدنا بعقارب الساعة الى فلسفة (الحكم بالحق الالهي) ، على النحو الذي عرفه الفرس ايام كسرى ، وروما زمن قيصر واوروبا في عصور الظلام ! . . ولن يقلل من سوء مثل هذا النظام وخطر مثل تلك الفلسفة السياسية القول بان الحاكم ملتزم بالشريعة ، لأن العدول عن مبدأ : (الامة مصدر السلطات) ، سيحرر الحاكم ، بدرجات متفاوتة ، من قيد تستخدمه الامة للحيلولة دونه ودون الشطط والاستبداد ، كما سيفتح له الطريق كي يضفي على نفسه قداسة دينية وسلطة ربانية تتنافى تماما مع روح الاسلام . . وهذه قضية قد حسمها التطور السياسي للمجتمعات البشرية بصرف النظر عن العقائد والنظم والفلسفات ، ولقد دفعت البشرية ثمنا باهظا من التضحيات كي تتخلص من مثل هذه الفلسفات في نظم الحكم . . والتاريخ العربي والاسلامي شاهد على الثمن الذي دفعه المسلمون عندما سادت فيهم ، ـ رغم تعاليم دينهم الحنيف وروح شريعته ـ مثل هذه الفلسفات .

فالنظم السياسية لا تنقسم الى : حتمية ، وارادية . . لانها دائما وابدا ارادية ، لأنها سلطة في يد بشر ، لهم ارادة تحكم تصرفهم فيما لديهم من سلطات ، ولكنها تتفاوت وتختلف في ضيق او اتساع دائرة الارادة الانسانية . . فقد تكون ارادة فرد ، او حزب ، او طبقة ، او تحالف طبقات واحزاب . . كما تتفاوت في الاطلاق او التقييد لارادة الانسان ، ثم هي تتفاوت في الانحياز للفكر المدني او ادعاء قداسة الكهنوت فالسلطة التي تؤمن بان الامة هي مصدر السلطات ، تحدد ان الحاكم فيها نائب عن الامة التي توليه وتراقبه وتعزله اذا أخل بشروط الولاية ، على حين ان السلطة التي يزعم اربابها ان الحاكم في السياسة والاقتصاد هو الله سبحانه وتعالى ، تحدد انها تحكم باسم الله ونيابة عنه ، لا عن الناس . . فالتقسيم الحقيقي للنظم هو :

أ ـ نظم تحكم او تتحكم تحت ستار الحق الالهي .

ب ـ ونظم تفصح عن ان الحاكم بشر ، ينوب عن البشر في سياسة المجتمع وحكمه ، وان الامة هي مصدر السلطات .



وهؤلاء النفر من المشتغلين بالعمل والدراسات في الحقل الاسلامي يمعنون في افتعال التناقض بين ان تكون السلطة للامة ، وبين ان يكون الحكم لله سبحانه وتعالى ، وسبيلهم الى ذلك : الخلط بين امور لا تقبل الاختلاط . . بل ويرتبون على مقدماتهم الفاسدة : الحكم بكفر كل من يجعل مصدر السلطة السياسية لغير الله ! . . فيقولون ، مثلا : « انه ان كانت السلطة التي يستند اليها المرء ، لاتباعه قانونا من القوانين او نظاما من النظم ، سلطة الله تعالى ، فالمرء لاشك في دين الله عز وجل واما ان كانت تلك السلطة سلطة ملك من الملوك ، فالمرء في دين الملك ، وان كانت سلطة العائلة او العشيرة او جماهير الامة ، فالمرء لاجرم ، في دين هؤلاء! »[1]

فهم هنا يضعون سلطة جماهير الامة نقيضا لسلطة الله ، ويحكمون بكفر من يحيا ، راضيا ، في مجتمع تكون فيه الامة مصدر السلطات ! . .

ولقد نسي هؤلاء الباحثون الاسلاميون ان الحديث في الفكر الاسلامي عن « حق الله » ، انما يعني « حق المجتمع » ، وان القول بان « المال مال الله » معناه ان « المال مال الامة والمجتمع ، » ومن ثم فان الحديث عن « حكم الله وسلطانه » انما يعني في السياسة « حكم الامة وسلطانها » . . فلا تناقض هنا بين ان يكون الحكم لله وبين ان تكون السلطة السياسية والحكم في المجتمع الاسلامي لجماهير المسلمين . . واكثر من هذا ـ فان هذا النفر من الباحثين المسلمين قد استشهد ، في تأسيس فكره ، بمالا يشهد له ، ومن ثم بنى قاعدة نظريته ـ (الحاكمية لله) ـ بتفسيره هذا ، على غير اساس . .

فهم قد اشتقوا « حاكمية » الله سبحانه ، من مصطلح « الحكم » ظانين ان القرآن ، ومن ثم فكر الاسلام السياسي ، يستخدم مصطلح « الحكم » للدلالة على النظام السياسي ، على حين ان اغلب الاستخدامات القرآنية لهذا المصطلح واردة بمعنى « القضاء » والفصل في المنازعات ، وبمعنى « الحكمة » . . فعيسى عليه السلام لم يبن دولة ولم يكن حاكما سياسيا ولا صاحب نظام من نظم الحكم ومع ذلك فلقد اتاه الله (الحكم) بمعنى الحكمة ، اذ يقول : (ما كان

لبشر ان يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ، ثم يقول للناس كونوا عبادا لي . .)[2] . . ونبي الله يحيى لم يكن حاكما سياسيا ولامؤسس دولة ونظام حكم ومن باب اولى لايتصور منه شيء من ذلك وهو صبي ، ومع ذلك فلقد اتاه الله (الحكم) وهو صبي ، اي « الحكمة » فيقول : (يا يحيى خذ الكتاب بقوة واتيناه الحكم صبيا . .)[3] . ولوط لم يكن حاكما ، حسب فهمنا لمصطلح « الحاكم » ، ومع ذلك فلقد اتاه الله (حكما وعلما)[4] . . اي حكمة وعلما . . وموسى عندما قتل المصري ، ثم فر من شرطة فرعون مصر ، لم يؤسس دولة يحكمها ، ومع ذلك فهو يتحدث عن ان الله وهب له « الحكم » (ففررت منكم لما خفتكم ، فوهب لي ربي حكما وجعلني من المرسلين)[5] . .

فالحكم ، كمصطلح قرآني ، لايعني الحكم بالمعنى الذي نستخدمه اليوم في الدراسات السياسية ، ومن ثم فان اشتقاق « حاكمية » الله ، بمعنى الحاكمية في النظم السياسية من هذا المصطلح انما هو تأسيس على غير اساس !

ويزيد هذا الامر تأكيدا تلك الحقيقة التي سيطالعها اي باحث اذا هو ذهب ليبحث عن المصطلح الذي استخدمه القرآن ، والادب السياسي في صدر الاسلام للتعبير عن السياسة ونظام الحكم والسلطة العليا في المجتمع الاسلامي . . لان هذا البحث سيكشف لنا ان مصطلح « الامر » وليس مصطلح « الحكم » هو الذي استخدمه القرآن للدلالة على هذا المبحث . .

فالامر مصطلح ذو صلة « بالائتمار » اي التشاور والشورى ، التي هي فلسفة « الحكم » في الاسلام ومنه سمي الحاكم بـ « الامير » . . . والقادة بـ « اولي الامر » . . ومن هنا جاء قوله سبحانه : (يا ايها الذين آمنوا اطيعوا الله واطيعوا الرسول واولي الامر منكم)[6] وقال : (وامرهم شورى بينهم)[7] ، كما قال لنبيه عليه الصلاة والسلام (وشاورهم في الامر)[8] . .

وعند وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام ، تحدث ابو بكر الصديق عن السلطة العليا في المجتمع فقال : « ان محمدا قد مضى لسبيله ، ولابد لهذا الامر من قائم يقوم به »[9] . . وعندما اقترب به الاجل قال ، من بين ما قال : « وددت اني يوم سقيفة بني ساعدة قذفت هذا الامر في عنق احد الرجلين ـ اي عمر وابي عبيدة ـ فكان اميرا وكنت وزيرا . . ووددت اني كنت سألت رسول الله في هذا الامر ، فلا ينازع الامر اهله . . ووددت اني سألته : هل للانصار في

هذا الامر نصيب فنعطيهم اياه . .»[١٠] ولما اراد العهد بالخلافة الى عمر بن الخطاب قال للصحابة : « تشاوروا في هذا الامر ، ثم وصف عمر بصفاته ، وعهد اليه واستقر الامر عليه . .»[١١] .

وفي اول خطبة لعمر بعد خلافته قال : « ليعلم من ولي هذا الامر من بعدي انه سيريده عنه القريب والبعيد »[١٢] وفي موطن آخر يقول : « ان هذا الامر لا يصلح الا بالشدة التي لا جبرية فيها ، وباللين الذي لا وهن فيه »[١٣] .

ويتحدث علي بن ابي طالب عن ان موت الرسول قد اعقبه « ان تنازع المسلمون الامر من بعده . .»[١٤]

وبعد علي يخطب ابنه الحسن في اهل العراق فيقول : « اماوالله لو وجدت اعوانا لقمت بهذا الامر اي قيام . .»[١٥]

ويكتب معاوية الى الحسن فيقول : « فادخل في طاعتي ، ولك الامر من بعدي . .»[١٦] اي لك الخلافة من بعدي على المسلمين .

فمصطلح « الامر » لا « الحكم » هو المصطلح الذي استخدمه القرآن ، واستخدمته السنة ، وجرى استعماله في الادب السياسي على عصر صدر الاسلام ، تعبيرا عن نظام الحكم في المجتمع . . ومن ثم فلا اساس لاشتقاق الحاكمية الالهية ، من مصطلح « الحكم » والقول بانها تعني السلطة السياسية العليا والوحيدة في مجتمع الاسلام .

ويزيد قولنا هذا تأكيدا ، وايضا يزيد منطق هذا النفر من الباحثين الاسلاميين تهافتا ، ان استشهادهم على موقفهم ، من كتب التراث الاسلامي لا يشهد هو الاخر لموقفهم هذا ! . .

فهم ينقلون قول الامام الغزالي في كتابه (المستصفى من علم الاصول) : « الحاكم هو الشارع . . ولا حكم الا لله ، وانه لا حكم للرسول ولا للسيد على العبد ولا لمخلوق على مخلوق ، بل كل ذلك حكم الله تعالى ووضعه ، لا حكم غيره . . واما استحقاق نفوذ الحكم فليس الا لمن له الخلق والامر ، فانما النافذ حكم المالك على مملوكه ، ولا مالك الا الخالق ، فلا حكم ولا امر الا له ، اما النبي صلى الله عليه وسلم والسلطان والسيد والاب والزوج فاذا امروا او اوجبوا لم يجب شيء بايجابهم بل بايجاب الله تعالى طاعتهم . . فالواجب طاعة الله تعالى وطاعة من اوجب الله تعالى طاعته . .»[١٧] .

والخطأ في الاستشهاد بكلمات الامام الغزالي مرده الى الاستشهاد بها على غير ما كتبت لـه ! . . فحديث الغـزالي في (المستصفى) عن اصول الفقه ، وليست الامامة ولا نظام الحكم من هذه الاصول ، فلا مجال للاستشهاد عليها بهذه الكلمات ، اذ الموضوع هنا هو « الاحكام الشرعية الثابتة لافعال المكلفين . . . كالوجوب والحظر والاباحة والندب والكراهية . .»[١٨] الخ . . اي التكاليف ، وهذه الحاكم فيها هو الله ، والحاكمية فيها لله وحده . . اما نظام الحكم فمكانه كتب الفروع ، وهو ليس من الاصول حتى نستشهد عليه بالنصوص الواردة في موضوع علم الاصول .

فسلطة « الحاكمية الالهية » في علم الاصول ، ليست هي « السلطة التشريعية » في السياسة ونظم الحكم وقوانين المجتمع ، كما فهم الذين خلطوا الاصول بالفروع ، فانتقلوا بالسياسة ونظام الحكم الى اطار اصول الدين[١٩] . . وبعد قليل سيأتي الحديث ، بل وحديث الامام الغزالي نفسه ، الذي يبدد مبررات الخلط في هذا المقام .



ثم . . ان تاريخ الفكر الاسلامي يدلنا على ان اول من قال بفكرة « الحاكمية لله » في السياسة ونظم الحكم كانوا هم (الخوارج) عندما اعترضوا على (التحكيم) بين علي ومعاوية في « صفين » فلقد كانوا يرون ـ مثل علي بن ابي طالب ـ ان معاوية بن ابي سفيان وصحبه هم (الفئة الباغية) التي نص القرآن على قتالها حتى تفيء الى امر الله ومن ثم رفضوا « تحكيم » البشر (وحكمهم) في امر ورد فيه نص القرآن الكريم ، فصاحوا صيحتهم الشهيرة : (لاحكم إلا لله)، حتى لقد سموا (بالمحكِّمة) . . ولقد كان تعليق الامام علي بن ابي طالب على قولهم هذا : « انها كلمة حق يراد بها باطل !»[٢٠] لانهم ارادوا فرض حاكمية الله في السياسة ، وهي امر لابد لممارسته من بشر ، حتى ولو وردت في بعض قضاياه نصوص !

طبيعة السلطة في النظم الاسلامية

وبعض الباحثين الاسلاميين يخشى ان يؤدي القول بان للارادة الانسانية دورا في صنع النظم السياسية والاقتصادية ، ان يؤدي القول بذلك الى جعل النظام الاسلامي ، في السياسة ، نظاما وضعيا ؟!

ونحن نقول لهؤلاء الباحثين : ان الاسلام كدين وباركانه الخمسة التي بني عليها ، وبكتابه المعجز ، وبسنته التشريعية التي بلغ بها الرسول عليه افضل الصلاة والسلام تفصيلات ما اجمله الوحي . . ان ذلك كله « وضع الهي » ، وليس لمؤمن ان يدعي ان شيئا من ذلك هو من « وضع الانسان » . . لكن الاسلام ، كدين ، لم يحدد للمسلمين نظاما محددا للحكم ، لان منطق صلاحية الدين الاسلامي لكل زمان ومكان يقتضي ترك النظم المتجددة قطعا بحكم التطور للعقل الانساني الرشيد ، يصوغها وفق مصلحة المجموع ، وفي اطار الوصايا العامة والقواعد الكلية التي قررها هذا الدين . . فهو ، مثلا ، قد دعا الى الشورى ، والعدل ومنع الضرر والضرار ، وعلى المسلمين ان يصوغوا لمجتمعاتهم نظم الحكم التي تقربهم من تحقيق هذه المثل العليا . . ولذلك كان الدين واحدا في كل مراحل التطور البشري ، ولدى كل الرسل ، بينما تعددت

الشرائع تبعا لتطور المجتمعات واختلاف البيئات وتعدد الرسالات . . فالدين عند الله الاسلام . . . والقرآن قد جاء مصدقا لما بين يديه . . ولا يحق لنا ان نقول : الدين الموسوي ، او الدين العيسوي او الدين المحمدي بينما يحق لنا ان نقول الشريعة الموسوية والشريعة المحمدية . . فالدين الذي بعث الله به محمدا صلى الله عليه وسلم هو دين الانبياء الذين سبقوه اما شريعته فهي ناسخة للشرائع التي سادت في مجتمعات سبقت مجتمع الاسلام .

اما زعم هذا النفر من الباحثين الاسلاميين وجود نصوص قرآنية ونبوية حددت احكام السياسة ونظمها فهو زعم لا يوجد في القرآن والسنة ما يشهد له كما انه زعم غريب اذا نحن عرضناه على تراث الائمة والمفكرين المسلمين في هذا المجال . .

فشيخ الاسلام ابن تيمية (٦٦١ - ٧٢٨هـ ١٢٦٣ - ١٣٢٨م) يقرر ان السياسة الشرعية مرجعها في القرآن آية طلبت من الأمراء اداء الامانات والحكم بالعدل ، وآية طلبت من الرعية الطاعة لأولي الامر اذا هم ادوا الامانات وحكموهم بالعدل[٢١] . . اما تفاصيل نظم الحكم وعلوم السياسة ونظرياتها في الاسلام فهي تراث وثمرات اجتهاد بشري محكوم بقواعد الدين العامة ومثله العليا . . .

ونحن نعتقد ان صمت القرآن الكريم عن تفصيل الحكم والسياسة للمسلمين هو موقف الهي مقصود لانه هو الموقف الذي التزمه الدين الحنيف حيال كل ما عهد به الى عقل الانسان وارتبط بالامور المتطورة المتغيرة التي تستعصي نظرياتها على الثبات . . والا فهل يعقل عاقل ان يضن القرآن على نظم الحكم بآيات تساوي ما جاء به عن بقرة بني اسرائيل ؟! . . انها حكمة الحكيم العليم . .

واذا كان لابد من المزيد من النصوص والاستشهادات على هذه القضية المهمة ، فاننا نذكر مثلا قول الدكتور عبد الرزاق السنهوري الذي يحدد فيه علاقة الشريعة الاسلامية بالكتاب والسنة اي بالدين ونصيب « الوضع البشري » الذي جاء ثمرة لفقه الفقهاء في هذه الشريعة . . يقول الدكتور السنهوري : ان الكتاب والسنة هما المصادر العليا للفقه الاسلامي . وقد قصدت بالمصادر العليا ان اقول : انها مصادر تنطوي في كثير من الاحيان ، على

مبادىء عامة ترسم للفقه اتجاهاته ولكنها ليست هي الفقه ذاته فالفقه الاسلامي هـو من عمل الفقهـاء صنعوه كـما صنع فقهـاء الرومـان وقضـاتـه القـانـون المدني(٢٢) . .

فهذا التحديد الدقيق لمكان الشريعة من الدين ولمكان الفقه الاسلامي من الشريعة الاسلامية هو الذي عبر عنه ، كما سبق واشرنا ، المفكرون المسلمون الذين بحثوا مكان السياسة والامامة ونظام الحكم من الدين فقالوا : انها مستخرجة من « الرأي » وليس من الكتاب والسنة .

وقبل الدكتور السنهوري قال امام مجتهدي الاسلام في العصر الحديث الشيخ محمد عبده (١٨٤٩ - ١٩٠٥م) : « ان تفصيل طرق المعيشة والحذق في وجوه الكسب . . مما لا دخل للرسالات السماوية فيه ، الا من وجهة العظة العامة والارشاد الى الاعتدال فيه وتقرير ان شرط ذلك كله ان لا يحدث ريبا في الاعتقاد بان للكون الها . . وان لا ينال احدا من الناس بشر . . ان الدين لم يعلم المسلمين التجارة ولا الصناعة ولا تفصيل سياسة الملك ولا طرق المعيشة في البيت ، ولكنه اوجب عليهم السعي الى ما يقيمون به حياتهم الشخصية والاجتماعية ، واوجب عليهم ان يحسنوا فيه واباح لهم الملك وفرض عليهم ان يحسنوا المملكة . . وكل ما يمكن للانسان ان يصل اليه بنفسه لا يطالب الانبياء ببيانه ومطالبتهم به جهل بوظيفتهم واهمال للمواهب والقوى التي وهبه الله اياها ليصل بها الى ذلك وقد ارشدنا نبينا صلى الله عليه وسلم الى وجوب استقلالنا دونه في مسائل دنيانا . . اذ قال (ما كان من امر دينكم فاليّ ، وما كان من امر دنياكم فانتم اعلم به) . . »(٢٣)

الاستفادة بالتجارب الانسانية

ونحن اذا لم نؤمن باحترام الفكر الاسلامي لارادة الانسان وارادة الامة في بناء نظمها السياسية والاجتماعية والاقتصادية والادارية ، وضعنا انفسنا في صدام تام وحاد مع كل وقائع وحقائق تاريخنا الاسلامي وتشريعاته في هذه الميادين . فالاسلام يدعو المؤمنين به الى تأسيس نظمهم الدنيوية بارادتهم الحرة ووفق مصلحتهم الاجتماعية ، وفي اطار مبادئه العامة ووصاياه الكلية ، كما

يدعوهم الى النظر والاستفادة من كل التجارب الانسانية سواء منها تجارب السابقين الاولين او اللاحقين المتأخرين ، وبصرف النظر عن عقائد اصحاب هذه التجارب الانسانية ومذاهبهم . . وتاريخ الفكر والتشريع الاسلامي اعظم شاهد في هذا المقام .

فعمر بن الخطاب استفاد واسترشد في « تدوين الدواوين » بتجارب الفرس المجوس والروم النصارى في هذا المجال(٢٤) . . ولقد عارضه نفر من الصحابة في ادخال هذه النظم المستحدثة التي لم يسبق لها في الاسلام نظير ، ومن الذين عارضوا : عثمان بن عفان وعلي بن ابي طالب . . فالذي قرر ونفذ هنا : ارادة انسانية اجتهدت لمصلحة الامة ، في مواجهة ارادة انسانية كانت ترى الابقاء على النظام القديم . .

* وبعد الفتوحات الكبرى لمجتمعات الزراعة باحواض الانهار ، اراد عمر بن الخطاب وضع نظام ضريبي للارض الزراعية ، فوقع الاختيار على النظام الذي وضعه كسرى انو شروان (٥٧٩م) وهو النظام القائم على اساس « المساحة » وظل المسلمون على هذا النظام حتى العصر العباسي ، عندما استبدلوه بنظام يقوم على المقاسمة . . بل لقد ظل اسم هذا النظام في فكرنا وتراثنا شاهدا على ذلك ، فكانوا يسمونه : (وضائع كسرى)، اي التشريع الذي وضعه كسرى وتواضع الناس عليه في عصره ، ! . . ولم يقل احد لعمر بن الخطاب ، يومئذ انك تستلهم مصادر غير اسلامية ، و « تضع » بارادتك البشرية نظما ، على حين ان الاسلام له في السياسة والاجتماع والاقتصاد والادارة نظم حتمية لا مجال فيها لارادة الانسان ؟! . . لم يقل احد ذلك . . لان اغلب ما لدينا من تراث اسلامي في السياسة والاقتصاد والادارة ان هو الا ثمرة للاجتهاد الذي ابدعه المسلمون مسترشدين في ذلك بالعقل ، كي يحققوا المصلحة الدنيوية والاخروية ، اللتين كانتا لا تزالان غاية الدين والرسل والرسالات .

ان الذين يقولون باشتمال الوحي على نظام سياسي واجتماعي واقتصادي واداري للمجتمعات المسلمة وانه ما علينا الا التنفيذ والتطبيق لهذا النظام الحتمي ، الذي لادخل فيه لارادة الانسان ووضعه وسيصلون شاءوا ام لم يشاءوا ، الى تعطيل ملكة العقل في الابداع وهم بذلك يتنازلون عن ميزة مهمة

تميز بها الاسلام وامتاز عن الرسالات التي سبقته . . وكما يقول الامام محمد عبده فان هذا الرأي الغريب هو ما انتهت اليه السلطة الكهنوتية الكاثوليكية الاوروبية في العصور الوسطى عندما زعمت « ان الكتب المقدسة حاوية كل ما يحتاج اليه البشر في المعاش والمعاد . . [٢٥] . . على حين علمنا الاسلام ان « هداية الدين هي الهداية الرابعة التي وهبها الله الانسان بعد هداية الحواس والوجدان والعقل . . [٢٦] . . فجميعها هدايات الهية ، وهبها الله للانسان كي يستعين بها جميعا ويصل بواسطتها الى الغاية التي استهدفها الدين والانبياء والرسل والمصلحون والثوار ، الا وهي سعادة الانسان ، وتحقيق الرشد والاستقلالية اللائقين بخلافته عن المولى سبحانه في عمارة الكون وزخرفة الكوكب الذي يعيش فيه .

ان التدين لايعني التنكر للعقل وبراهينه ، والايمان بالنصوص المروية لا يتجافى مع مراعاة المصالح المتجددة والمتطورة بتجدد الحياة وتطورها . . والاسلام كما نفهمه ونؤمن به يدعونا للنظر في سنن الله وقوانينه الكونية التي تحكم تطور الحياة والمجتمعات ، ويطلب منا الاستفادة في امور دنيانا بكل ثمار العقل الانساني ، سواء في الاقتصاد او الاجتماع او السياسة او الادارة . . الخ . . . الخ . . بصرف النظر عن عقائد اصحاب هذه النظريات والوانهم واجناسهم واوطانهم وبصرف النظر عن العصر الذي ظهرت فيه هذه النظريات والعلوم . .

ومرة اخرى نقف ، ونطلب من الداعين الى نظام حتمي ، لا مجال فيه لارادة الانسان ، بعد تغليفه بغلاف ديني ، ان يقفوا معنا امام هذه الكلمة الجامعة من كلمات الشيخ محمد عبده التي يقول فيها « لو رزق الله المسلمين حاكما يعرف دينه ، ويأخذهم باحكامه ، لرايتهم قد نهضوا ، والقرآن في احدى اليدين ، وما قرر الاولون وما اكتشف الاخرون في اليد الاخرى ، ذلك لاخرتهم وهذا لدنياهم وساروا يزاحمون الاوروبيين فيزحمونهم ! »[٢٧]

ان في ديننا وتراثنا طاقات خلاقة مازالت وستظل صالحة للعطاء في معركة امتنا من اجل الحرية والتقدم والوحدة وليس في تراث الاسلام السياسي ما يتعارض مع المبدأ الذي تؤمن به جماهير امتنا وتناضل في سبيل سيادته ، وهو ان تكون هذه الامة ، دائما وابدا مصدر السلطات .



---

(١) ابو الاعلى المودودي (المصطلحات الاربعة في القرآن) ص ١٢٥ (والنقل عن مجلة المسلم المعاصر) ص ١٥٧ ، ١٥٨ ، عدد ٤ سنة ١٩٧٥م .

(٢) ال عمران ٧٩

(٣) مريم : ١٢

(٤) الانبياء : ٧٤

(٥) الشعراء : ٢١

(٦) النساء : ٥٩

(٧) الشورى ٣٨

(٨) ال عمران : ١٥٩

(٩) الشهرستاني (نهاية الاقدام) ص ٤٧٩ تحقيق الفرد جيوم . طبعة بدون تاريخ وبدون مكان للطبع .

(١٠) المسعودي (مروج الذهب ج١ ص ٥١٨ طبعة القاهرة سنة ١٩٦٨م ،

(١١) نهاية الاقدام ص ٤٧٩

(١٢) طبقات ابن سعد ج ٣ ق ١ ص ١٩٧

(١٣) المصدر السابق ج٣ ق ١ ص ٢٥٠

(١٤) نهج البلاغة ص ٣٥٢ طبعة دار الشعب ، القاهرة .

(١٥) د . احمد صبحي (نظرية الامامة لدى الشيعة الاثنى عشرية) ص ٣٢٦ طبعة القاهرة سنة ١٩٦٩م .

(١٦) المرجع السابق ص ٣٢٠

(١٧) (المستصفي من علم الاصول) ج١ ص٨ ، ٨٣ طبعة القاهرة الأولى سنة ١٣٢٢هـ .

(١٨) المصدر السابق ج١ ص٤، ٥

(١٩) هاني احمد الدرديري (التشريع بين الفكرين الاسلامي والدستوري) ص١٦ ـ ١٨ طبعة القاهرة ١٩٧٦م

(٢٠) (نهج البلاغة) ص ٦٥ .

(٢١) السياسة الشرعية ص ١٥ ، ١٦ طبعة القاهرة سنة ١٩٧١م .

(٢٢) مجلة (المسلم المعاصر) ص ٧٨ عدد ابريل سنة ١٩٧٥م (وهي تنقل عن كتابه (مصادر الحق) منشورات معهد البحوث والدراسات العربية .

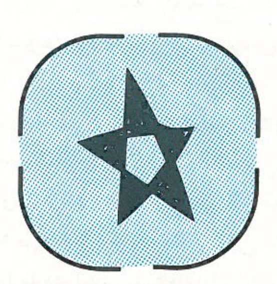
(٢٣) الاعمال الكاملة للامام محمد عبده ج ٣ ص ٤٢٠ ، ٤٢٦ ، دراسة وتحقيق دكتور محمد عماره طبعة بيروت سنة ١٩٧٢ م

(٢٤) (طبقات ابن سعد) ج٣ ق١ ص ٢١٢ ، ٢١٦

(٢٥) الاعمال الكاملة للامام محمد عبده ج٣ ص ٢٩٣ .

(٢٦) المصدر السابق . ج٥ ص١٨٢ .

(٢٧) المصدر السابق ج٣ ص ٢٥١ ، ٢٥٢ .



الإسلام وحرية الإرادة

د . حسين فوزي النجار

● ينسب بعض المستشرقين الاجانب الى الاسلام أنه يدعو الى التواكل ، وانعدام حرية الارادة الانسانية ، وبالتالي يفقد الانسان الحافز ليعمل ويجتهد وهذا مايعالجه هذا المقال .

● كان القضاء والقدر أكثر ما ألم بالعقل الانساني وشغل به تفكيره منذ القدم . حين وقف الانسان عاجزا أمام سنة الكون والقانون الذي يحكمه منذ الازل .

ولا يختلف فكر الانسان المعاصر وهو يخترق أجواء الفضاء ، ويصل الى القمر ، عن فكر هذا الانسان الاول في كهفه ، وفق بيئة صعيده المحدودة في نظرته الى السماء ، والى الظواهر الطبيعية العارضة ، من برق ورعد وزلازل وبراكين وانواء ورياح ، يقف دونها عاجزا ، فان سيطرة الانسان المعاصر على بعض الظواهر الطبيعية ـ وان ادت به الى معرفة اوسع ـ قد وضعته امام ظواهر اضخم . لم تخطر على بال الانسان الاول او انسان الجيل الماضي ، واصبح امام هذه الظواهر التي قادته اليها معرفته الجديدة اكثر عجزا مما كان اجداده ، وان

العربي العدد ٢٣١ اغسطس ـ آب ١٩٧٦م .

كان عجزه من قبيل الانبهار والتطلع واليقين اكثر مما هو عجز استسلام وخوف وشك ، فالانسان القديم في عالمه القاصر ، وفي تصوراته المبهمة عن هذا الكون . لم يدرك قط ان ارضه جزء من كل هذه المجموعة الشمسية ، وانها بالنسبة اليها لاتزيد على حجم رأس دبوس يلقى على سطح الكرة الارضية ، ولم يدرك ان المجموعة الشمسية التي تنتمي اليها ارضه ماهي الا واحدة من ملايين المجموعات الشمسية في بحر المجرة ، وان هناك ملايين المجرات الاخرى تسبح فيها ملايين اخرى من المجموعات الشمسية .

اي كون هائل هذا الكون واي صانع قادر عليه ! ؟

وهذه هي المعرفة التي تقود الى الايمان ، الايمان بما في هذا الكون من خلق عظيم ، ومن اعجاز يفوق قدرة العقل الانساني على الخيال والتصور .

وطالما ظلت معرفة الانسان قاصرة عن ادراك القانون الكلي الذي يحكم الاشياء والظواهر ، ستبقى قاصرة دون ادراك ظواهر بعينها كالموت والحياة ، وسيبقى عجز الانسان عن ادراك العلة خارج طاقته وقدرته العقلية ، ولامندوحة له الا ان يردها الى ارادة اعلى واعظم ، وهي ماعبر الانسان عنها بالقدر ، وما نعبر عنه بالارادة الالهية التي تحكم كل شيء بقدر ، وبسنة لاتبديل لها ولاتحويل وهي السنة الالهية التي تحكم العلل والمعلومات ، وتحكم الحاضر والغائب . وفقا لقانون ثابت ، هو ماندعوه في تعبيرنا القاصر بالقانون الطبيعي .

التأمل والنظر

فالقدرية قديمة قدم الانسان وقدم الفكر الانساني ، وربما كانت اعرق في الوجود ـ كما يقول الدكتور محمد حسين هيكل[1] ـ من كل فكرة اخرى ، فلما جاءت الاديان عرضت لها كظاهرة ، وردتها الى الارادة الالهية التي تحكم القانون الكلي للاشياء والظواهر ، وتركت للانسان حرية التفكير فيها ، ليدرك من سرها مايستطيع عقله ان يدرك ، ويفسرها بقدر ما يجد لها من تفسير ، فقد خلق الله هذا الكون العظيم بما حوى ، ولكنه تعالى لم يقل لنا كيف خلقه ، وعلى اي صورة صوره ، الا ما نرى منه ، وترك لنا ان نتأمل وننظر ونبحث ونصل الى

بعض هذا القانون ـ ولن نصل الى كله ـ لتكون لنا بعض السيطرة عليه ، على قدر ما تصل اليه قدرتنا .

وهذا الانسان الذي كرمه الله وفضله على سائر خلقه ترك الله له المقدرة على تسخيرها ، وكيف يسخرها بما وهب له من عقل وتفكير ميزه بهما على بقية خلقه « ليرى من قدرة الله على ضوء المعرفة ما لا يراه في دياجير الجهل » .

وكانت هذه القدرية اهم مباحث الفلسفة الاسلامية ، فكانت فكرة الجبر والاختيار كما عرفها الفكر الاسلامي ، او حرية الارادة الانسانية كما عرفها الفكر الغربي ، واختلفت فيها الفلسفة الغربية ، كما اختلف الاسلاميون حول الجبر والاختيار ، وان كانت جميعا مما يدور في فلك واحد ، وهو مدى مسئولية الانسان عن اعماله ، وهل يملك من الحرية ما يحقق مبتغاه ، وما ينشده في سعيه ؟ ام انه مسير في حياته لا يملك لها تحويلا الا ما تريده المشيئة الالهية له .

الجبر والاختيار

وبقدر ما أصبحت الحرية في الفلسفة الغربية واقعا اجتماعيا لا صلة له بالارادة الالهية فيردها « هيبوليت تين » الى البيئة فيقول « ان الانسان ثمرة بيئته » كما يردها « ماركس » الى حتمية الاوضاع الاقتصادية ، فاذا تحرر الانسان منها ولم يعد لها سلطان عليه حقق حريته في صورتها العليا ، وهي حريته الاجتماعية ، بينما يردها « سارتر » الى قدرة الانسان في السيطرة على ماهيته وتحقيق ما ينشده لذاته ، بقدر ما ظلت الحرية في الاسلام رهينة العقل الواعي المفكر الذي يختار ، وان اختلف الاسلاميون في مدى هذا الاختيار وحدوده ، فكانت بين القدرية وحرية الاختيار مذاهب شتى . فبينما نرى الرسول صلى الله عليه وسلم ينهي جماعة من الصحابة عن الحديث في القدر ويقول : « بهذا ضلت الامم قبلكم[2] » ويقيم عمر الحد على سارق لانه قال انه سرق بقضاء الله[3] ، نرى الامويين ، تأييدا لحكمهم ، وانه قدر مقدور ، يؤيدون فكرة الجبر ويشجعون القول به . ثم نراه بعد ذلك أثرا من آثار التقى الزائد ، او موقفا رأى فيه المتزيدون وقاء من جدل ينال من صلابة العقيدة لديهم .

الا ان المقصود الفكري من تفسير آيات القرآن التي تناولت مسئولية الانسان عن افعاله هي التي أدت الى اختلاف المسلمين حول الجبر والاختيار ، فمن الآيات ما يؤكد حرية الانسان ومسئوليته عن افعاله كقوله تعالى :

« فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله » البقرة/ ٧٩

وقوله : « ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بانفسهم » الرعد/ ١١

ومنها ما يؤكد ان افعال الانسان قدر مقدور عليه لا يد له فيها ، كقوله تعالى :

« وخلق كل شيء فقدَّره تقديرا » الفرقان/ ٢

وقوله : « انا كل شيء خلقناه بقدر ، وما امرنا الا واحدة كلمح بالبصر » القمر/ ٤٩ ـ ٥٠

فلنترك جانب الاقدمين قليلا لنرى الى اي مدى نعي فكرة الجبر والاختيار في العقيدة الاسلامية والى اي حد تقف حرية الارادة الانسانية امام المشيئة الالهية .

ماهي الحدود الفاصلة

فاذا كان ما يصيب الانسان في حياته مما يخضع للمشيئة الالهية فلماذا كان الثواب والعقاب ولماذا كانت مسئولية الانسان عن اعماله فلا تزر وازرة وزر اخرى ؟

واذا كان العقاب والثواب من مقررات الاسلام الاصلية فان ذلك يقرر بالتالي مسئولية الانسان عن اعماله وهي مسئولية تقوم على ما يملك من حريته في الفكر والعمل ، فالنوايا كالافعال مما يخضع للعقاب والثواب .

فما هي الحدود الفاصلة بين المشيئة الالهية وحرية الارادة الانسانية ؟

لعلنا نرى تلك الحدود الفاصلة فيما هو كلي عام وما هو جزئي خاص ، فاذا كانت سنة الله في خلقه وهي سنة لا تبديل لها ولا تحويل منذ خلق السموات والارض « ان ربكم الله الذي خلق السموات والارض في ستة ايام ثم استوى على العرش » الاعراف ٥٤ .

فهذا هو القانون الالهي سنة الله التي لن تجد لها تبديلا ولا تحويلا الذي يحكم الكون ويسيره من الازل الى الابد ، والذي يحكم في نطاقه الكوني مسيرة الانسان ، فما هو من سنة الكون الكلية ، كالخلق والحياة والموت فردها الى هذا القانون الكلي الذي يحكمها . وما هو من الجزئيات كتسخير الحيوان لخدمة الانسان ، واختراع الآلة ، والسيطرة على بعض الظواهر بالكشف عن القانون الذي يحكمها ، فامره الى الارادة الانسانية ، فالكهرباء طاقة لا ندرك حقيقتها ، ولكننا ندرك كيف نذللها ، وكيف نسخرها لمنفعتنا بالكشف عن القوانين التي تحكمها وتسيطر عليها . والخلق والحياة والموت هي الاخرى من الارادة الالهية الا انها بدورها مما يخضع لهذا القانون الكلي :

« انا كل شيء خلقناه بقدر ، وما امرنا الا واحدة كلمح بالبصر » القمر/ ٤٩ ـ ٥٠

« واخرى لم تقدروا عليها قد احاط الله بها وكان الله على كل شيء قديرا » الفتح/ ٢١

الكون تحكمه قوانين أزلية ثابتة

فهذا الكون اللانهائي الذي لا تدرك الابصار او الفكر مداه ، تحكمه قوانين ازلية ثابتة . نعجز بعقلنا القاصر أيضا عن تصور مدى دقتها ، والحياة والموت مما يخضعان لهذا القانون الكلي في وجودهما اللامتناهي ، ولكن الحياة لا تخصب ما لم تتوافر لها مقومات معينة ، والموت وان كان ازليا وقدرا مكتوبا (فلكل اجل كتاب) (فاذا جاء اجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون) ، له اسبابه من مرض ونوازل عارضة مما يدخل في ارادة الانسان ولا يخضع لهواه ، حتى قتل النفس وان بدا عملا اراديا فانه لا يتم دون سبب يحكمه او يدعو اليه من ارادة الانسان ، ولكن الدواعي التي ادت اليها ليست من قبيل الارادة الحرة وانما حكمتها عوامل عديدة لم يكن منها فكاك او خلاص ما لم يتغلب الانسان عليها بما اوتي من علم او ارادة غالبة .

وقد تبدو حرية الاختيار فيما يتصل بحياة الانسان وسلوكه واتجاهاته مما يخضع للارادة الذاتية خضوعا تاما ، ولكن الواقع يخالف ذلك ، فان عدة ارادات هي التي نعبر عنها بارادة المجموع ، اذ الارادة العامة مما يؤثر فيها وتتأثر بها فتتغير تبعا لها اتجاهات الانسان وسلوكه ، فهذه الارادة التي نملكها ليست ارادة مطلقة ، وانما هي ارادة نسبية بقدر ما يتدخل فيها من ارادات الآخرين والظروف الاجتماعية التي تتصل بها وتؤثر فيها ، فما من جيل - مثلا - الا ويتحمل غير مختار آثار جيله السابق ، كما يحتمل غير مريد شرور جيله .

ثم ان الارادة ذاتها لا تعمل حرة تمام الحرية من اي قيد نفسي او فسيولوجي او بيئي ، ولعلنا نجد في هذا تفسيرا لانحراف بعض الاحداث التاريخية عن مسارها العام ، فنذهب مذاهب شتى في تفسير اسباب ذلك فيقال : « ان الانسان منفذ غير واع لارادة الله » . ويقال : « اليد الخفية » كما يرى « آدم سمث » . و « مكر العقل » كما يرى « هيجل » في تفسير القوى التي تدفع الانسان للعمل من اجلها ولاجل غاياتها ، وان ظن انه يعبر عن ذاته ويحقق رغباته ، واخذ « تولستوى » بما يشبه هذا التعليل حين قرر ان الانسان يعيش واعيا لنفسه ولكنه اداة لا واعية لتحقيق الغايات التاريخية . وكل هذا هراء ، فالاحداث لا تحكمها ارادة الانسان او رغبة الجماعات فحسب ، وانما يؤثر فيها ماضي الانسان ، كما تتأثر بعديد من العوامل المتنافرة والمتسقة التي تتحكم في طبيعة المجتمع الانساني ، والتي تفوق ارادة الانسان وان كانت من صنعه ومن نتاج تفكيره ، فالانسان لا يعيش في عزلة مطلقة ينمحي فيها الفعل في زمن يتأثر بظروفه وفي مكان يتحكم في ارادته .

الا أن هذا النصيب النسبي من حرية الارادة هو ماتقع في دائرته الاعمال الارادية للانسان ، وفيها تتحدد مسئوليته ، ويتحدد سعيه في الحياة ، وهو على ضآلته حافز قوي لعمل الانسان لتحقيق ذاته والتعبير عن ارادته ، وهو الحد الفاصل بين الجبر والاختيار في الاسلام ، وبين القدرية وحرية الارادة الانسانية .

فقد دعا الاسلام - كما يقول « سيد أمير علي » - الى الايمان بقوة سماوية عليا تهيمن على الكون . وقرن ذلك الايمان ببث روح الاعتماد على النفس وتقرير مسئولية الانسان عن عمله تأسيسا على حرية الارادة الانسانية . ومن مزايا القرآن الكريم انه يجمع بصورة غريبة ، بنودا متناقضة بادىء الامر بين وجود ارادة الهية تهيمن على جميع الكائنات وتؤثر في الناس وفي افكارهم تأثيرا مباشرا ، وبين تأكيد حرية الارادة الانسانية وحرية التفكير . وليست هذه الظاهرة مقصورة على القرآن وحده ، فهي في الانجيل ايضا ، الا ان مسئولية الانسان عن عمله جلية واضحة في القرآن ، وان تبادر هذا السؤال الى الذهن : كيف يمكن ان نوفق بين هذين الامرين ؟ اذ يبدو لاول وهلة ان ثمة تناقضا بين محاسبة الانسان على عمله ، وهي قوام الاخلاق الاسلامية ، ووجود قوة قادرة تسيطر على اعماله ، ولكن الفكرة الاسلامية لا تفرق بين الايمان بوجود اله حي قادر والايمان بقدرة الانسان على الارتقاء والكمال ، وهو ما يكشف لنا عن هذه الحيرة ويفسرها[4] .

وهذا التناقض الظاهري هو ما حمل بعض المستشرقين على نعت الاسلام بانه دين قدري وان الجبرية قاعدة من قواعد العقيدة الاسلامية ، فاذا كانت المعصية قدرا مقدورا فلم حساب الله عليها ؟

وهذا التفسير هو فرق مابين الفكر الاسلامي والفكر الغربي في ادراك هذا التناقض وفهمه . فبينما يرى الغربيون الارادة الحرة مقيدة بارادات الآخرين وبالتنظيم الاجتماعي للافراد او بالخوف والشعور بالمسئولية - كما سبق ان اشرنا - يذهب الفكر الاسلامي الى تقرير المسئولية تبعا للارادة والادراك الكامل لعلاقة الانسان بالكون ثم علاقته بالآخرين . ويرى « سيد أمير علي » ان كلمة « قدر » تعني القانون الطبيعي او ما نعنيه بالقانون الكلي الذي يحكم الخلق جميعا ، وهو من آياته تعالى التي تعبر عن هيمنته جل شأنه على كافة خلقه .

« وان من شيء الا عندنا خزائنه وما ننزله الا بقدر معلوم » الحجر/ ٢١

فالانسان مسيطر مطلق في نطاق وجوده المحدود . اذ زانه الله بالعقل ، وهو جزء من وجوده الأعظم خلقه على صورته « فالانسان - كما يقول العقاد -

روح علوي سقط الى الارض من السماء ليحمل مسئولية اعماله ووزر نفسه » .

قدرة الله

فالله خالق كل شيء وعنده مفاتح الغيب ، الحي القيوم ، الكبير المتعال ، لا تدركه الابصار وهو يدرك الابصار يسبح له من في السموات والارض ، يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير . وهو بكل خلق عليم ، وسع كل شيء علما ، كل شيء هالك الا وجهه .

فاذا ادركنا هذه القدرة ادراك بصير ، ادركنا كيف خلق الله الكون بنظام ثابت وسنة لاتتبدل وانه جعل لكل شيء سببا ، فالحياة حقيقة هذا الوجود كله ، ولكنها لا تنشأ في فراغ . وانما تخضع لقانون ازلي وترقى وتتطور وتتكيف وفقا لهذا القانون ، فبدون عملية التلقيح في النبات لا يزهر ولا يثمر ، وبغير اجتماع الحيوان المنوي للذكر الى بويضة الانثى في الرحم لا يتم الحمل ولا يتكون هذا الجنين الذي يحمل صفات الابوين ، فتنحدر منه الى ابنائه وسلالته ، كما انحدرت اليه صفات اجداده ، وكلما تباعدت الصفات بتباعد القرابة بين الزوجين ضعفت الخصائص المشتركة بينهما . لذلك كان زواج الاقارب مكروها وكان الزواج من الادنى في القرابة كالاخت والعمة والخالة وابنة الاخ وابنة الاخت محرما .

والموت كالحياة ، حقيقة ازلية ، فكل شيء هالك الا وجهه ، وهو قدر على كل حي . فقد جعل الله لكل شيء اجلا لا ريب ، حتى السموات والارض لها أجلها المحدد في علم الغيب ، ولكل امة اجلها ، وقد خلط المفسرون بين الموت قدرا مقدورا على كل حي وبين تحديد الاجل ، فالاجل محدود بقدرة الحي على البقاء والاستمرار ، فاذا فقد القدرة جاءه الموت ، وما من حي الا ويفقد القدرة على البقاء والاستمرار في يوم من الايام ، فالمرض حين يصيب جسد الحي ولا يقدر على رده ينزل به الموت ، والجندي حين تصيبه رصاصة قاتلة تميته ، وحين يدهم القطار انسانا او دابة يقتلها ، وحين تهوي الطائرة محترقة يقضى على من فيها ، فاذا نجا ناج فلسبب خرج به عن الخضوع للاسباب التي ادت

بالآخرين الى الموت ، وحينذاك نقول انه نجا بمعجزة . وقد اثبت العلم الحديث ان الشمس تذوي وتذبل يوما بعد الآخر . ككل الكائنات في هذا الوجود ، ولكن على اي مدى تخفت الى الابد ؟ هذا ما يعلمه الله وان اجتهد العلم في تقديره وقياسه بالسنين والارقام التي لا تدرك الحقيقة ، مادام العلم قاصرا عن الشمول والادراك الكامل ، وهما لله وحده ، فمهما يبلغ علم الانسان فما اوتي من العلم الا قليلا ، فالحياة سائرة الى زوال ولكنها خاضعة لقانون ازلي يحكمها كما يحكم الموت والفناء ، وهذا القانون الازلي هو من صنع القدرة الالهية ، او هو جماع الخلق كله ، وهو ما نسميه بالقدر ، او القانون الطبيعي ، كما يعنيه « سيد امير علي » . وحين نغفل عنه نصفه بالجبرية ، وما عدا ذلك مما يتعلق بمسيرة الانسان وعمله على الارض فمن صنع الانسان ، سواء كان منه وحده ام شاركه فيه غيره ، فارادته حينئذ تتأثر بارادة غيره فردا او جماعة ، فليست هناك ارادة حرة مطلقة للانسان مالم يتحرر من مؤثرات الماضي والحاضر والبيئة والوراثة ، ولن يتحرر منها ، فهي قيد حياته ووجوده ، تتحدد بها مسئوليته ، ويحاسب على ارادته عنها بقدر ما تتحكم فيه وتحكمه . فقيل : الضرورات تبيح المظورات ، وفي قوله تعالى : « فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا اثم عليه ان الله غفور رحيم » البقرة ١٧٣

كما يسقط الحد ويمتنع العقاب عن فاقد الارادة وفاقد القدرة بدنية او عقلية .

فالارادة الالهية حرة مطلقة منزهة غير باغية ، فهي حكمة الوجود وان غابت عنا اسبابها ، فاذا ادركناها عقلناها وقل ما ندركه منها .

في الكون قوة اسمى

« فغاية مايدركه المرء ـ كما يقول الامام محمد عبده ـ ان في الكون قوة اسمى من ان تحيط بها قدرته ، وان وراء تدبيره سلطانا لاتصل اليه سلطته ، فاذا كان قد هداه البرهان وتقديم الدليل الى ان حوادث الكون بأسره مستندة الى واجب وجود واحد يعرفه على مقتضى علمه وارادته ، خشع وخضع ورد الامر

اليه فيما بقى ، ولكن مع ذلك لاينسى نصيبه فيما بقى . فالمؤمن كمايشهد بالدليل والعيان يرى ان قدرة مكون الكائنات اسمى من قوة الممكنات ، ويشهد بالبداهة انه في اعماله الاختيارية عقلية كانت ام جسمانية ، قائم بتصريف ماوهب الله له من المدارك والقوى فيما خلقت لاجله » .

ويقرر الامام في ذلك « امرين عظيمين » يراهما « ركني السعادة وقوام الاعمال البشرية »

« الاول : ان العبد يكسب بارادته وقدرته ماهو وسيلة لسعادته ، والثاني : ان قدرة الله هي مرجع لجميع الكائنات ، وان من آثارها مايحول بين العبد وبين انفاذ مايريده ، وان لاشيء سوى الله يمكن له ان يمد العبد بالمعونة فيما لم يبلغه كسبه » . فالانسان فيما يرى الامام ، حر في ارادته ومسيطر مطلق - في اطار وجوده المحدود - على اعماله مسئول عنها ومحاسب عليها .

« ومن يكسب اثما فانما يكسبه على نفسه ، وكان الله عليما حكيما . ومن يكسب خطيئة او اثما يرم به بريئا فقد احتمل بهتانا واثما مبينا » النساء/ ١١١ -١١٢

من قدر الله الى قدر الله

وفيما يروى عن الفاروق عمر ما يدنينا من هذه الحقيقة ، ومايفسر ايضا اختلاف المسلمين منذ البداية حول القضاء والقدر . فقد روع الناس الطاعون في الشام واخذ يفتك بهم فتكا شديدا ، وكان عمر في طريقه اليها ، فلقيه عند سرغ على مقربة من تبوك بعض امراء الجند وفيهم ابو عبيدة بن الجراح . وعلم منهم انباء الطاعون وفتكه بالناس ، فاستشار من معه في المسير او العودة . واختلف القوم فيما بينهم فمن قائل : خرجت لوجه تريد فيه الله وما عنده . ولانرى ان يصدك عنه بلاء عرض لك ، وقائل : انه لبلاء وفناء مانرى ان تقدم عليه . فجمع اليه مهاجرة الفتح من قريش واستشارهم ، فاجمعوا على العودة ، ونادى فيهم عمر بعد ان صلوا الصبح قائلا : اني راجع فارجعوا ، ولم يكن ابو عبيدة ممن حضر مشاورات عمر ، فلما عرف ذلك قال له : افرار من قدر الله يا عمر ؟ ونظر اليه عمر عاتبا وهو يقول : لو غيرك يقول هذا يا با عبيدة ! !

نعم : فرار من قدر الله الى قدر الله . ثم اردف بعد اطراقة وقال : ارأيت لو ان رجلا هبط واديا له عدوتان احداهما خصبة والاخرى جدبة ، اليس يرعى من رعى الجدبة بقدر الله ، ويرعى من رعى الخصبة بقدر الله .

« نعم . فرار من قدر الله الى قدر الله » .

اي بيان اروع من هذا ! ؟ فان ماعناه عمر هو الفرار من قدر مدرك الى قدر غير مدرك ، يتوقى في الاول مايعرف انه ملاق حقا ، وان هذا الذي يلقاه قد يعرضه للهلاك حتما ، فعليه الايلقى بنفسه اليه ، كمن يتوقى ضربة السيف بدرعه او بحركة من جسمه ، لانه يعرف انها ان اصابته فستقتله ، وذلك معنى قوله تعالى : « ولا تلقوا بأيديكم الى التهلكة » .

وفي الثاني لايستطيع ان يتوقى مالا يعلم وما يخرج عن ارادته . فإذا عضته حية لم يرها ليتقيها او يقتلها ، فان اذى الحية قد ناله غصبا عنه ، ومن غير ان يكون لارادته دخل فيه ، وعليه ان يلجأ الى الترياق لعلاجها ، فاذا غلبه السم فقتله فتلك ارادة الله ممثلة في قانونه الازلي الذي يحكم الاشياء والذي جعل سم الحية قاتلا ، فمن يصبه يقتله ، ومن لحقه بالعلاج بريء ، وقد لا يصيب العلاج فيكون هلاكه ، وهذا هو القدر الذي لا منجاة منه ، لان الانسان لايعرف كيف يتقيه . فاذا عرف اصبح مما تحكمه ارادته . وحق عليه ان يلوذ بارادته ليقي نفسه السوء ، فمنذ سنوات كانت حمى التيفوئيد تميت من تصيبه في الغالب ، فلما عرف الانسان كيف يقي نفسه منها لم تعد بذات خطر ، وأصبحت مما تحكمها ارادته ، والخناق او الدفتيريا ومرض السكر وغيرها من الاوبئة هي الاخرى كالتيفوئيد ، وقد خلق الله الميكروب ، وخلق ايضا ما يتقيه الانسان به ، وعلى الانسان ان يسعى-وقد زانه الله بالعقل - ليقي نفسه من غوائل محيطه .

فالارادة الانسانية بعض من الارادة الالهية ، وان كانت لاتبلغها ولن تبلغها ابدا ، ولكنها تبلغ منها ماتستطيع به السيطرة على مايتصل بالانسان في محيطه المحدود من هذا الكون الهائل العظيم الذي لا تدركه الابصار ولا تصل الى صورته العقول مهما يمتد بها الفكر او الخيال . فحيث تتناهى الحرية عند العبد لا تتناهى عند الخالق .

القضاء ما اتصل بسنة الكون

فالقضاء في العقيدة الاسلامية هو ما اتصل بسنة الكون منذ خلق الله الكون ، وهو قانون ازلي ثابت لايتغير ، يؤثر في الانسان ويتأثر به دون ان يكون له دخل فيها وهب الله له من عقل يسوس به امره ، وهي مما لايقع او يجب على فاقد العقل او ناقص الادراك ، بل ان من التكاليف الدنيوية ما يعفى منها صاحب العاهة الذي تحول عاهته دون قيامه بها :

« ليس على الاعمى حرج ولا على الاعرج حرج ولا على المريض حرج . . » النور/ ٦١

« ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج اذا نصحوا لله ورسوله ما على المحسنين من سبيل ، والله غفور رحيم »التوبة/ ٩١ .

« . . . وليس عليكم جناح فيما اخطأتم به ، ولكن ما تعمدت قلوبكم وكان الله غفورا رحيما » الاحزاب/ ٥ .

ويرى الامام محمد عبده ان فعل العبد لو لم يكن له ، لبطل تكليفه به « اذ لا يعقل ان يدعى شخص الى ما لا يقدر عليه ، وان يكلف ما لا أثر لارادته فيه ، ولو كان فعل القاتل ليس له لامتنع القصاص ، ولم تكن فيه لنا حياة ، فالعقل والشرع والحس والوجدان متضافرة على ان فعل العبد فعله ، وكون جميع الاشياء راجعة الى الله تعالى ووجود الممكنات انما هو نسبتها اليه . . ولا يتصور اعتبارها موجودة الا اذا اعتبرت مستندة اليه مما قام عليه الدليل بل كاد يصل الى البداهة كذلك ، ومثل هذا يقال في عظم قدرة الله تعالى ، وانه ان شاء سلبنا من القدرة والاختيار ما وهبنا فهو امر نشاهده كل يوم ، ندبر شيئا ثم يأتي من الموانع ما يحول دون تحقيقه مما لم يكن في الحسبان ، ونتناول عملا ثم تنقطع قدرتنا عن تنميته » .

وفي مقال له بالعروة الوثقى يقول : « كل ماحدث ، له سبب يقاربه في الزمان .

والانسان لا يرى من سلسلة الاسباب الا ما هو حاضر لديه ، ولا يعلم ما فيها الا مبدع نظامها ، وان لكل منها مدخلا ظاهرا فيما بعده ، وارادة الانسان انما هي حلقة من حلقات تلك السلسلة . وليست الارادة الا أثرا من آثار الادراك ، والادراك انفعال النفس مما يعرض على الحواس ، وشعورها بما اودع في الفطرة من الحاجات . فلظواهر الكون من السلطة على الفكر والارادة ما لا ينكره ابله فضلا عن عاقل ، وان مبدأ هذه الاسباب التي ترى في الظاهر مؤثرة ، انما هي بيد مدبر الكون الاعظم الذي أبدع الاشياء على وفق حكمته ، وجعل كل حادث تابعا لشبهه كأنه جزء له » .

مشيئة الخالق والمخلوق مختلفتان

ولا نرى بيننا وبين الشيخ الامام خلافا على ذلك ، فما هو خاضع لسنة الكون فمرده الى خالق الكون وهو « القضاء » ، وهو مايرادف « الحتمية » في تفسير الماديين للعلوم الانسانية والقانون العلمي في تفسير الظواهر الطبيعية ، وما هو خاضع لمشيئة الانسان وادراكه وتفكيره فمرده اليه ، وهو مكلف به مسئول عنه محاسب عليه .

وليس فيما جاء به القرآن من آيات في هذا المنحى الا ما يدل على ان الله قد جعل لكل شيء سببا ، وتتناهى هذه السببية او العلية الى قانون شامل هو سنة الكون التي لاتتبدل ولا تتحول ، لانها القانون الالهي الذي صاغ عليه الكون وسيره منذ الخليقة وقبل الخليقة ، وهو ما لا يدركه الانسان ـ كما قلنا ـ وان خلق الله له العقل لادراك بعضه ، ليذلله لنفعه ويسيطر به على ما يبتغيه من محيط حياته ، اذ كرمه الله على خلقه وخلق كل شيء لنفعه ، واتصال العقل بهذا القانون الالهي هو الحرية : حرية النظر والتأمل والكشف عن أسرار هذا الكون بما يمكن الانسان من السيطرة على الطبيعة . وفي هذا المعنى تتأكد حرية الارادة الانسانية كما تتأكد مسئولية الانسان عن افعاله .



التوكل والتواكل

فالعقيدة الاسلامية ليست مما ينتهي بالانسان الى التواكل ، وفرق ما بين التوكل والتواكل ، فالتوكل على الله ما هو الا ايمان بقدرة الخالق ، وهو صلة ما بين الانسان وربه يستلهمه الرشاد والهداية وسداد الخطا والتوفيق في العمل ، فاذا اقترن العمل بالتوكل على الله فمن قبيل الاستمرار حتى لايغفل العبد عن ذكر الله ، واما التواكل فمن قبيل ترك الامور على عواهنها وسلب الارادة الانسانية ما اودعها الله من قدرة وتطلع وما هو الا بهتان ليس من الدين في شيء .

وحين يرشد الانسان الى سبيله وغايته في الحياة بالايمان بالله تطيب له الحياة وتتقدم الحياة على يديه فما كان الدين الا هديا ورشادا وضع الله به الانسان على اولى درجات المعرفة ، وقد جاء الاسلام فاكتملت به رسالة السماء ، وتمت به نعمة الله على الناس ، اذ فتح لهم مغاليق الكون ، ودعاهم الى التأمل ، وعلمهم مالا يعلمون . وكان اول ما خاطبهم به في خطابه لخاتم انبيائه قوله جل وعلا : « اقرأ باسم ربك الذي خلق . خلق الانسان من علق . اقرأ وربك الاكرم . الذي علم بالقلم . علم الانسان مالم يعلم »

---

(١) الدكتور محمد حسين هيكل : المعرفة والفلسفة والايمان

(٢) انظر ابن سعد : الطبقات : والشهرستاني : الملل : والبخاري : حديث ٢٣٧

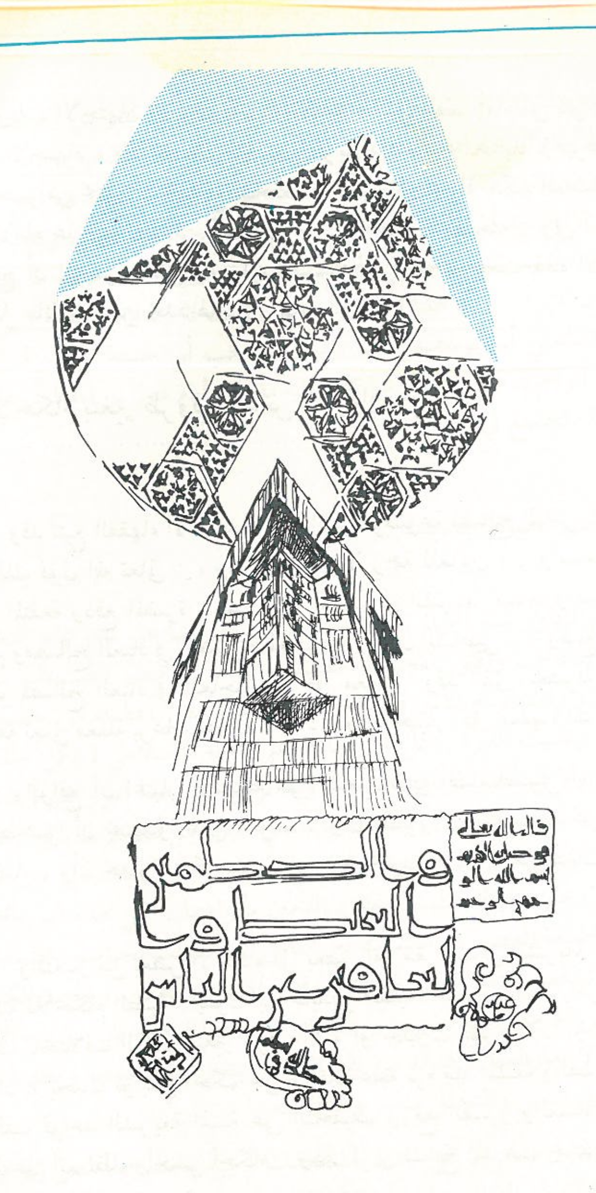
(٣) ابن المرتضى : المنية والامل

(٤) Ameer Ali, Sayed, the spirit of Islam

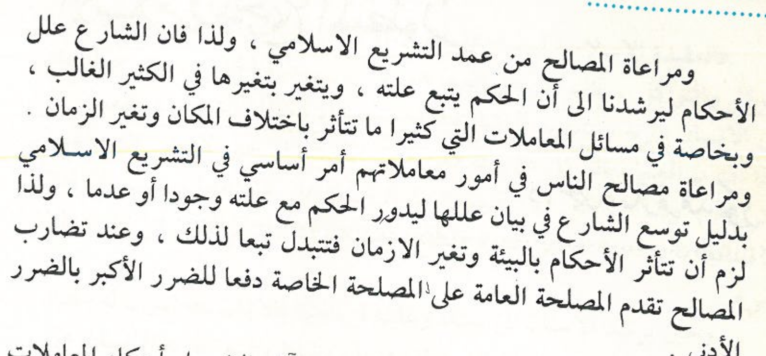
الإسلام والمجتمع المتطور

د. محمد سلام مدكور

التشريع الاسلامي يدفع الى العمل في الحياة ، ويساير الفطرة السليمة . ولقد أسس على ركائز قوية وقواعد متينة ، فهو لا يوقع المؤمنين به في حرج وضيق . ولذا فان أحكامه جاءت في الغالب مجملة ، وتقف في الكثير الغالب عند القواعد العامة . وخاصة في معاملاتهم ونظمهم السياسية والمالية ، حتى تتسع لكل جديد . ويمكن أن تطوي تحتها كل تطور سليم . على أن التكاليف التي جاء بها الاسلام قليلة كي لا يرهق كاهل الناس بها ، ولكي تبقى مسائلهم تستنتج أحكامها دون مصادفة لمصالح الناس التي تختلف باختلاف العصور . وحتى يمكن تبدل الحكم بما يساير العرف ويحقق المصلحة .



مراعاة المصالح :



ومراعاة المصالح من عمد التشريع الاسلامي ، ولذا فان الشارع علل الأحكام ليرشدنا الى أن الحكم يتبع علته ، ويتغير بتغيرها في الكثير الغالب ، وبخاصة في مسائل المعاملات التي كثيرا ما تتأثر باختلاف المكان وتغير الزمان . ومراعاة مصالح الناس في أمور معاملاتهم أمر أساسي في التشريع الاسلامي بدليل توسع الشارع في بيان عللها ليدور الحكم مع علته وجودا أو عدما ، ولذا لزم أن تتأثر الأحكام بالبيئة وتغير الازمان فتتبدل تبعا لذلك ، وعند تضارب المصالح تقدم المصلحة العامة على المصلحة الخاصة دفعا للضرر الأكبر بالضرر الأدنى .

ومن أجل مراعاة المصالح لم يتناول القرآن بالتفصيل أحكام المعاملات المالية الجنائية والدولية والقضائية والدستورية وما شابه ذلك مما يتغير بتغير البيئة ويتأثر باختلاف النظم ، وما كان سكوت الشارع عن هذا نسيانا منه ، اذ لا يضل ربي ولا ينسى ، انما كان رأفة بالناس حتى يكون ولاة الأمر والمجتهدون في كل عصر في سعة من أن يفصلوا قوانينهم فيها حسب ما يحقق مصالح الناس في حدود الأسس العامة للتشريع الاسلامي من غير اصطدام بنص قطعي فيها .

الفقه الاسلامي ومسايرة الحياة :

والتشريع الاسلامي يتفق معه في أحكامه قانون الاخلاق ، ويتصل بالضمير الانساني اتصالا وثيقا ، ونحن واثقون من أن الفقه الاسلامي بمذاهبه العديدة والآراء المختلفة كفيل بمسايرة الحياة المتطورة ، واذا ما اجهد الفقهاء في العصر الحاضر أنفسهم لمواجهة الحياة مواجهة فعلية ، ووضعوا كل جديد على بساط البحث ، لخرجوا بنتائج طيبة تجعل الفقه يساير الحياة ، ويكفل لنا الرقي والفوز والفلاح في الدارين ، ولكنا في الصدارة كما كان سلفنا الصالح حينما استنبطوا الأحكام في ضوء المصالح العامة .

وباب الاجتهاد يجب أن يكون مفتوحا في كل عصر أمام من تتوافر فيهم شروط الاجتهاد ، ولا يصح - كما ينص فريق من فقهاء الحنابلة وغيرهم - أن يخلو العصر من مجتهد اذ الوقائع متجددة والحاجة الى معرفة حكم الله مستمرة ، وهذا الامام علي يقول : لن تخلو الارض من قائم لله بحجته . وفي الحديث الصحيح أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال : ان الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها أمر دينها .

تغير الاحكام بتغير ظروف الناس والزمان :

وقد تتبع الفقهاء الأحكام فوجدوا انها موضوعة لمصالح الناس ، كما يدل على ذلك قول الله تعالى : « وما أرسلناك الا رحمة للعالمين » . وأساس الرحمة جلب المنفعة ودفع المضرة ، يقول ابن القيم : « الشريعة مبناها وأساسها على الحكم ومصالح العباد في المعاش والمعاد » . ويقول الشاطبي : « وضع الشرائع إنما هو لمصالح العباد في العاجل والآجل معا » . وقد اتفق المعتزلة على أن أحكامه تعالى معللة برعاية مصالح العباد . وأنه اختيار أكثر الفقهاء المتأخرين .

والواقع أن اعتبار المصلحة هو المشعل الذي أضاء السبيل أمام الفقهاء فاستطاعوا أن يجتهدوا على ضوئه . وأن يسيروا في التصرف على هديه ومقتضاه ، وأن يجعلوا الحكم يدور مع علته وجودا وعدما فيتغير لذلك من حال الى حال .

والتغيير من بعض الأحكام الى بعض أمر معروف في الشريعة الاسلامية بالنسبة للأحكام الظنية . يقول ابن عابدين الفقيه الحنفي : « كثير من الأحكام تختلف باختلاف الزمان لتغير عرف أهله أو لحدوث ضرورة . أو فساد أهل الزمان ، بحيث لو بقي الحكم على ما كان عليه لزم منه المشقة والضرر بالناس ولخالف قواعد الشريعة المبنية على التخفيف ورفع الضرر والفساد . ولبقاء العالم على أتم نظام وأحسن أحكام . ولهذا نرى مشايخ المذاهب خالفوا ما مضى عليه المجتهد في مواضع كثيرة » .

وهذا الامام الشافعي العربي القرشي قد تأثر في كثير من أحكامه الخاصة بالمعاملات والبيئة والعرف مما أدى بتلاميذه أن ينقلوا عنه مذهبين : مذهبا يصور آراءه وهو بالعراق متأثرا ببيئتها وما اعتاده الناس فيها ، ثم مذهبا آخر بعد ذلك يصور آراءه بعد أن رحل الى مصر ، وتأثر بما عليه الناس فيها ، ونجد الرأي في المذهب الجديد يختلف عنه في المذهب القديم ، وفي كتب الحنفية ما يصور هذا فيقولون كثيرا : « ان هذا اختلاف عصر وزمان لا اختلاف حجة وبرهان » . وهذا القاضي أبو يوسف الفقيه الحنفي صاحب أبي حنيفة . فانه قد عدَّل في الخراج الواجب على الأرض عما كان عليه مقداره أيام عمر بن الخطاب لما رأى أن مصلحة المجتمع في ذلك .

تطورات الحياة الجديدة :

والتطور سنة الحياة ، وضمان استمرار سيرتها على نحو يمنع التخلف ، ويوفر النجاح ، وتطور المجتمع الحديث وانتقاله الى عصر الصناعة والتنقل في الفضاء ، واستخدام الأثير وزرع الجنين ونقل بعض أعضاء من جسم انسان لآخر ، وتفتيت الذرة . كل هذا جديد على الفقه الاسلامي لم يكن عند ظهور الاسلام ولا في عصر ازدهار الفقه . وقد ترتب على هذا أمور كثيرة مستحدثة يراد معرفة حكم الله فيها ، وكذلك ما جد في حياتنا من معاملات مالية ومصرفية اقتضاها التطور ، وعلاقات وارتباطات لم تكن من قبل أيضا ، الى غير ذلك من صور الادخار ، والاحتكار وعقود التأمين بأنواعها . هل هذه أمور جديدة اقتضتها طبيعة العصر ، وانتشرت بين الناس ، واتصلت بحياتهم ومجتمعاتهم ، ويسأل المسلمون دائما عن حكمها وموقف الاسلام منها ، ويحجم الكثير من العلماء عن الاجابة عنها ، ويهمس البعض أو يتجرأ فيجهر بأن مبادىء الاسلام وأهدافه لا تعارضها . فيناله من نقد القائلين بتحريمها ما يؤذيه ويظهره بمظهر المروق على الدين والتحلل منه ، والرقة فيه .

والقول بتحريم كل جديد مستحدث لم يرد بخصوصه نص شرعي أمر ميسور لا يكلف القائل به جهدا مادام لا يوجد فيه نص يحكمه ، ولا قياس جلي

يشمله ، وكأن ما لم يرد به حكم أو جهل حكمه الأصل فيه الحظر والمنع لا الاباحة والحل ، وكان الله سبحانه فصل لنا ما أحلّه وترك ما دون ذلك محرما ؟!

روح الاستقلال الفكري

وهل لو كان الأئمة السابقون الذين عالجوا أمور الحياة في عصورهم معالجة جعلتهم خير أمة بحق وجعلت قانونهم أفضل قانون ، ونهضتهم بارزة تضيء لجميع الأمم والشعوب ، وتضفي عليهم . لو كان هؤلاء الأئمة في عصرنا الحاضر ، ورأوا تطورات المجتمع وما جدَّ فيه ، فهل كانت تبلغ بهم الحيرة هذا المبلغ ، ويترددون هذا التردد ، ويفصلون الفقه عن واقع الحياة ، ويجعلونه فقها نظريا صرفا ، لا يسع الناس الأخذ به واللجوء اليه الا مع المشقة والحرج الشديد ؟! أم كانوا ييسرون على الناس حياتهم ، وييسرون عند استنباطهم للأحكام في وادي المصالح ، ويأخذون بالاستحسان ان لم يسعفهم القياس . والاستحسان كما ينقل ابن العربي عن ابن القاسم عن الامام مالك أنه تسعة أعشار العلم ، وكثيرا ما خرج فقهاء الحنفية عن القياس أخذا بالاستحسان لأنه الأيسر على الناس ، والرسول صلى الله عليه وسلم يقول فيما روى عنه « يسروا ولا تعسروا . بشروا ولا تنفروا » .

لكن سرعان ما تغيرت شخصية الفقهاء ، وماتت في نفوسهم تدريجيا روح الاستقلال الفكري وركنوا الى التقليد ، وأصبح الفقيه يلتزم مذهبا لا يتعداه ، فلا يشغل نفسه بالاجتهاد والاستنباط ولا اعداد نفسه لذلك . وبذا تخلف الفقه الاسلامي حقبة من الزمن ، واضطر الناس للتحايل على الأحكام أو الخروج عليها ، كما اضطرت الحكومات للتطلع الى القوانين الأخرى والاقتباس منها .

فلابد من قبول الأحكام المبنية على المصلحة التي لم يرد نص قطعي يعارضها ويمنعها ، حتى لا يكون هناك انفصال بين الأحكام وشئون الناس ومصالحهم ، وذلك لا يتحقق اذا التزمنا بالأحكام الاجتهادية التي بنيت على عرف سابق تغير ، أو كان ملاحظا فيه مصالح الناس ثم تغير وجه المصلحة ، أو

لمعنى من المعاني ثم تغير ذلك المعنى وحدث معنى اخر يقتضي تغيير الحكم .

ينقل الزيلعي الحنفي عن فقهاء (بلخ) : « أن الأحكام قد تختلف باختلاف الأزمان » ويقول القرطبي المالكي : « ان الجمود على المنقولات أبدا ضلال في الدين وجهل بمقاصد علماء المسلمين والسلف » .

ونحن نرى أن الشارع في تصرفه منذ كان ينزل القرآن هو الذي رسم لنا تلك الخطة بالتغيير في الأحكام بالنسخ لبعضها والتدرج في تشريعها مسايرة لمصالح الناس بالأخف والأيسر عند الحاجة ، أو انتقالا الى الأشق كذلك عند الحاجة ، تمريناً للنفوس ، ومقاومة لما فيها من رعونات قد تجر الى فساد الأخلاق والعداوة بين الناس ، وان في هذا التصرف لتعليما لولاة الأمر من الحكام والعلماء أن يسلكوا مسلك التصرف ، وأن يتخذوا من حكمة الشارع حكمة تمكن الناس من الخلافة في الأرض بالتماس ما يصلحهم ، والدوران حول ما تتطلبه حاجاتهم ومنافعهم اذ النسخ كان في فترة الوحي فقط ومن اختصاص المشرع وحده .

وان فيما تصوره السنة النبوية من ذلك ما يركز في نفس الفقيه ان الحكم المجتهد فيه لا ينبغي أن يكون ملزما للناس دائما بحيث لا يقبل التبديل والنظر . فقد روى أحمد وغيره أن عليا قال يا رسول الله اذا بعثتني في شيء أأكون كالسكّة المحماة ـ أي كالآلة فلا أتصرف ـ أم الشاهد يرى ما لا يراه الغائب ؟ . فقال صلى الله عليه وسلم : « بل الشاهد يرى ما لا يرى الغائب » ، وهذا يدل على أن التصرف في الأحكام بما يلائم الواقع أمر مشروع .

كما روى أن الامام عليا بدَّل حكما يتصل بتضمين الصناع فقال : يجوز التضمين ما لم يُقم الصانع بينة على أنه لم يتعد ، وكان الحكم قبل ذلك بعدم تضمينهم لأن يدهم يدَ أمانة ، ويد الأمين غير ضامنة ، وانما عدل الامام علي رضي الله عنه لأنه رأى الناس لا يحتاطون في حفظ الأمانات .

كما روى أن عثمان بن عفان أمر بالتقاط ضوال الابل وبيعها فاذا جاء صاحبها أعطي ثمنها . مع أن الرسول صلى الله عليه وسلم كما في البخاري سئل عن ضالة الابل ، هل يلتقطها من يراها ؟ فنهى النبي عن التقاطها لانه لا يخشى عليها وأمر بتركها ترد الماء وترعى الكلأ ، وكان الحكم على ذلك حتى خلافة عثمان ، ثم لما رأى الناس قد دب اليهم فساد الأخلاق وامتدت أيديهم الى

الحرام بدَّل الحكم . وهو في الحقيقة لم يترك النص ولم يعطله تقديما للمصلحة عليه ، وانما بنى الحكم على مقصود النص ، فلو أبقى الحكم على ما كان مع ما لاحظه من فساد أخلاق الناس لآل الأمر الى عكس المقصود من النص الذي يتضح أنه مبني على رعاية أحوال الناس وأخلاقهم في ذلك الحين .

تصرف الصحابة :

وهكذا من تتبع تصرفات الصحابة وعلى رأسهم عمر الذي طالما غير بعض الأحكام الى ما يرى أنه مصلحة ، مع تفسيره للنصوص تفسيرا يتفق مع المصلحة ، وأن كان ظاهره قد يشعر بالمخالفة ، كما في منع سهم المؤلفة قلوبهم ، ومنعه تسليم أرض العراق وأرض الشام الى الغزاة الفاتحين ، ومن ذلك معاقبته الناس بأعمال عباراتهم وايقاع الطلاق الثلاث بلفظ واحد ثلاثا ، مع أنه كان يقع في عصر الرسول طلقة واحدة وكذا في خلافة أبي بكر وسنين من خلافة عمر . وقد اعتبر العلماء ذلك من باب تقييد المباح لمصلحة ، وهي التشديد عند الاقتضاء ، وقد اتجه أولو الرأي بعد ذلك إلى الرجوع الى الحكم الأول واعتباره طلقة واحدة .

تغيير الأحكام

وصور تغير الأحكام تبعا للمصلحة في عصر الصحابة كثيرة ، كما درج التابعون على ذلك فأفتوا بجواز التسعير مع نهي الرسول صلى الله عليه وسلم عن ذلك فيما روى عنه ، فقد روى أصحاب السنن عن أنس رضي الله عنه أنه قال : « غلا السعر على عهد رسول الله فقالوا يا رسول الله : لو سعرت ؟ فقال : ان الله هو القابض الباسط الرازق المسَّعر ، واني لأرجو أنْ ألقى الله عز وجل ولا يطالبني أحد بمظلمة ظلمتها اياه في دم ولا مال » . لكن في عصر التابعين تغيرت أخلاق التجار بعض الشيء ، فقالوا : ان الناس قد ضجروا بما أصابهم من الجشع ، وأراد الفقهاء مقاومة ذلك عملا بحديث « لا ضرر ولا ضرار » الذي يقتضي بعمومه العمل على رفع الغبن ومقاومته ، فاذا كان النبي صلى الله عليه

وسلم أراد أن يأخذ جيله الصالح بذلك الأسلوب ، فهل يمنع ذلك اذا نشأ الفجور في التجار أن يضرب الامام على أيديهم بما يقضي على تلك المضارة ويقاوم ذلك المحظور ، وفي هذا يقول ابن القيم : « ان نهي النبي عن التسعير لعدم وجود ما يقتضيه ، ولو كان هناك مقتض لفعل » وهذا يفيد ان الحكم يدور مع علته ويرتبط بالمصلحة وانه يتبدل ويتغير تبعا لذلك .

وفي عصر الأئمة بقي مسلكهم مستمدا من مسلك سلفهم الصالح ، ودرجوا عليه ، فقد أفتى أبو حنيفة ومالك بجواز دفع الزكاة لبني هاشم ، وفهموا أن النص الذي يحرم الزكاة عليهم لم يكن على اطلاقه ، ولكنه تقيد بأخذ نصيبهم من بيت المال ، فلما زال القيد زال التحريم منعا للضرر ، وليس في شيء من هذا تقديم للمصلحة على النص ، وانما هو تصرف في تفسير النص عن طريق الاجتهاد البياني .

ومن بعد الأئمة جاء تلاميذهم فأخذوا في كثير من المسائل الفقهية بعكس ما أفتى به أئمتهم ووضعوا قاعدة فقهية عامة « لا ينكر تغير الأحكام بتغير الأزمان » ومن ذلك اختلاف الامام أبي حنيفة وصاحبيه في تعديل الشهود لتحقق العدالة المطلوبة في الشهادة . فالامام لا يشترط ذلك لأنه كان في عصر تغلبت فيه العدالة فلم يشترط الا في الحدود والقصاص لابتناء أمرهما على الدقة والدرء بالشبهة ، وأما الصاحبان فقد اشترطا التعديل لكل شهادة لما رأياه من فساد الزمان . ثم تغير الحكم بعد ذلك لاختلاف الزمان أيضا اذ لاحظ الفقهاء المتأخرون ـ ما بعد منتصف القرن الثامن الهجري ـ لاحظوا ندرة العدالة الكاملة ، ووجدوا أن القاضي اذا تطلب دائما نصاب العدالة الشرعية في الشهود شق الأمر على المكلف باقامة البينة مما قد يترتب عليه عجزه عن الاثبات وضياع حقه ، فأفتوا بقبول شهادة الأمثل فالأمثل . أي أنهم تنازلوا عن شرط العدالة المطلقة الى العدالة النسبية .

ويقول ابن عابدين الفقيه الحنفي : ان الأحكام المبنية على العرف يجري فيها التغيير بتغير العرف فقد كانت العطايا الكافية تعطى للمشتغلين بتعلم القرآن مما جعل أبا حنيفة يمنع اعطاء الأجر على تعليمهم القرآن ، فلما انقطعت هذه العطايا بعد ذلك . أفتى المتأخرون بجواز الأجر على القيام ببعض الأعمال الدينية كالامامة وتعليم القرآن

وينقل ابن قدامة الحنبلي . ان الامام احمد بن حنبل جوَّز تخصيص بعض الأولاد بالهبة لمعنى يقتضي ذلك مثل زيادة الحاجة أو لزمانة أو عمى أو اشتغال بطلب العلم ، مع ورود النهي عن التفضيل من غير تفصيل .

وقد توسع القاضي أبو يوسف في اعتبار العرف وابتناء الأحكام عليه حتى قال : « اذا ورد النص على أساس عرف مستقر وقت وروده ثم تغير العرف بعد ذلك فان الحكم يتغير تبعا بتغيره » ، ويقول القرافي المالكي : « ان جميع أبواب الفقه المحمولة على العوائد اذا تغيرت العادة تغيرت الأحكام في تلك الأبواب » .

اختلاف أوضاع الحياة :

بقي أن نقول ان تغيير الأحكام لم يكن مقصورا على تغير الأزمان واختلاف العصور فقط ، وانما قد يكون ناشئا عن حدوث أوضاع تنظيمية اقتضتها أساليب الحياة . ومن هذا قصر اعطاء الأمان على الوالي ، مع أنه كان يباح للأفراد اعطاؤه ، ومن ذلك الاكتفاء في عصرنا ببيان العقار المبيع بذكر رقم العقار وعنوانه ومساحته ، مع أنه كان لابد من ذكر الحدود ، وكذا بأن الاجتهاد القضائي استقر على اعتبار تسليم العقار المبيع حاصلا بمجرد تسجيل العقد فينتقل ضمان هلاك المبيع من عهدة البائع الى عهدة المشتري من تاريخه ، مع أن التسليم كان قديما لابد فيه من التسليم الفعلي أو التمكين منه ، ولا ينتقل ضمان الهلاك الا بهذا . فحدوث هذه الأوضاع التنظيمية يقتضي ولا شك أن يتبدل الحكم الفقهي الاجتهادي ليتفق مع متطلبات العصر ، ويساير مصالح الناس .

فما معنى أن الفقهاء لا يقولون من وقت أن عرف تسجيل العقود وتوثيقها وخصوصاً بالنسبة لعقود الزواج أن التسجيل أمر ضروري ، ولماذا لم يتجهوا من زمن بعيد لاشتراط الشهود واعلام الزوجة لايقاع الطلاق مادامت المصلحة تقتضي ذلك والنصوص لا تمنعه بل تحتمله ، وهكذا بالنسبة لكثير من أحكام الأسرة .

وهل ينبغي أن نقف جامدين أمام المخدرات بسمومها ولا تصدر فتوى جماعية على تحريمها وتطبيق نفس عقوبة الخمر عليها ، مع أن ضررها على الفرد

والمجتمع قد يكون أشد من الخمر نفسها ، وهل ينبغي أن يترك الكثير من المسائل التي وجدت في عصرنا وتغلغلت فيه مما لم يرد فيه نص قاطع ولا اجماع سابق دون أن ننتهي فيه الى رأي نيِّر لا يشق على الناس ولا يجعلهم يتخلفون عن مجتمعهم علميا أو سياسيا أو اقتصاديا أو اجتماعيا . مع أن نصوص الشريعة كلما زاد العلماء فيها بحثا زادتهم هدى .

المصلحة والتيسير

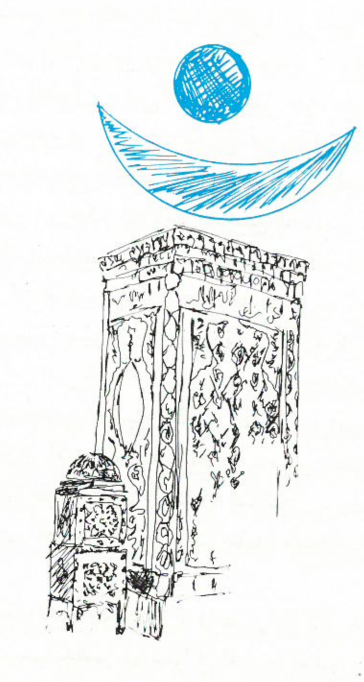
الواقع أن مسائل كثيرة في عصرنا يحتاج الناس فيها الى رأي صريح جماعي . فعقود التأمين بأنواعها واليانصيب والأعمال المصرفية بما فيها صناديق التوفير ، وعقود المضاربة والكمبيالات والشركات المساهمة ، وما تطرحه من سندات ، والقروض الحكومية وشبه الحكومية ، والجراحات المختلفة والتشريح للدراسات الطبية ، ونقل الدم ، ونقل جزء من الميت لانقاذ الحي الى غير ذلك مما جدَّ في عصرنا . ويسأل الناس عن حكم الاسلام فيه . والأصل ان الاسلام تشريع عام صالح للتطبيق في كل عصر ، ومقصد الشريعة هو تحقيق الخير والسعادة للناس . وحكم الله دائما ما يحقق المصلحة مادام لم يرد الغاء من الشارع لها . وقد قال السابقون : « أينما كانت المصلحة فثم شرع الله » ، وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا بعث فقيها أو وفدا من الصحابة الى بلد قال لهم - على ما ذكرنا - « يسروا ولا تعسروا » كما أنه قد روى عنه أنه قال : « اللهم من ولى من أمر أمتي شيئا فشق عليهم فاشقق عليه » .

ومقتضى الأخذ بهذين الحديثين يفصل فصلا بيِّنا صريحا في اعتبار مصالح الناس والأخذ بها ، وان الاعراض عنها مع عدم وجود نص قطعي بمنعها يعتبر تنطعا في الدين وجمودا على ما ورد في كتب السابقين ، وقصورا للشريعة عن صلاحيتها للتطبيق بين المعاصرين ، وحكما عليها بالتخلف وهي براء من هذا التخلف والقصور .

فاجتمعوا يا أئمة علماء المسلمين ، وانظروا في كل هذا في ضوء مصالح الناس ، ولا تكونوا بسبب تقصيركم سببا في تخلف المسلمين عن ركب الحضارة في العلم والاقتصاد والاجتماع . وقولوا رأيكم بعد بحث ودراسة شاملة .

والرأي أمانة ، وهو عند الاقتضاء قضاء ، ولكل مجتهد نصيب .

وينبغي أن يكون الاجتهاد في هذه الأمور جماعيا حتى نمنع البلبلة ، ونقطع على كل مشاغب شغبه ، ولنذكر قول الرسول صلوات الله عليه : « لا تزال طائفة من أمتي قائمة على الحق لا يضرهم من خالفهم حتى يأتي أمر الله » .



الدين في عصر العلم

د . عون الشريف قاسم

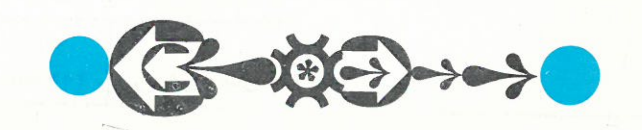
كانت الحرب العالمية الثانية حدا فاصلا بين عهدين في تاريخ البشرية ، وبداية لتحولات جذرية على كافةالمستويات في الفكر والسياسة والاجتماع ، فقد دخل العالم فيها عصره الذري الأول ، وشهد في أعقابها تكريس انقسام العالم إلى معسكرين (ايديولوجيين) ، لم يلبثا أن فقدا مع الزمن تماسكهما ، وقوتهما ، فانهارت الامبراطوريات الرأسمالية في أفريقيا وآسيا ، وتقلصت كل من انجلترا ، وفرنسا ، وهولندا ، وبلجيكا ، وأخيرا البرتغال ، الى الحجم الطبيعي داخل حدودها الجغرافية .

وسعت الولايات المتحدة الامريكية إلى وراثة هذا الماضي الاوروبي ، لكن نضال الشعوب المستضعفة على الأخص في الهند الصينية وضع حدا حاسما لمثل هذا التطلع غير المشروع ، فارتد الامريكان على أعقابهم بعد حرب فيتنام يبحثون عن دور جديد في (استراتيجية) العالم .

العربي العدد ٢٥٢ نوفمبر ـ تشرين الثاني ١٩٧٩م .

ولم يكن المعسكر الشرقي الوليد بأحسن حالا من المعسكر الرأسمالي العتيق ، فقد دبت الخلافات (الايدولوجية) والقومية بين دوله ، مما اضطر معه الدولة المهيمنة إلى استعمال القوة بعض الوقت لوضع حد للتفتت والانفلات ، ولكن هيهات ! فقد كان التطور الاجتماعي والفكري أقوى من كل رابطة (ايديولوجية) وعسكرية ، فانشق العالم (الماركسي) على نفسه ، وانعكس ذلك على فكرة الأممية ، فاستحالت إلى قومية تبشر بها الأحزاب الشيوعية في دول المعسكر الشرقي ، وفي الدول الغربية على السواء ، وفقدت النظرية (الماركسية) أثناء ذلك أهم أركانها الفكرية ، مثل (دكتاتورية البروليتاريا) التي ألغتها معظم الأحزاب الشيوعية في العالم الغربي من برامجها ، ومثل (العنف الثوري للوصول للحكم) الذي استبدلت به كثير من الأحزاب الشيوعية الاوروبية طريقة الانتخاب (الديمقراطي) للوصول إلى الحكم .

وكان لابد للمنافسة الاقتصادية بين الشرق والغرب أن تترك آثارها الواضحة على شعوب أوروبا الشرقية التي بدأت تتطلع إلى تحسين مستوى حياتها بطلب المزيد من بضائع الاستهلاك بدل التركيز على الصناعات الثقيلة وصناعة الأسلحة ، فانفتحت أبواب المعسكر الشرقي للشركات الغربية لسد النقص في بضائع الاستهلاك في الأسواق الشيوعية ، وكان ذلك دافعا للاتحاد السوفيتي ليلتقي مع الولايات المتحدة الامريكية للبحث عن الدور الجديد الذي عليهما أن يلعباه في (الاستراتيجية) العالمية الجديدة . وما سياسة التعايش السلمي ، وما تبعها من سياسة الوفاق ، إلا تعبير عن إحساس الدولتين الكبيرتين بأن مصالحهما المشتركة - كدولتين صناعيتين في مواجهة بقية العالم - تجعل الخلافات (الايديولوجية) بينهما تأتي في المقام الثاني ، وفي ذلك اشارة الى أن التقدم العلمي والصناعي هما أساس التجمع والتحالف ، وأن حروب المستقبل ستكون حروبا اقتصادية أكثر منها (ايديولوجية) ، والدلائل كلها تشير إلى الفجوة التي تزداد اتساعا بين الدول الصناعية المتقدمة ، والدول المنتجة للمواد الخام المختلفة .



وقد كان لكل ذلك آثاره على الصعيد الفكري والحضاري ، فقد تمخضت الأزمات الاقتصادية والاجتماعية التي اجتاحت العالم الغربي ، وما نجم عنها من اضطرابات وحروب قومية واستعمارية ، عن تغيير جذري في المناخ العقلي الموروث عن القرن التاسع عشر الذي كان من أهم سماته التفاؤل بمستقبل الحضارة الغربية خصوصا ، والجنس البشري عموما ، والايمان بالعلم التجريبي كسبيل وحيد إلى التطور ، مع التصديق المطلق بفكرة التقدم ، وما يتصل بكل ذلك من فكر مادي يرتكز على النظريات (الميكانيكية) و (البيولوجية) التي قام عليها العلم التجريبي ، وكلها نظريات جبرية تنظر إلى الوجود كآلة دقيقة الصنع ، تسير سيرا ذاتيا ، وفق قوانين حتمية لا إرادة فيها ولا خيار .

وقد فسرت هذه النظريات نشأة الكون من عدم ، وخرجت بنتيجة أن المادة وحدها هي التي تتطور متى تهيأت لها الظروف ، دون تدخل من قوة عليا ، أو إرادة إلهية ، وأن الانسان نفسه - بحسبانه قمة التطور - لا يخرج عن هذه القاعدة . وقد سعى دارون إلى البرهنة على هذه النظرية من خلال نظرية النشوء والارتقاء ، المعروفة بنظرية التطور التي ترصد الحياة من عناصرها المادية الدنيا ، خلال ملايين السنين حتى تصل الى الانسان العاقل . وقد انعكست هذه النظرية المادية الحيوية على الحياة الفكرية بدرجات متفاوتة ، وكانت أعظم تأثيرا على الوضع الديني في العالم الغربي ، فاهتزت الأسس الدينية القائمة على أن إرادة الله هي المسيطرة على الكون ، وبدا وكأن العلم التجريبي قد جرد هذه الارادة الالهية من مفعولها ، وأنها أصبحت لا معنى لها في عالم ينشأ ويتحرك تحركا ذاتيا (ميكانيكيا) جبريا دون حاجة إلى عون من خارج ذاته .

وعلى هذا جاءت معظم الأفكار السياسية والاجتماعية الأخرى ، فجاء الفكر (الماركسي) ليقيم على التحليل المادي نظريته السياسية والاجتماعية في الحتمية التاريخية التي تسير الانسان خلال التاريخ كما تسير الآلة ، وفق قوانين مادية اجتماعية محددة لا دخل لارادة الانسان فيها . وجاء علم النفس ليدعم

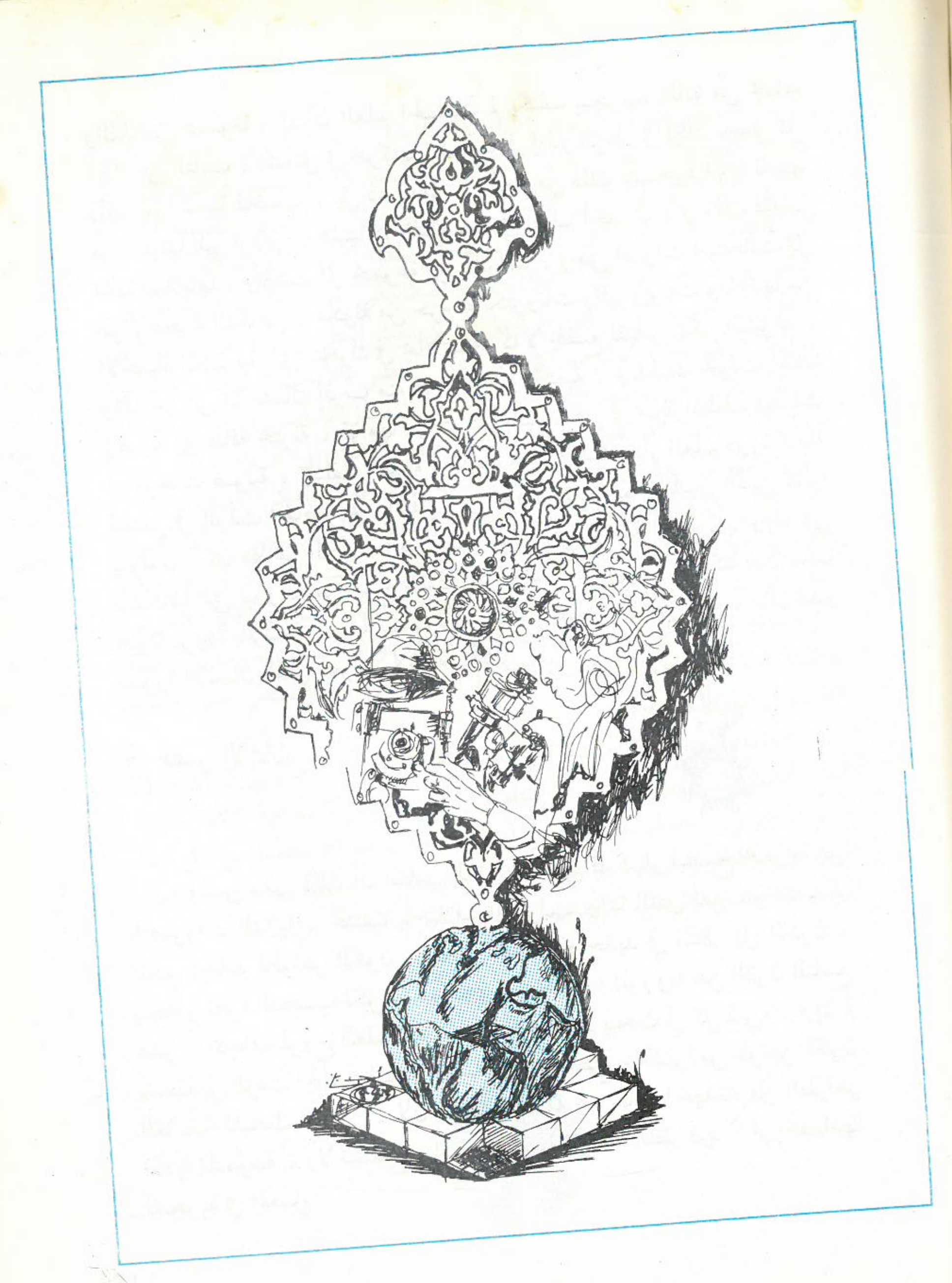
كثيرا الأسس المادية في النظرة إلى الانسان بحسبانه آلة تدور وفق أنماط من السلوك (الميكانيكي) محددة ، توجهها غريزة الجنس عند فرويد ، واللاوعي الجمعي عند يونج ، وعقدة النقص عند آدلر ، وقد سعى الروسي بافلوف إلى توضيح استجابة الانسان (الميكانيكية) إلى المؤثرات الخارجية ، بما أجراه من تجارب على الكلب الجائع الذي عوده على انتظار الطعام كلما قرع جرسا ، فكان الكلب يستجيب لقرع الجرس وان لم يكن هناك طعام .

وقد كانت هذه النظريات العلمية الواثقة المتفائلة التي تستطيع أن تتنبأ بكل ما يمكن أن يحدث في كل ميادين العلم والاجتماع ، وتفسره تفسيرا ماديا ، مما قوى من ثقة الغربيين بأنفسهم وبقدراتهم ، فتطورت المجتمعات الصناعية ، وازداد ثراؤها ، بفضل التطبيق الذكي لمنجزات العلم ، وقد انعكس كل ذلك على سيطرتها العسكرية ، والثقافية على معظم شعوب العالم غير الغربية . لكن هذا التفاؤل بقدرة الحضارة الغربية على التقدم أصيب بنكسة عظيمة وهي تشهد كل أفكارها تتهاوى تحت الأنظمة الفاشية ، والنازية والاستعمارية ، والقمعية ، واستحال الايمان بالعلم إلى شك مريب وهو يتحول تحت أيدي الأشرار من بني البشر إلى أسلحة فتاكة تفني البشر بالملايين ، وقد بلغت حصيلة ذلك أكثر من أربعين مليونا من القتلى في الحربين الكبريين وحدهما .

آثار القنبلة الذرية

واهتزت القاعدة الفكرية للنظرة المادية كلها حين تمكن العلماء من شق نواة الذرة الذي كان السبب في صنع القنبلة الذرية ، وأصبحت ذرة المادة التي كان العلماء وكل الماديين يحسبونها باقية دائمة لاتتغير ولاتتجزأ فانية زائلة ، ككل شيء في الوجود ، ونسفت نظرية النسبية التي طورها اينشتاين (الجبرية الميكانيكية في النظرة إلى الوجود) لتحل محلها النظرية النسبية ، وأصبح قانون الاحتمالات في تفسير حركة المادة هو الاتجاه العلمي السائد ، بدل قانون السببية (الميكانيكية) القائمة على الحتمية المطلقة ، الموروثة من القرن الماضي .

وبذلك وسع الجبر مجالا للاختيار ، وانفتح الباب أمام حرية الارادة من جديد ، وكان لكل ذلك آثاره البعيدة المدى على الفكر الديني خصوصا



والفلسفي عموما ، إذ أن العلم الحديث لم يكتف بتجريد المادة من مجالها الخارجي الثابت ، المتمثل في حركتها الملموسة في إطار الزمان والمكان بجعل كل ذلك أمرا نسبيا فحسب ، بل ذهب الى إلى أبعد من ذلك بأن جرد المادة نفسها من ماديتها التي ارتكزت عليها كل النظريات في العلم الحديث ، وبذلك فقدت المادة صلابتها ، وتفتتت الى مجموعة من الذرات ، وحتى الذرات استحالت إلى عوالم عجيبة التكوين ، مكونة من حزم الالكترونات والبروتونات وما إليها من الأجسام الكهربية التي تتحرك في مجالاتها تحركا لا يخضع لقياس يمكن التنبؤ به ، وإنما هو إلى الاحتمال أقرب منه إلى الحزم والحتمية ، وبذلك تحولت المادة الصلبة إلى طاقة مختزنة ، قوامها ذرات كهربائية ، هي في نهاية المطاف ذبذبات أو موجات ضوئية ، يختلف العلماء في تفسيرها ، وبذلك دار العلم دورة كاملة ليلتقي في الوقت الحاضر على الأقل - مع موقف الفلاسفة المثاليين الذين كانوا يقولون : إن مظاهر الكون الخارجية ليست هي حقيقة الكون ، وإنما هي بأشكالها التي تبدو لنا من صنع عقولنا أو حواسنا القاصرة ، فلو كنا مثلا نملك عيونا مزودة بالأشعة السينية لبدت هذه المظاهر مختلفة عما هي عليه ، مثلما تبدو صورة الانسان الذي يتعرض لأشعة (أكس) .

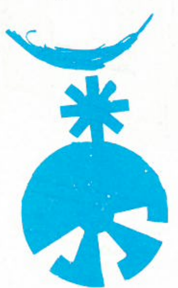
في عصر الايمان

وليس معنى ذلك أن أساس العلم الطبيعي قد انهار ليصبح مجموعة من التصورات الذاتية ، تختلف باختلاف العقول ، وإنما الذي تغير هو التفسير المادي الجامد لظواهر الكون ، ليحل محله منهج جديد في النظر إلى الكون ، يتجاوز نظرة التعصب لكل ما هو مادي ومحسوس ، الموروثة عن القرن التاسع عشر ، المجافية لروح العلم الحقيقي الذي يجب أن يبحث في كل شيء ، وإن لم نستطع في الوقت الحاضر ابتكار الوسائل التي نخضع بها كثيرا من ظواهر الكون الغامضة للبحث العلمي ، لأن طبيعتها مختلفة عن كل ما عهدناه من الظواهر المادية الملموسة ، ولا تستطيع مناهجنا العلمية الراهنة النظر فيها ، أو إخضاعها للتجربة في المعمل .

ومعظم جوانب الظاهرة الانسانية تدخل في هذا المجال ، ولذلك كانت معظم العلوم الرامية إلى تفسير الظاهرة الانسانية كعلم النفس وعلوم السياسة والاجتماع تبدو أقرب إلى التفسيرات الذاتية منها إلى الحقائق العلمية المجردة التي لاتقبل الجدل ، وذلك راجع إلى توغل النظرة المادية الموروثة التي تسعى الى تفسير كل ظواهر الوجود ، خلال المنهج الميكانيكي القائم على سرمدية المادية ، والقوانين الحتمية التي تحكم حركتها . ومما يلفت النظر في هذا المجال أن علوم الطبيعة كالفيزياء والبيولوجيا التي اقترنت في الماضي بالايغال في المادة ، والدعوة الى الالحاد ، هي نفسها التي احدثت هذا التغيير الشامل في المناخ العلمي لعصرنا ، بحيث أصبحت تدفع بالكثيرين من العلماء إلى الايمان ، إلى درجة صارت فيها لغة بعضهم شبيهة بلغة فلاسفة المتصوفة في الفكر الاسلامي .

كل هذه التحولات الجذرية في أوضاع العالم الغربي السياسية والاجتماعية والفكرية تلقى بظلالها الكثيفة على مجريات الأحوال في مجتمعات العالم الثالث التي ظلت فترات طويلة تعكس بالتقليد السالب أفكار الغرب ومؤسساته ، وتسعى جاهدة إلى صب ذواتها في قوالبه الفكرية والاجتماعية المستوردة ، دون اعتبار كبير لخصائصها الذاتية التي قد تستعصي على عملية الصب في القوالب الجاهزة .

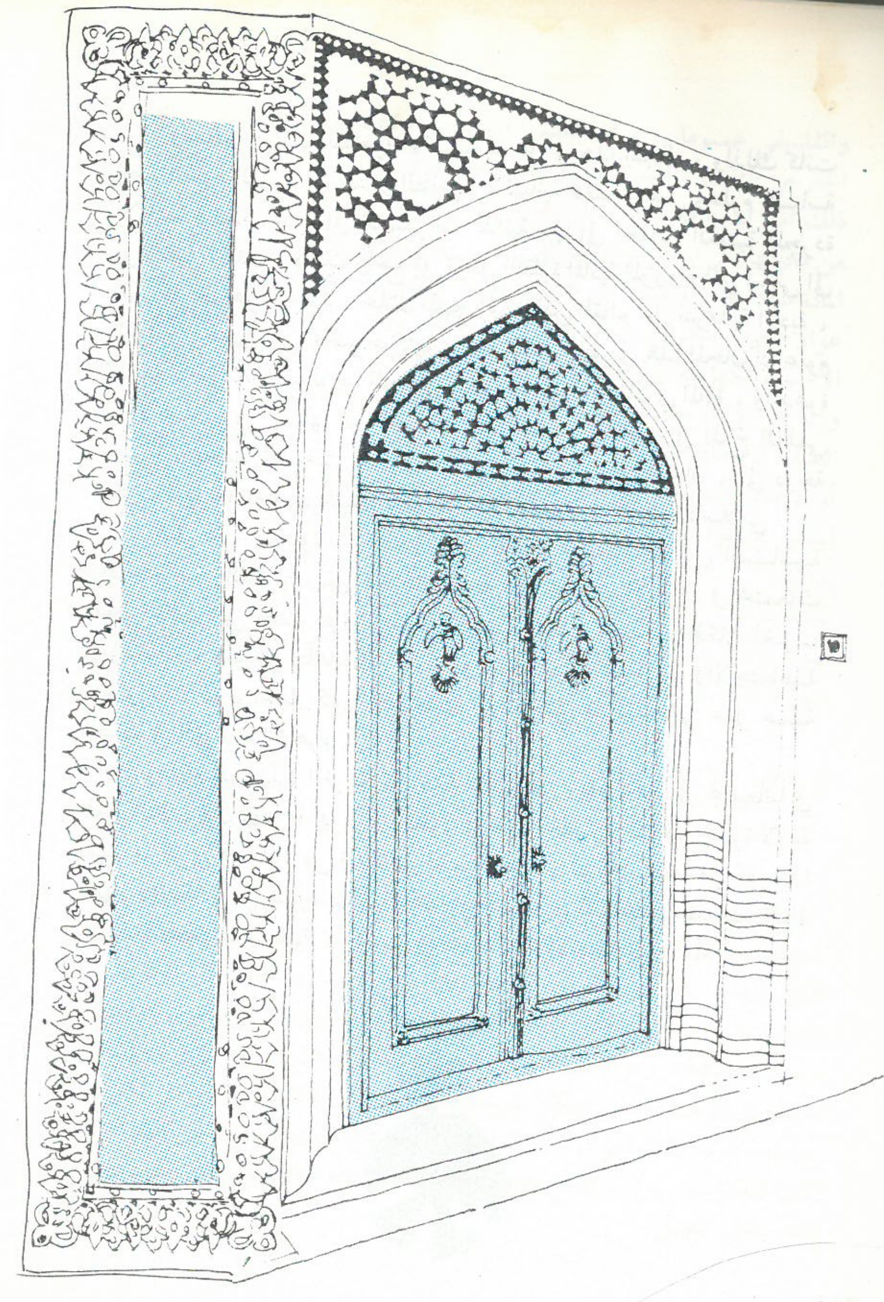
ومادام للحضارة الغربية كل هذا التأثير على واقع الحال في مجتمعاتنا في العالم الثالث فإن فهم ما يجري من تطور في هذه الحضارة الطاغية خطوة لازمة لفهم ما يجري في العالم من انعكاس له من ناحية ، ثم للاستفادة من كل هذا الفهم وانعكاسه في بلورة موقف حضاري مستقل ، تستعيد به شعوب العالم الثالث شخصياتها السلبية ، وتسهم في دفع مسيرة الانسان إلى الأمام





مواقف وتطبيقات





الرابطة القومية من السنن الكونية في القرآن الكريم

د. محمد جابر الأنصاري

ما يتبادر إلى الذهن لأول وهلة ، وما يشيع لدى عامة الناس وبعض خاصتهم ، أن القرآن الكريم من حيث هو كتاب دين ودعوة سماوية عالمية شاملة ، يقف تجاه « القومية » على طرفي نقيض ، وأنه يدحضها ، ويحذر منها ، ويمنع دعواها ، ولكن ما أبعد هذا الظن عن الحقيقة القرآنية .

وما كان للقرآن وهو الذي شمل الظواهر الكونية والتاريخية والاجتماعية أن يتنكر لظاهرة تاريخية اجتماعية إنسانية كالقومية ، لها جذور متأصلة في واقع البشر وتاريخهم وتكوينهم وطبيعتهم .

وأعتقد أن النصوص القرآنية الواضحة ، والقاطعة بهذا الصدد هي التي يمكن أن تحسم الجدل حول هذا الموضوع الذي دار حوله خلاف كبير وخطير في الحياة العربية والاسلامية ، وما زال يثير الخلافات والمشكلات ، ويعرقل سير هذه الأمة في طريق التطوّر السليم .

فلنبق إذن مع النصوص القرآنية حول هذا الموضوع ، ولنسر معها في مقاربتها لهذه الحقيقة الانسانية ، لنتبين حقيقة الموقف الاسلامي من المسألة القومية .

العربي العدد ٢٩٠ يناير ـ كانون الثاني ١٩٨٣م



النهج الواقعي في القرآن

ينطلق القرآن بمنهجه الواقعي في النظر إلى الشئون الكـونية والـطبيعية والانسانية من حقيقة تقرير التنوع والتعدد والاختلاف في واقع البشر فيقول :

(ومن آياته خلق السماوات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم . إن في ذلك لآيات للعالمين) « سورة الروم/ ٢٢ »

إذن فمن آيات الله البينات التي لابد للمسلم أن يتقبلها ، ويؤمن بها آية اختلاف ألسنة البشر وألوانهم ، واختلاف الألسنة يعني بطبيعة الحال اختلاف اللغات ، وبالتالي اختلاف الثقافات والآداب والفنون والفلسفات ، بـاعتبار اللغة هي الوعاء الحاوي لذلك كله ، والمؤثر فيه تأثيرا نوعيا وعضويا ، فاللغة ليست مجرد ألفاظ ـ كما أثبتت الدراسات اللغوية الحديثة ـ وإنما هي حقيقة نفسية وعقلية تسم كل ما يكتب بها بميسمها وتطبعه بطابعها ، والقرآن الكريم ذاته يقرر مدى عمق البعد اللغوي عندما يكرر في آياته الكثيرة صفته « العربية » حيث يقول في إحدى هذه الآيات : « ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل لعلهم يتذكرون ، قرآنا عربيا غير ذي عـوج ، لعلهم يتقون » ـ سورة الزمر/ ٢٧ ـ ٢٨ .

لنتأمل في صفتي القرآن هنا والترابط بينهما ، أي بين هاتين الصفتين : « عربيا غير ذي عوج » .

فلقد اختار الله ، من بين كل اللغات والألسنة ، اللغة العربية ، لتكون الوعاء الأمين الذي يحمل الحقيقة الالهية الكونية القرآنية إلى الانسانية كلها ، ولا بد أن ذلك تم لحكمة تتصل بطبيعة الرباط الوثيق بين الحقيقة القرآنية والحقيقة اللغوية العربية . ومدى تقبل لغة العرب لحقائق القرآن وإعجازه ، وقدرتها على تجسيد هذا الاعجاز وحدها بين مختلف لغات البشر وألسنتهم بحيث جاء القرآن يحكم الاندماج العضوي بين حقيقته الإلهية ، وصفته العربية قرآنا « غير ذي عوج » ، بل « قرآناً عربيا غير ذي عوج » بحيث جائت صفته العربية وكأنها طبيعة ثانية له ، بعد طبيعته الإلهية المطلقة ، وأصبح وصفه بالكمال (غير ذي عوج) مقترنا بوصفه العربي ، بل إن هذا الوصف العربي يأتي ملتصقا بالقرآن قبل وصف الكمال ـ ولموضع كل كلمة في الاعجاز القرآني حكمة وغاية ـ وكأن العربية كصفة من صفات القرآن الجوهرية ، جزء مكمل لكماله . وإذا كان الوحي ، أو الروح القدس . هو الوسيلة الالهية التي أوصلت القرآن من الله سبحانه إلى الرسول ﷺ ، فإن العربية ستبقى بعد توقف الوحي وختام النبوة هي الوسيلة الالهية التاريخية الدائمة والمستمرة لتوصيل الحقيقة إلى سائر البشر ، وهي تواصل الآن في توصيلها القرآن وتعاليمه الى كل عقل بشري مهمة الوحي الأولى التي تمت بتوقف الوحي ، وختام النبوة ووفاة النبي العربي ، وهذا مصداق قوله تعالى : « إنا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون » سورة يوسف/ ٢ .

فالعربية إذن هي واسطة القرآن إلى كل عقل ، وواسطته الباقية ببقائه والخالدة بخلوده ، وهذه حقيقة ملزمة لكل مسلم صادق مؤمن مخلص ، عربيا

كان أم غير عربي ، إذ لا يمكنه أن يتقبل القرآن من حيث هو كتاب إلهي ويصد عنه من حيث هو قرآن عربي ، فهذه الصفة الثابتة نص قرآني ملزم لاعتقاد المسلم أيا كانت لغته ، وقوميته ، بحيث يصدق الحكم القائل : إن مودة المسلمين للعرب من دلائل حسن إسلامهم . وكرههم للعرب مدعاة للظن في صدق ما يعلنون من إسلام ، وهذه حقيقة يؤكدها التاريخ العربي الاسلامي على ضوء التيارات الشعوبية التي بدأت بالطعن في العرب ، وانتهت بالزندقة في الاسلام وتشويهه ، إذ كان ذلك هدفها البعيد في نهاية المطاف .

واختلاف الألوان

أردنا من هذا الاستطراد تبيان الصلة العضوية الوثقى بين الحقيقة واللغة التي تتجسد فيها تلك الحقيقة ، سواء كانت حقيقة كونية إلهية أو حقيقة إنسانية قومية ، من منطلق الاشارة القرآنية المتكررة بشأن صفة القرآن العربية ، ومدى عمقها ومغزاها من حيث انصباب الوحي القرآني في اللسان العربي دون سائر الألسنة .

أما « اختلاف الألوان » فهو تقرير لحقيقة وجود العروق والأجناس التي يتكون منها الجنس البشري ، ومن العروق والأجناس تتفرع القوميات المختلفة بألسنتها المتعددة ، فكل قومية في التحليل النهائي هي جنس معين بلغة معينة ، وهذا ماعنته الآية بعبارة : « واختلاف ألسنتكم وألوانكم » .

ويجدر بنا أن نلاحظ أن هذا « الاختلاف » في الآية المذكورة من سورة الروم ، يوازي في أهميته آية خلق السماوات والأرض التي هي من أعظم آيات الله ، وأكثرها استمرارا وديمومة ، وأعظمها في التدليل على براعة الخالق ، حيث يسير التقرير القرآني على النحو الآتي : « ومن آياته خلق السماوات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم . . . « الآية » .

فهذا (الاختلاف اللساني القومي) إذن ليس بالظاهرة اليسيرة التي تمر بها مر الكرام ونغفلها أو ننكرها . وكيف نستطيع ذلك وهي تلي آية خلق السماوات والأرض في صلب المنطوق القرآني الالهي ، وتستمد منها أهميتها ،

بل وبقاءها واستمرارها في واقع البشر مادامت السماء ومادامت الأرض ؟

وهذه اللمحة القرآنية تتوافق إلى حد بعيد مع ما قاله مفكرو القومية المحدثون من أن القومية ليست مرحلة عابرة في التاريخ ، وإنما هي ظاهرة من ظواهره الباقية ، كيف لا وهي في مفهوم القرآن الكريم آية كآية خلق السماوات والأرض ؟ يدعو الله البشر جميعا إلى التأمل فيها ، حيث يتبع ذكرها بقوله : « إن في ذلك لآيات للعالمين » ، وهذا ما يدعو للتعمق في تقديرها كغيرها من حقائق الخلق .

فكيف يستطيع منكرو الحقيقة القومية من المؤمنين بالدين إغفال هذه الدعوة القرآنية الصريحة والاصرار على رفض القومية باعتبارها منافية للدين ؟ وأي دين هذا الذي ينكر الحقائق البشرية الأساسية ولا يتعاطى معها ؟

إنه ليس الاسلام قطعا . فالاسلام اعترف بالحقيقة الجنسية لدى الذكر والأنثى ، ووضع من التشريعات والأخلاق ما ينظمها لا ما ينكرها ويرفضها كما فعلت الرهبنة المسيحية .

ولقد اعترف بنزوع النفس البشرية إلى التملك ، فنظم الملكية في حدود المنفعة العامة ولم ينكرها كما فعلت الشيوعية .

ولقد شجع الاسلام ظاهرة الترابط والتكافل العائلي فرعى الاسرة كظاهرة اجتماعية وإنسانية إيجابية ، ولم يدع قط إلى التحلل منها كما فعلت الأفلاطونية والبوهيمية .

فإذن على ضوء تعاطي الاسلام الايجابي مع كل هذه الظاهرات الفردية والجماعية لماذا يصر البعض على القول بأن الاسلام يرفض الظاهرة القومية ؟

أليست الظاهرة القومية حقيقة اجتماعية أكبر من حقيقة العائلة والعشيرة ؟ فكيف يرفض الاسلام الظاهرة الأكبر ويقبل الظاهرة الأصغر ؟ أليس انتماء الانسان إلى قوم يوازي أهمية انتمائه إلى أسرة ؟ ثم كيف يعترف الاسلام بملكية الانسان لمال وعقار ويراعي ميله النفسي لهذه الملكية ، ولا يعترف بملكية الانسان لوطن قومي ولا يراعي ميله النفسي للانتماء إلى أهل لسانه ولونه في حدود هذا الانتماء وأبعاده النفسية والاجتماعية والثقافية ؟

الاجابة على هذه الأسئلة لايتركها القرآن معلقة ، بل نجد تواترها في آيات كريمة أخرى ، كلها تربط الحقيقة القومية بحقائق الحياة الكبرى والدائمة

والثابتة .

قال تعالى : « يأيها الناس ، إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عندالله أتقاكم » ـ سورة الحجرات/ ١٣ .

موطن الخطأ

فحقيقة انقسام البشر إلى « شعوب وقبائل » أي حقيقة الرابطة الاجتماعية توازي في هذه الآية مع حقيقة انقسام الجنس البشري إلى ذكور وإناث ، أي الحقيقة الجنسية التناسلية العائلية : وكما أن الله خلق « الثنائية » بين الذكر والأنثى لحفظ النوع البشري من خلال التزاوج والتناسل ، فإنه خلق « التعددية » بين الشعوب والقبائل لتيسير غاية الانتماء الفردي للانسان إلى جماعة طبيعية تحميه وتنمي شخصيته ، ثم لتحقيق غاية « التعارف » بين مختلف الجماعات في إطار الرابطة الانسانية ، والرابطة الالهية ، حيث يتقرر التمايز والتفاضل بين جماعة وأخرى بمدى اقترابها من المثل العليا ، فيكون الخالق قد أوجد تعددية الشعوب والقبائل ، بحكمة منه ـ وفعل « جعلناكم » فعل إلهي لاراد له لتحقيق التعاون الانساني « تعارفوا » ، ثم التنافس ـ بدل الحروب والنزاعات ـ في الهدف السامي ، هدف السبق إلى المثل العليا . (إن أكرمكم عند الله أتقاكم) .

وهنا أيضا تجد الاتفاق تاما بين هذا التصور القرآني للعلاقات القومية ، وللتعامل بين القوميات ، وبين التصور القومي الانساني الذي يدعو إلى أن تكون العلاقات بين القوميات إنسانية وتعاونية وتنافسية في مجال الخير والقيم ، هذا ما تدعو إليه القومية العربية انسجاما مع جوهرها الروحي السماوي ، بعكس بعض الدعوات القومية الاستعلائية والعدوانية التي تدينها مختلف الأديان والفلسفات ، والتي يحق للمؤمنين بالدين أن يرفضوها وحدها ، بشرط ألا يعمموا هذا الرفض على النوع الآخر من القومية الذي تشير إليه الآية الكريمة التي استشهدنا بها من سورة الحجرات . ولعل مرجع الاشكال القائم بين الدينيين والقوميين ، وعندنا بالذات بين الاسلاميين والعروبيين ، أن بعض

مفكري القومية تحدثوا عنها باعتبارها « عقيدة » ، فقالوا « العقيدة القومية » .

وهنا موطن الخطأ . فالقومية ليست عقيدة لا بالمعني الديني ولا الفلسفي ، وإنما هي حقيقة اجتماعية تعبر عن ظاهرة جماعية لمجموعة من البشر ، تربطهم اللغة والثقافة والأرض والمصلحة والشعور والماضي المشترك والمستقبل الواحد .

والاقرار بوجود هذه الجماعة ، وحقها في العيش المشترك ، هو بمثابة التسليم بحقائق الأشياء في الحياة البشرية كحقيقة الجنس ، وحقيقة التملك والعائلة .. الخ ، ولا يمثل « عقيدة » ترقى إلى مستوى الدين والفلسفة .

ومن حق كل جماعة قومية ، بعد الاقرار بوجودها ، أن تعتنق من العقائد والفلسفات والنظم ماتراه حقا ومتلائما مع روحها وطبيعتها .

بين القومية والعقيدة

والدليل على الفارق بين « القومية » و« العقيدة » في التاريخ ، أن قوميات عديدة غيرت عقائدها من وثنية إلى سماوية ، ومن رأسمالية إلى اشتراكية ، ومن روحية الى مادية دون أن تفقد القومية ، وإن تشيعت بروح العقيدة .

فالأمة اليونانية هي الأمة اليونانية في عهدها الوثني والفلسفي ، وفي عهدها المسيحي ، والأمة الألمانية هي الأمة الألمانية في قسمها الشيوعي وشطرها الرأسمالي ، لايلغي التقسيم العقائدي القائم حاليا حقيقتها القومية الثابتة . والأمة الروسية هي هي في عهدها المسيحي القيصري ، وفي عهدها المادي الماركسي .. الخ .

ومن ناحية أخرى فإن انتشار عقيدة عالمية بين قوميات مختلفة لا يصهرها في بوتقته ، فالأمة الأمريكية مسيحية ، والأمة الحبشية مسيحية ، ومن الصينيين بوذيون ، ومن الهنود بوذيون . ولماذا نذهب بعيدا : هل استعربت تركيا وايران وباكستان واندونيسيا وألبانيا باعتناقها الاسلام ؟ أم هل قاربت العقيدة الماركسية بين القومية الروسية والقومية الصينية والحال بينهما على ما نراه من مجابهة ونزاع ؟

ولمناقشة هذا الأمر ، يتطلب البحث دراسة أخرى ، وللتمييز بين ثلاثة مفاهيم للأمة وردت في القرآن الكريم مختلفة ومتباينة ، لا يسع تفصيلها المجال

المحدد لهذه المقالة .

ويكفي أن نلاحظ أن القرآن الكريم استخدم تعبير « أمة » حتى بالنسبة لجماعات الحيوان والطير حيث قال : « وما من دابة في الأرض ، ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم ، ما فرطنا في الكتاب من شيء » - سورة الأنعام/ ٣٨ .

وهذا يدل على مدى خصوبة المفهوم القرآني لمصطلح « أمة » ولا يقصره على فهم واحد بعينه لمدلولها كما يذهب دعاة الأممية الدينية .

ومن تأمل في هذه الآية يرى أن تعدد الأنواع حقيقة ثابتة يؤكدها القرآن ليس على صعيد البشر فحسب ، وإنما في الطبيعة أيضا ، مما جعل التعدد القومي امتدادا لتعدد طبيعي وكوني أشمل . وإلى مزيد من الحوار .



شيءٌ عن الموقف الجمالي في الإسلام

د. عماد الدين خليل

يحدثنا القرآن الكريم في عدد من الآيات كيف انه ما من شيء في الطبيعة والكون الا ويسبح بحمد الله ، وان النجم والشجر ، كظاهرتين احدهما كونية والاخرى طبيعية ، يسجدان لله ، وان كل المكونات التي تقوم عليها بنية الطبيعة ، تدأب ليل نهار تقديسا لله وتعظيما ، ابتداء من الذرات الخفية التي تسبح في عوالم لا تراها العيون ، وحتى السدم الهائلة وهي تتحرك في أفلاكها ، لا تخطىء ولا تند عن ارادة الله وعلمه . . . والرسول ﷺ يحدثنا عن جبل احد (الذي يحبنا ونحبه) ويقف حانيا على نبتة خضراء في قلب الصحراء ، فيقبلها قائلا (ليتني شجرة تعضد) !! وتهزه ابيات من الشعر الجميل فيخلع بردته ويمنحها الشاعر الذي غناه . .

ونقرأ في كتاب الله (إن في خلق السماوات والأرض ، واختلافِ الليلِ والنهار ، والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس ، وما انزل الله من السماء

العربي العدد ٢٣٨ سبتمبر - أيلول ١٩٧٨ م

من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة ، وتصريف الرياح ، والسحاب المسخر بين السماء والارض ، لآيات لقوم يعقلون)[1] .

ونقرأ (ان الله فالق الحب والنوى يخرج الحي من الميت ومخرج الميت من الحي ، ذلكم الله فانى تؤفكون . فالق الاصباح ، وجعل الليل سكنا والشمس والقمر حسبانا ، ذلك تقدير العزيز العليم . وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر ، قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون . وهو الذي انشأكم من نفس واحدة فمستقر ومستودع ، قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون ، وهو الذي انزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شيء فأخرجنا منه خضرا ، نخرج منه حبا متراكبا ، ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من أعناب والزيتون والرمان مشتبها وغير متشابه ، انظروا الى ثمره اذا اثمر وينعه ، ان في ذلكم لايات لقوم يؤمنون)[2] .

ونقرأ ايضا (فلينظر الانسان الى طعامه ، انا صببنا الماء صبا . ثم شققنا الارض شقا . فانبتنا فيها حبا . وعنبا وقضبا . وزيتونا ونخلا . وحدائق غلبا . وفاكهة وأبًّا)[3] (فلا اقسم بالخنس . والجوار الكنس . والَّيل اذا عسعس . والصبح اذا تنفس ! !)[4] (فقال لها وللأرض : ائتيا طوعا اوكرها ، قالتا : اتينا طائعين)[5] (ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون)[6]

هل ثمة موقف (جمالي) ؟

فهل ثمة موقف (جمالي) في الاسلام ؟ نعم . . والحديث يطول ، وسنكتفي هنا بمجرد اشارات فلعلنا نرجع اليه مرة اخرى . .

عندما دعا القرآن الكريم الناس الى التأمل في الطبيعة ، لم تكن دعوته هذه تنصب على الجانب التجريبي العملي من اجل استغلال كنوز الطبيعة وامكانياتها فحسب ، وهو ما يهدف العلم اليه ، بل رافق هذه الدعوة توجيه الى الجانب الانفعالي الجمالي من أجل تنمية وتهذيب الاحساس البشري ورفعه الى الدرجة التي يستحقها الانسان باعتباره مخلوقا متذوقا حساسا ، وهو ما يهدف الفن اليه . . والقرآن الكريم ، في دعوته المزدوجة هذه تجاه الطبيعة ، التأمل العلمي والحدس الجمالي ، كان يخاطب الانسان باسلوبه الفني المعجز الذي يعرف كيف

يحرك كل مكونات الانسان . . . ولم يتخل عن هذا (الاسلوب) حتى عندما كان يعرض لاشد النواميس والقوانين والسنن الطبيعية عمقا وعلمية ورياضية ، ان صح التعبير ! ! لان الطبيعة ، هذا التشكيل الالهي الفذ ، لا بد ان تقود الانسان السوى الايجابي الفعال - عالما كان أو فنانا - في الطريق الى الله ، بهزة الايمان العميق التي تحدثها في عقول العلماء والفنانين وفي افئدتهم ووجدانهم . . اولئك الذين آلوا على انفسهم ان يتأملوا الطبيعة ، ويتمعنوا في خفاياها ، وان يدخلوا معها في حوار خلاق . . عارفين انهم - عن هذا الطريق - سيستحقون رحمة الله ، ومكانتهم في العالم كخلفاء .

شاء الله جلت قدرته أن تكون الطبيعة هي الجامعة الكبرى التي تخرج أفواج العلماء والفنانين في الوقت ذاته : العلماء الذين يتفحصون ويجربون ويكتشفون من أجل رقي العلم الانساني ، وادراك السنن والنواميس الطبيعية التي يقام عليها صرح العلوم التطبيقية المختلفة ، والفنانون الذين يعاينون ويلمسون وينظرون ويسمعون ، فتهزهم المعاينة والنظر والسماع ، وتحيلهم الى قلوب تنبض عشقا وهياما وشعرا وعقول تند عن مرائيها النفعية المادية القريبة ، فتحطم جدران الاشياء وتنطلق الى ما وراء الاشياء . . وحدس ينقل أحاسيس الانسان ، من سمع وبصر ولمس ، من مراتبها الاولى ، الى أجهزة فذة عجيبة للتعامل مع ما في الكون من قيم وحقائق وأشكال ، غابت عن الاسماع والعيون أول مرة ، فجاء (العيان الفني) لكي يمزق عنها الاستار ، ويعيد اليها صفاءها الاول ! !

التقابل المحتوم

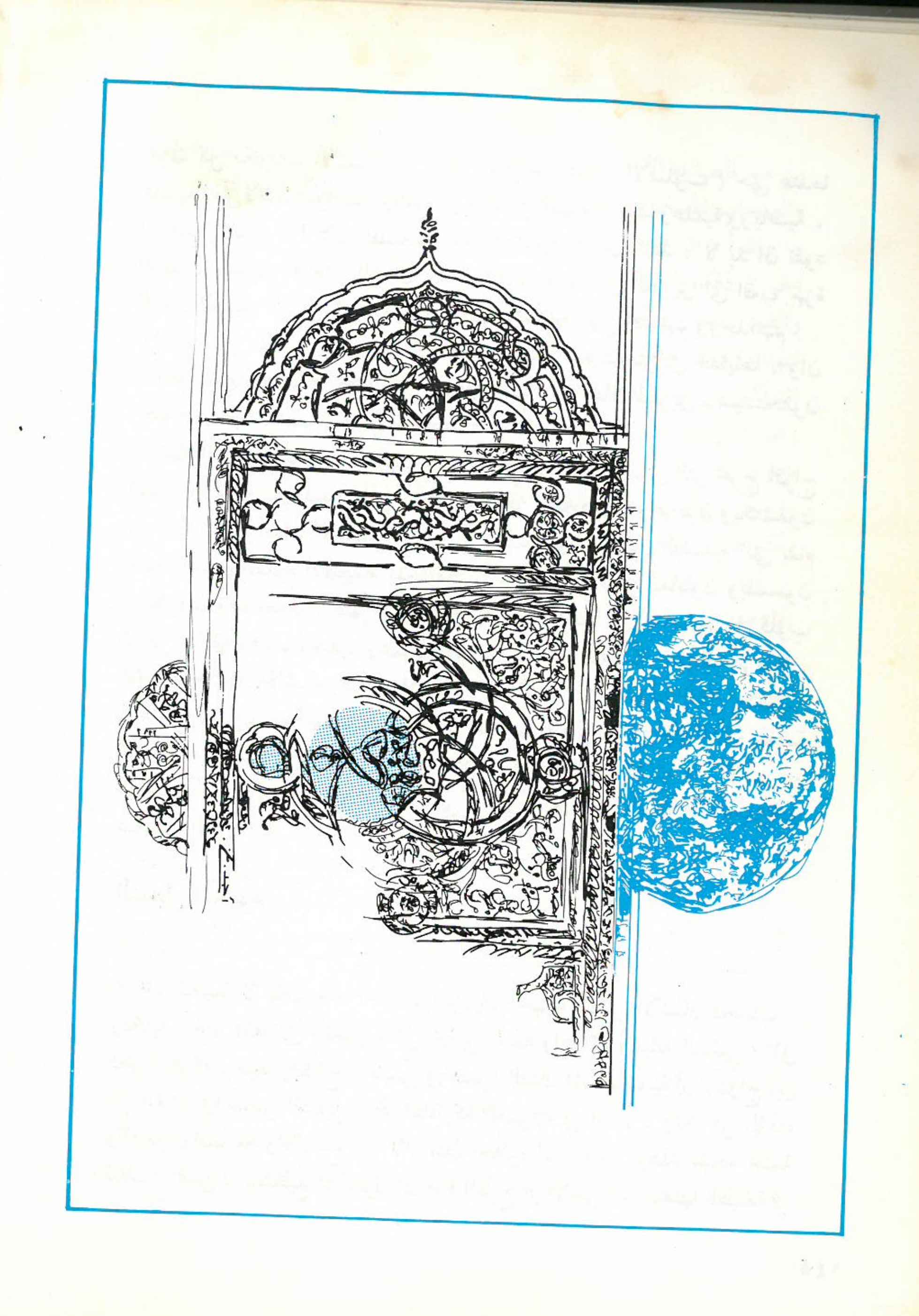
ان الطبيعة لا تقف عند أحداث الهزة الروحية في نفس الانسان فحسب ، ولكنها تدفعه دفعا الى التعبير ، الى تحويل تأمله وادراكه وعيانه السلبي ، الى فعل وحركة وجهد وابداع . فليس في تصور الفنان المسلم ثنائية أو ازدواج بين فن العيان والحدس السلبي ، أو المشاركة الصوفية في العالم ، وبين فن الاداء والعمل والصنعة والابداع . . لان تلك خطوة الى هذه ، وهذه نتيجة محتمة لتلك . فمن ذا يستطيع أن يقول ان هزة الفرح أو الاسى التي تبعثها الطبيعة في

نفس الانسان ستظل محتبسة في جوانحه ، وأنه سوف لا يحيلها الى غناء وشعر او صور أو تشكيلات منحوته وعمارات منصوبة ، أبدا . . ان هنالك ارتباطا باطنيا بين التقبل السالب للمؤثرات الطبيعية ، التقبل الذي يجيء عن طريق الحدس الهادىء العميق والاستغراق في الكون . . وبين التعبير الجمالي عن معطيات ذلك التقبل الحدسي الهاديء العميق .

ان في أعماق كل فنان ما يمكن أن نسميه تقابلا منغما بين الهدوء والحركة ، بين السلب والايجاب ، بين الاخذ والعطاء ، بين التقبل والتعبير . . ان أعماق الفنان كالبحر الذي يضم في اللحظة الواحدة هدوءا حالما وتمخضا مخيفا . . كالسيمفونية التي تحتوي على نغمتين متناقضتين لكنهما في المدى النهائي للحن ، موحدتان . . ان أعماق الفنان أو تكوينه الفذ ، هما هكذا . . ومن ثم فان اغلب الذين عاينوا الطبيعة والكون ، وتأملوا فيهما ، وحدسوهما ، وتقبلوا عنهما الكثير من المعطيات . . عادوا فرسموا وغنوا وبنوا ورقصوا . وهنا نلاحظ أن العبادة في الاسلام انما هي حركات تعبيرية عن التأمل . ان المعنى العميق للآية (الذين يذكرونَ الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ، ويتفكرون في خلق السماوات والارض . . .) يبين لنا كيف أن تأملهم في الكون دفعهم ، بعفوية وانسجام ، الى أن يصلوا لله بحركات تعبيرية يفتحون عن طريقها منافذ وأبوابا حركية للتخفيف عن التوتر النفسي الايجابي الذي ولدته تجربة الحدس والتمعن في كيانهم المحدود ، والقلة القلة هم أولئك الذين كبتوا جوانحهم على ما تقبلوه عن عيانهم للطبيعة وقبعوا ، كمتصوفي الهنود ، حجارة صماء ، بكماء عمياء ، تعاين بصمت ، ولا تحرك أيديها ، لكى تقدم لبني الانسان صور التجربة وابعاد المسالك الكونية التي قادهم اليها التأمل والعيان .

ما يقوله الغربيون

ان ما يقوله برجسون وشوبنهور رائع وجميل ، لولا وقوفهما عند شطآن التقبل السالب للطبيعة والعالم ، والاندماج الصوفي في صورهما وأشكالهما وبحرهما العميق ، يقول برجسون : « لو تهيأ للنفس الا تتعلق بالفعل بأي ادراك حسي من ادراكاتها ، لكنا بأزاء نفس فنانة لم يشهد لها العالم نظيرا من قبل . . نفس



ترى الاشياء جميعا في صفائها الاصلي ، وتدرك أشكال العالم المادي وألوانه كما تدرك أدق حركات الحياة الباطنية »[٧] . وما يقوله ديوى رائع ومقبول ، لولا الحاحه على ربط معطيات الفن بخبرات الناس العلمية (البراغماتية) وبتجاربهم النفعية : (ان الادراك الحسي المتسامي الى درجة النشوة ، أو ان شئت فقل التقدير الجمالي ، لهو في طبيعته كأي تلذذ آخر نتذوق بمقتضاه أي موضوع عادي من موضوعات الحياة الاستهلاكية ، فهو ثمرة لضرب من المهارة أو الذكاء في طريقة تعاملنا مع الاشياء الطبيعية ، بحيث نتمكن من زيادة ضروب الاشباع التي تحققها لنا تلك الاشياء تلقائيا ، فنجعلها أشد وأنقى وأطول . . ان العنصر الجمالي - كما يقول ديوى - ليس عنصرا دخيلا على التجربة البشرية ، وكأنما هو اثر من آثار الترف أو الكسل او اللهو او الحدس أو المشاركة الصوفية أو التسامي الاخلاقي ، بل هو مجرد ترق أظهر وأوضح لتلك السمات العادية التي تميز كل خبرة سوية مكتملة)[٨] .

وما يقوله ناقدا الجمال المعاصران : ألان وباير منطقى ورصين لولا أن تأكيدهما المطلق على اعتبار الفن عملا وجهداً وتكنيكا وصنعة وصراعا ضد المادة ، واستقلال (استطيقيا) لدى مشاهدة العمل الفني وتذوقه ، دفعهما الى تناسي واهمال الخلفيات التي يقوم عليها بناء العمل الفني ، وتذوقه ، سواء تلك الخلفيات في وجدان الانسان الفنان أم في تركيب الطبيعة الفنانة . . « ان اهتمام الفنان - كما يقرر الأن - ليس منصرفا في العادة الى انفعالاته وعواطفه ، بل منصرف أولا وقبل كل شيء الى (الموضوع) نفسه . . وعلى حين أن المخيلة المتسكعة لا تعرف سوى الامل أو التمني أو الرجاء نجد أن اليد الصانعة هي التي تقدم على (التنفيذ) فتصطدم بعوائق المادة ، وتحاول في الوقت نفسه الانصات الى نداء الموضوع »[٩] ويمضي ألان الى أبعد من ذلك فيقرر « انه ليس لدى الفنان افكار سابقة محددة وانما تجيئه الافكار كلما أوغل في الانتاج والعمل ، ان لم نقل بان هذه الافكار نفسها لا تصبح واضحة محددة الا بعد أن يكون العمل الفني قد اكتمل »[١٠] . أما باييرفيري فيقول :

« . . ان من شان كل حركة يقوم بها الفنان أن تتسجل على شكل تأثير حسي وهذا الاثر هو المظهر الاوحد الذي لا بد لعالم الاستطيقا أن يعمل له الف حساب . . ومهما أمعن دعاة الصوفية والسلبية والتعمية في الحديث عن الحدس

والاشراق والمشاهدة فان الموضوع الجمالي لا بد من ان يتحقق على شكل اثر فني ، لأن الجميل لا يوجد الا متحققا . . وعبثا يحاول الفلاسفة أن يخلطوا بين الفن والتأمل الفلسفي ، فان سحر العمل الفني . . لابد من أن يجيء فيكذب دعوى مثل هذه الاستطيقا السلبية الخالصة . . ان مهمة عالم الجمال ان يبين لنا كيف أن (الذات) ليست هي كل شيء في الحكم (الجمالي) وكيف أن شيئا يظل خارجا عن الذات ، ألا وهو ما في الموضوع الجمالي نفسه من توازن في صميم (بنائه الاستطيقي) . . . [١١]

وهكذا ، فأينما ذهبنا باحثين عن مذاهب الغربيين في الفنون - أو طرائقهم في الفكر والحياة - فاننا لا بد أن نعثر على نوع من الثنائية أو التقسيم التعسفي للانسان والعالم . . وكأن تجربة آبائهم واجدادهم ازاء الكون والطبيعة والعالم ، الزمتهم بعبارة (اما هذا أو ذاك) دون ان يؤمنوا يوما بأن هنالك بديلا منطقيا لعبارة كهذه ، تلك هي (هذا . . وذلك . .) لان الانسان والطبيعة ، الروح والمادة ، الفكر والوجدان ، التأمل والعمل ، السكون والحركة ، والاندماج والانفصال ، التقبل والصراع . . هي كلها - في المنظور الاسلامي - وحدة واحدة تسيرها نواميس واحدة - وتشرف عليها من اقطارها الأربعة . ارادة الله الذي اعطى كل شيء خلقه ثم هدى . .

الوحدة والتوافق

ان تصور الفنان (المسلم) للفن وموقفه من العالم ينبثق عن هذه القاعدة الشاملة التي اتيح للانسان والطبيعة ان يتحركا على مسرحها ذي الابعاد اللامرئية . . الوحدة التي تضم كل الجزئيات والتناقضات الظاهرية والقيم المتعارضة في كيان واحد متماسك ، أو عالم متناغم جميل ، أو لحن يطرب الاسماع ويهز القلوب ويعمق مجالى الفكر والادراك . ان الاديان جميعا جاءت لكى تشير الى ان الانسان عالما كان أم فنانا ، يجب إن يسعى من اجل هذا المصير العظيم : الوحدة والتوافق بين الانسان والعالم والطبيعة والكون . . الوحدة التي ترفض الذوبان السالب والفناء . . . كما ترفض - في الوقت نفسه - التمزق والتبعثر والازدواج والعصيان ، ومن ثم يجيء موقف الفنان المسلم من أجل

المصير .. ذلك المصير الذي يضم جناحيه على كل القيم والخلائق والنواميس ويحركها جميعا صوب الله ..

ان الطبيعة لم (تشكل) لغرض أن تجيء جماليتها كتحد سلبي للانسان يصده عن الوصول الى الكمال علما وفنا .. أو يثير فيه نزعة عدائية (للتغلب) على الطبيعة أو (التفوق) عليها (وقهرها) ، تلك النزعة التي تبرز بوضوح في تعابير علماء اوروبا وفنانيها .. انما هي بمثابة (استثارة) ابدية ايجابية تحرك الانسان صوب مزيد من الكشف والابداع والابتكار .. فهي اشبه بالمنافسة الشريفة العادلة التي لا غالب فيها ولا مغلوب ، لان الطبيعة والانسان كليهما من صنع الله وقدره ، ولان الطبيعة لم تتخذ ، ولن تتخذ (شكلها) النهائي فهي - وفق سنن الله تعالى - تتغير وتتشكل باستمرار ، ثم ان الانسان بدوره مطلوب منه هذه الحركة صوب الامام والى فوق .. هذا الى ان الخلائق جميعا ، في نظر الفنان المسلم ، تمتاز بنوع من الالفة الميتافيزيقية والتعاطف الوجداني والتوجه الكلي نحو الخلاق المبدع سبحانه .

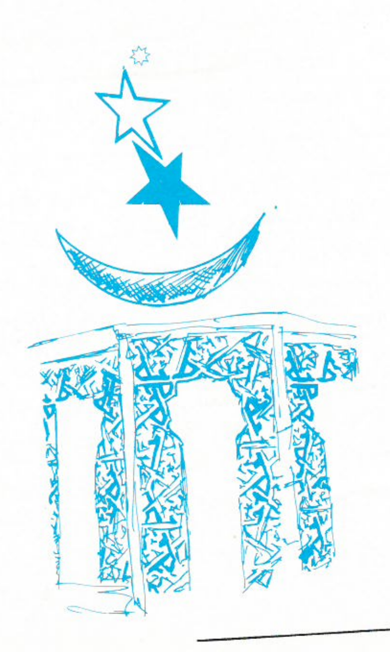
دعوة مبكرة الى التجريد

وكثيرون هم اولئك الذين اكدوا على أهمية (التجريد) من فلاسفة الغرب وفنانيه ... التجريد كمعبر ، أو جسر ، او وسيلة للحوار بين الفنان والعالم وهم في هذا انما يقررون ما كان الاسلام قد اكده بتحريمه للنقل المباشر عن الطبيعة ، وذلك النقل الساذج الذي يعيد نسخ المخلوقات الحية على سطوح الجدران والمعابد واللوحات .. وانه وان كان هذا (التحريم) ينبثق عن فكرة (التحرر الوجداني) العميقة الشاملة التي اراد بها الاسلام ان ينقل الانسان من عصور الوثنية والتعبد للقريب الملاصق ، الى سماوات التوحيد الخالص والطموح للامتداد النفسي الى ما وراء المنظور والملموس .. فان هذا التحريم يجيء في الوقت ذاته رفضا فنيا ، بشكل من الاشكال ، لنظرية (المحاكاة) التي رفضها عدد من كبار الفنانين والنقاد المعاصرين (بيكاسو ، وبراك ليجيه ، وكاسيرر ، ولالو ، وكروتشه ، ومالرو ، وغيرهم) لاسيما وان تحريما كهذا جاء يحمل في الوقت ذاته طفرة بالعطاء الفني التقليدي الى الامام .. الى آفاق

التجريد والتعبير غير المباشر عن العلائق المتشابكة بين الفنان والعالم بما ينسجم وتصور الاسلام عن هذه العلائق .. كما جاء اشارة - غير مباشرة - الى ضرورة امتلاك الفنان القدرة على التعبير والتحوير الامر الذي يقوده الى التجريد .

لوحتان

ونختتم عرضنا الموجز هذا بهاتين اللوحتين اللتين يرسمهما القرآن عن الكفار (أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى ، فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين . مثلهم كمثل الذين استوقد نارا ، فلما أضاءت ما حوله ، ذهب الله بنورهم ، وتركهم في ظلمات لا يبصرون . صم بكم عمى فهم لا يرجعون . أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصواعق حذر الموت ، والله محيط بالكافرين . يكاد البرق يخطف ابصارهم كلما اضاء لهم مشوا فيه ، واذا اظلم عليهم قاموا ..)[١٢] ..



(والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيمة يحسبه الظمآن ماء ، حتى اذا جاءه لم يجده شيئا ، ووجد الله عنده فوفاه حسابه ، والله سريع الحساب . أو كظلمات في بحر لجىء يغشاه موج من فوقه موج ، من فوقه سحاب ، ظلمات بعضها فوق بعض ، اذا اخرج يده لم يكد يراها ، ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور)[13] . .

وصدق الله العظيم .

---

(١) سورة البقرة ١٦٤

(٢) سورة الانعام ٩٥ ـ ٩٩

(٣) سورة عبس ٢٤ ـ ٣١

(٤) سورة التكوير ١٥ ـ ١٦

(٥) سورة فصلت ١١

(٦) سورة النحل ٦

(٧) زكريا ابراهيم : برجسون ص ٢٨٤ (دار المعارف ، القاهرة ـ ١٩٥٦) .

(٨) د . زكريا ابراهيم : مشكلة الفن ص (٢٢٧) (مكتبة مصر) .

(٩) د . زكريا ابراهيم : فلسفة الفن في الفكر المعاصر ص ١٣٦ ـ ١٣٧ (مكتبة مصر) .

(١٠) المرجع السابق ص ١٣٥ .

(١١) المرجع السابق ص ٣٥٧ ـ ٣٥٨ .

الوجداني) المميقة الشاملة التي اراد بها الاسلام ان ينقل الانسان من عصور الولنية والتعبد

١٢) سورة البقرة ١٦ ـ ٢٠ .

(١٣) سورة النور ٣٩ ـ ٤٠ .

رسالة الإسلام في أفريقيا

د . محمود سلام زناتي

من الحديث المعاد أن الاسلام يجد في افريقية أرضا خصبة . وقد اعترف بهذه الحقيقة رجال الغرب الذين اتصلوا بالافريقيين سواء عن طريق التبشير أم الدراسة . ولكنهم اختلفوا في تقييم الآثار المترتبة عليه ، وبالتالي في تحديد موقفهم منه . فرحبَّت به قِلَّة منهم لأنها رأت فيه سبيلا لارتقاء القبائل الافريقية سلم الحضارة والمدنية ، ووسيلة لتحقيق نوع من الوحدة والانسجام في معتقداتها وتقاليدها يُيَسِّر حكمها ويسَهِّل ادارة شؤونها . أما غالبيتهم فكانت تنظر وما زالت الى انتشار الاسلام في أفريقية نظرة خوف مقترنة بغيظ وحنق . ولذلك راح هؤلاء يؤكدون أن ليس من مصلحة أفريقية انتشار الاسلام بها . وأخذوا يَبثُو ن في مؤلفاتهم عبارات الاتهام للاسلام والتهجم عليه وتجريح العرب والحملة عليهم .

والمجال هنا لا يتسع لتتبع كتابات هؤلاء الناقمين ، ولا مفر من الاكتفاء بذكر بعض الامثلة وهى كافية للتدليل على ما يعتمل في أفئدتهم من حقد دفين وما تنطوى عليه حملتهم من تجن ظالم وكذب مفضوح .

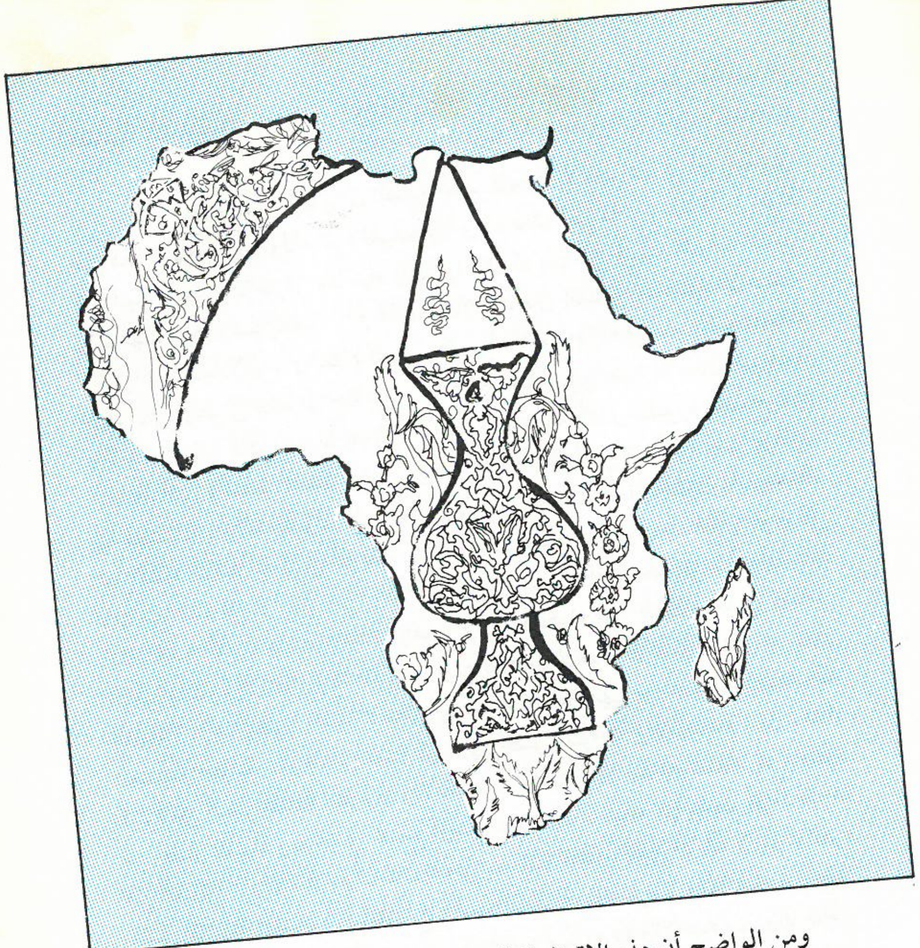
العربي العدد ١١٤ مايو ـ آيار ١٩٦٨ م

فها هو أحدهم - سوبيه - وقد كان يشغل منصب النائب العام في الكنجو البلجيكي (كونجوكينشاسا أو زائير الان) يقول في كتاب له بعنوان « مبادىء قانون الكونجو البلجيكي » : « اذا بدت أخلاق الاهلين في كثير من الاحيان بربرية كأكل لحوم البشر ، والرق ، والابتلاءات ومحاربة السحرة ، والقرابين البشرية ، فان ذلك لم يكن دائما ولا في كل مكان . وكثير من هذه العادات كان مخالفا للقانون وجاء بخاصة تحت تأثير العرب » . ويسوق المؤلف اتهامه في هذه العبارة الغامضة دون أن يحدد أى هذه العادات جاء عن طريق العرب ، ولا كيف جاءوا بها .

ويقول مؤلف آخر - ميراب - في كتاب له عن النظم القانونية في الحبشة وفي صدر الكلام عن تعدد الزوجات لدى « الجلا » أحد شعوب الحبشة « أن هذا الشعب يعيش على الفطرة بعيدا عن محاكاة تعدد الزوجات الذي لا ضابط له عند العرب وفي المدن الاسلامية في آسيا وأفريقية».

ويقول ثالث - وسترمان« كون الاسلام يمثل في أفريقية شكلا حضاريا اكثر سموا يجعل من السهل ادراك لماذا يحظى بتقدير وتعاطف كثير من الأوروبيين وفي بعض الاحيان يوصي به بوصفه أكثر الديانات ملاءمة للأفريقى . وأولئك الذين يتبنون هذا الرأى ينبغى لهم - مع ذلك - الا يتجاهلوا أن الاسلام يخفق في بعض الوجوه ، ومن المشكوك فيه أنه بحضارته الأرقى قد أدخل أخلاقا أكثر سموا » .

ويقول رابع - كنج - في كتاب له عن « الطوارق أو الملثمين » وفي معرض المقارنة بين المرأة العربية والمراة الطوارقية أن « الفتاة العربية يبيعها أبوها في الواقع ، الى زوجها . وليس لها تقريبا أى دور في اختيار هذا الزوج . وبعد الزواج تكاد تقوم بكل العمل اليدوى الثقيل في الاسرة ، وهي تعامَل من قِبَل زوجها - لا سيما في الطبقات الفقيرة - معاملة لا تَفْضُل كثيرا معاملة الحيوان الاليف ، بل انها في بعض الاحيان تُشَدُّ الى المحراث ! أما لدى الطوارق فلا نسمع على الاطلاق عن وضع مشابه ، لأن لصوص الصحراء هؤلاء يعاملون زوجاتهم باحترام مماثل تقريبا لما يلقاه الزوجات من احترام في معظم البلاد الأوروبية المتمدنة » .



ومن الواضح أن هذه الاقوال لا تخرج عن كونها مجرد افتراءات لا نصيب لها من الصحة وقد عنّ لي أن أستعرض في هذا المقال بعضا من الجوانب المشرقة للاسلام في أفريقية مما يدحض أقوال هؤلاء الناقمين ويكشف عن زيفها . وساقصر حديثي على الموضوعات التالية : العصبية القبلية ، وأد الاطفال ، ملاحقة السحرة ، شرب الخمر ، الترخص الجنسي ، تعدد الزوجات ، وضع المرأة .

العصبية القَبَلية

كان النظام القَبَلى وما يزال الطابع المميز للحياة الاجتماعية في أفريقية وفي
ظل هذا النظام يكون ولاء المرء لقبيلته ولا ولاء عنده لغيرها . ويسود بين أفراد
كل قبيلة شعور الاعتزاز بالانتماء اليها والاعتقاد بأن بنى قبيلته أشرف الناس
وأكرمهم وأجدرهم بالحياة . ويحكم العلاقات بين القبائل المختلفة الاحتقار
والكراهية المتبادلان ، والنظام القَبَلى يمثّل مرحلة من مراحل تطور المجتمعات
البشرية . وهو في هذه المرحلة يبدو شكلا طبيعيا يحتوى حياة الانسان السياسية
والاجتماعية . لكن عندما يدخل المجتمع مرحلة أكثر تطورا يصبح هذا
النظام أذى وعنصر اضطراب . ويبدو عندئذ التخلص منه أمرا ليس مرغوبا
فيه فحسب ، وانما أيضا لا غنى عنه . وفي ظل ظروف الحياة الحديثة لم يعد هناك
محل لبقاء النظام القَبَلى فى أفريقية ، كما حدث بالفعل في دول مستقلة يتكوّن كل
منها من عدد قلّ أو كَثُر من القبائل . وبقاء النظام القَبَلى حيا من شأنه أن يهدد
كيان هذه الدول ويدمر استقرارها . وترك القضاء على النظام القَبَلى لعامل
الزمن يستلزم الانتظار وقتا طويلا ، ولن يتحقق الا فوق آلاف الجثث وعبر أنهار
الدماء . وهنا تظهر اهمية الاسلام بوصفه عاملا مهما من عوامل اضعاف
العصبية القَبَلية ، وبالتالى سببا مهما الى تحقيق التوافق والانسجام بين أعداد
كبيرة من البشر مختلفة العروق والانساب . فاعتناق الاسلام وتغلغله يحرر الفرد
من اطار القبيلة ويدمجه في مجتمع أوسع يضم أفراد قبيلته كما يضم أفراد غيرها
من القبائل . والاسلام وأن كان يعجل بتفكك النظام القَبَلى الا أنه لا يترك الفرد
القَبَلى فريسة الشعور بالضياع ونهب التمزق النفسي ، وانما يمنحه بديلا
لمجتمعه السابق مجتمعا أرحب تسوده أيضا قِيَمُ المودة والاخلاص والوفاء .
والاسلام بادخاله الأفريقي المسلم في المجتمع الاسلامى لا يجعل منه عضوا من
الدرجة الثانية بل يسوى بينه وبين غيره من المسلمين ايا كانت صورهم
وألوانهم ، وأيّاً كانت ألسنتهم وأوطانهم . وقد أقر بذلك مؤلفو الغرب
أنفسهم . فها هو أحدهم ـ مودل ـ يقول : « ان الاسلام يأخذ بيد الزنجى ،
ويمنحه المساواة مع الناس جميعا . فمنذ اليوم الذي يعتنق الوثنى فيه الاسلام لا
يقدر أى مسلم من الساميين ان يتمسك في مواجهته بسمو في الجنس . فالاسلام

بالنسبة للزنجى سُلَّم نحو مفهوم أسمى للوجود ، حيث يلقى في صدره بالثقة
في مصيره ويُشْرِب روحه ايمانا قويا بنفسه وجنسه » .

وأد الأطفال

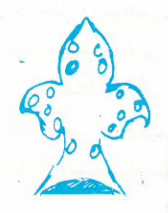
تنتشر في المجتمعات القبلية عادة وأد الاطفال . وهم يلجأون الى وأدهم
لعديد من الاسباب فقد يوأد الطفلان لأن القدر شاء أن يأتيا معا وقد يوأد أحدهما
ويُبْقَى على الآخر . وقد يوأد الطفل لأنه اطل على الدنيا بقدميه أولا بدلا من أن
يطل عليها برأسه ، أو لأنه وُلِد بدون ذراع أو ساق ، أو لأنه ولد وأحَدُ كفَّيْه
ينقص أو يزيد اصبعا . وقد يوأد لأن قواطعه العليا ظهرت قبل أن تظهر قواطعه
السفلى على خلاف المعتاد . كل ذلك اعتقاد بأن الروح التي أتت بالطفل روح
شريرة ، وأنه نذير شؤم ، وأن من شأن الابقاء عليه أن يجلب على أهله المصائب
والكوارث ، فيسارع القوم الى التخلص منه . قد تدفع أمه أو أحدى النساء
اللاتي يرافقنها الى سد فمه بكرة من الطين أو العجين ، أو قد تُكتم انفاسه ،
حتى يلفظها ، أو قد يُغْرق في نهر أو يُعلَّق الى فرع شجرة أو يترك في حفرة طعاما
للوحوش . ولا شك أن بعض حالات الوأد من الممكن تفسيرها بالرجوع الى
الظروف الاقتصادية الشاقة التى تعيش في ظلها هذه القبائل والتى تتطلب أن
يكون كل انسان قادرا على العمل والتى لا يقوى فيها المجتمع أو لا يرغب في
اعالة أناس ضعاف .

ومن المعروف أن الاسلام انكر على العرب زمن الجاهلية قتلَهم أولادهم
وشدَّد في النكير . قال تعالى : « قد خسِر الذِين قتلوا أولادهم سَفَها بغير عِلْم »
وقال تعالى : » ولا تقتلوا أولادكم خشية املاق ، نحن نرزقهم واياكم ، ان
قتلهم كان خِطْأً كبيرا » وركز القرآن الكريم على وأد الاناث : « وأذا الموءُودَةُ
سُئِلَتْ باى ذنبٍ قُتِلَتْ » ، « واذا بُشِّر أحدهم بالانثى ظلَّ وجهُه مسْوداً وهو
كظيم ، يتوارى من القوم من سوء ما بُشِّر به ، أيُمْسِكه على هون أم يَدُسُّه في
التراب ، الا ساء ما يحكمون » . واعتناق الأفريقيين الاسلام يستتبع تخليهم
عن هذه العادة اللاانسانية . وبالفعل قل أن نسمع لدى القبائل الأفريقية التى
اعتنقت الاسلام عن وأد الاطفال اذا أستثنينا أولئك الذين يأتون نتيجة علاقة

غير مشروعة . بل أن الخوف والكراهية التى ترتبط بالتوأم في القبائل الافريقية لا تقتصر عليهما وانما تمتد الى الام المسكينة ، ففى أكثر من قبيلة يُنْظَر الى الام التى تلد توأما نظرة تشاؤم وخوف و لذلك فانها تُطرَد من القرية ! وقد روى لنا بعض الباحثين كيف أنه وجد في بعض جهات أفريقية قرى تقع في الادغال لا يقطنها سوى النساء اللاتى شاء لهن القدر أن يَلِدن توأمين ، وهن يَعِشن في هذه القرى حياة بؤس وشقاء في عزلة وانطواء كاملين عن باقى أفراد الجماعة .

ملاحقة السحرة

يسود في القبائل الأفريقية الاعتقاد في السحر ، ويخشى الناس السحرة خشية عظيمة . وجزاء من تحوم حوله شبهة السحر جزاء بالغ الشدة . فالرجل أو المرأة الذي تنتشر الشائعات بممارسته السحر يُحْرَق أو يُغْرَق في النهر أو يُضْرَب عنقه بالسيف أو يُضْرَب بالعَصى حتى الموت . والغالب أن يكون ضحايا الاتهام بممارسة السحر أناسا جلبوا على أنفسهم لسبب أو آخر سخط المجتمع وكراهية . وقد يكونون اناسا فضّلوا لهذا السبب أو ذاك الحياة في عزلة وانطواء عن الجماعة ، فتحيطهم الشائعات وتوجَّه اليهم التهم ويُنسب الى عملهم الحاق الاذى بالناس وبأموالهم . ويُقِر العُرف القَبَلى بالسحر ويجعل منه جريمة يعاقب فاعلها عقابا غليظا . فمن أقيمت عليه الدعوى بممارسة السحر وثبت اتيانه أفعالا سحرية بقصد ايذاء الآخرين حكمت المحكمة عليه حكما قاسيا ، غالبا ما يكون الاعدامْ . واعتناق الاسلام يستتبع اختفاء هذه العادات ، فلا تسمع الدعوى بالسحر ، ولا يلاحق الناس بعضهم بعضا بتهمة السحر . ومن ثُم يزول سبب من اسباب ظلم الانسان لأخيه الانسان ، وهو ظلم مصدره الجهل ومبناه الوهم .



شرب الخمر

ومن العادات الشائعة في المجتمعات القَبَلية الأفريقية الوثنية تعاطى مشروبات مسكرة . فلا تكاد توجد قبيلة دون أن يكون لها شرابها الخاص ذو الطبيعة المسكرة . ويصنع هذا الشراب من المواد التى تكون في متناول يدها . فقد يُصْنَع من الشعير أو القمح أو الذرة أو الموز أو عسل النحل أو التمر . ويُقْبِل الأفريقيون على تعاطى هذه المشروبات ، وبخاصة في حفلاتهم ومواسمهم وأوقات فراغهم . وقد استغل الاوروبيون هذه العادة في الأفريقيين فأغرقوهم بأنواع خمورهم . . وقامت للخمور في أفريقية تجارة جَنَى الأوروبيون منها أرباحا طائلة ، ودفع الافريقيون ثمنا لها من كدهم وصحتهم وحياتهم . وهنا يظهر الفارق الواضح بين موقف الاسلام وموقف الحضارة الغربية . فالاسلام يدعو الناس الى الامتناع عن تعاطى المسكرات ، ولذلك فان اعتناقه يستتبع تخلى الافريقيين عن عاداتهم القديمة . أما الأوروبيون فيجدون فيها فرصة لاستغلالهم واستنزاف أموالهم وتدمير صحتهم .

ومما لا شك فيه أن ازدياد الثقافة الدينية وترسخ العقيدة الاسلامية في نفوس الافريقيين يؤدى في النهاية الى تخليهم عن عادة تعاطى المشروبات المسكرة . وقد اعترف بهذه الحقيقة حكام البلاد التى خضعت للاستعمار الأوروبى .

فقد بعث السير جورج دنتون مثلا ـ وكان حاكما لغامبيا ـ تقريرا رسميا الى وزارة المستعمرات يصف زيارته لداخل البلاد في يناير ١٩٠٢ ومما جاء في هذا التقرير : « لقد لاحظت في هذه الزيارة شيئا واحدا هو تقدُّم الاسلام في هذه المنطقة من العالم . فمنذ وقت قصير كان هناك عديد من السونينكي الوثنيين والفولا الوثنيين أيضا . والآن يزداد في كل يوم عدد المرابطين وبعد قليل سيصل عددهم الى ثلاثة أرباع عدد السكان على الاقل . وأعتقد أن ذلك سيكون في الجملة ذا فائدة مؤكدة للمستعمرة ولو أن الدخل من تجارة المشروبات الروحية ، وهو ليس كبيرا بالنسبة لغامبيا ، سيهبط دون شك ، لكننى أعتقد أن من الممكن تعويض القدر المفقود من مصادر أخرى » .

فالتقرير يشير في وضوح الى الارتباط بين انتشار الاسلام وبين ما يصيب تجارة الخمور من بوار . كما يشير من ناحية أخرى الى مدى الاهمية التى كانت الدول الاستعمارية تعلقها على هذا النوع من التجارة .

الترخص الجنسي

وفي كثير من القبائل الافريقية يسود نوع من الترخص الجنسي فتجيز تقاليد بعضها لشبابها وفتياتها الاتصال جنسيا قبل الزواج . بل أن قيمها الاخلاقية لا تنكر حتى أن تلد الفتاة طفلا أو اثنين من رجل أو رجلين قبل الزواج . وفي البعض الآخر تبيح التقاليد نوعا من العلاقات الجنسية بين الذكور والاناث لا ينطوى على وطء حقيقى . وباعتناق الاسلام تختفى هذه التقاليد القَبلية وتحل محلها القيم الاسلامية التى تحرم كل اتصال جنسي سابق على الزواج . كذلك تسود في كثير من القبائل الافريقية عادات ومعتقدات تشجع على ترخص الازواج . فالعُرف يحرِّم معاشرة الزوج زوجته اثناء الحمل أو على الاقل خلال الشهور الأخيرة منه وطيلة الفترة التالية للولادة حتى الفطام . وتمتد هذه الفترة عادة الى سنتين وقد تمتد الى ثلاث ، ولا يستطيع الزوج أن يصبر على الحرمان من المتعة الجنسية طيلة هذه المدة ، ولذلك يتساهل العرف في نظرته الى العلاقة الجنسية التى يكون مثل هذا الزوج طرفا فيها . وباعتناق الاسلام تزول هذه العادة ، ويزول بالتالى سبب مهم من أسباب الترخص الجنسي أثناء الزواج .

تعدد الزوجات

تمارس القبائل الافريقية تعدد الزوجات ، وليس في تقاليدها حد أقصى لعدد الزوجات اللاتي يجوز للرجل الجمع بينهن ، ومن زعماء القبائل وشيوخها من يحوز منهم العشرات بل المئات . ومن الواضح أن تعدد الزوجات الذي يتخذ هذه الصورة هو مجرد مظهر من مظاهر التباهى والتفاخر بين العظماء . ومن البديهى أن إكثار الاغنياء والوجهاء من حيازة النساء من شأنه أن يقلل

فرص الآخرين في الزواج أو يصعبه عليهم . والزوجات اللاتى يصل عددهن الى العشرات والمئات زوجات جد تعسات لا تنالهن من الزواج سوى قيوده والتزاماته دون حقوقه ومزاياه . وكيف يتصور أن يقوم رجل واحد بحق عشر من النسوة بل عشرات أو مئات ، والاسلام بوضعه حدا أقصى لعدد الزوجات يضع حدا لسوء استعمال نظام فرضته أو قد تفرضه ظروف معينة . وفي الواقع اذا استثنينا زعماء القبائل وشيوخها لوجدنا أن الوضع العادى لتعدد الزوجات هو الجمع بين زوجتين أو ثلاث . ومن سمات تعدد الزوجات في أفريقية وجود زوجة ينظر اليها بوصفها الزوجة العظيمة أو الكبيرة . وهى تتمتع بامتيازات لا تتمتع بها الزوجات الاخريات ، بل انهن مدينات لها بالاحترام والتبجيل . وقد يعترف لها في بعض القبائل بسلطة الامر والنهى عليهن ، فتراقب أعمالهن وتوجه سلوكهن ، وتسائلهن عن أخطائهن . ومع الاسلام يختفى نظام الزوجة العظيمة وتسود المساواة بين الزوجات .

كما أن اباحة الاسلام تعدد الزوجات يسمح للمجتمعات القبلية بأن تحقق تطورها دون التعرض لهزات عنيفة تهد كيانها وتدمر قيمتها . . وقد طالب بعض المبشرين كنائسهم باعادة النظر في موقفها من تعدد الزوجات بالنسبة للافريقيين أو على الاقل التساهل معهم في شأنه نتيجة للمصاعب والمشاكل الاجتماعية التى تنشا عندما يعتنق أحد الافريقيين المسيحية ويكون له أكثر من زوجة واحدة .

وضع المرأة

يعتقد كثير من المؤلفين الغربيين أن تأثير الاسلام في وضع المرأة الافريقية من الامور التى تحسب عليه لا له ، فهم يؤكدون أن انتشار الاسلام في أفريقيا يستتبع انحطاط وضع المرأة عما هو عليه في ظل التقاليد القَبلية . ونكتفى هنا بالاشارة الى أحدهم ـ وهو ترمنجام ـ الذي يقرر أن أثر الاسلام في وضع النساء يختلف تبعا لمدى تغلغل العقيدة الاسلامية ، وانه كقاعدة عامة كلما اشتدت قبضة الاسلام ازداد وضع النساء انحطاطا . وهى دعوى ظالمة مالها من أساس . فمن يتناول بالدراسة الجادة وضع المرأة في التقاليد ووضعها بعد اعتناق الاسلام ، لا يملك الا أن يقر بالاثر الحميد للاسلام في هذا المجال .

ونشير هنا الى بعض مظاهر التحسن الـذى يطرأ على وضع المرأة عنـد اعتناق الاسلام .

ففى التقاليد القَبَلية لا يعتبر المهر حقا للزوجة وانما حقا لاوليائها ، بينما هو في الاسلام حق للزوجة نفسها . ويستتبع اعتناق الاسلام الاعتراف للمرأة بالحق في المهر الذى يدفع بمناسبة الزواج منها . ولا يتحقق هذا التطور دفعة واحدة وانما يتم بصورة تدريجية . حيث يعترف للمرأة بالحق في الحصول على نصيب من مهرها بينما يحصل أهلها على النصيب الآخـر . ومع الـزمن يزداد نصيب المرأة ويقل نصيب الاهل حتى ينتهى الأمر باعتبار المهر حقا خالصا للمرأة طبقا لما هو مقرر في الشرع الاسلامى .

ولا تعترف التقاليد القَبَلية كقاعدة عامـة ، للزوجة عند انحلال الزواج بأى حق في حضانة أولادها فيما عدا الاطفال الرُّضَّع الذين يصحبـون أمهم ويبقون معها الى حين فطامهم حيث يعودون الى الأب . وقد ظهر تأثير الاسلام هنا في الاعتراف للمرأة بالاحتفاظ بأولادها معها الى حين بلوغهم سنا تتجاوز بكثير هذا الحد الادنى .

وليس للمـرأة في ظل التقـاليد القَبَليـة ، كقاعـدة عامـة ، أى حق في الميراث ، لا سيما بالنسبة لعناصر الثروة الرئيسيـة وهى الماشيـة لدى القبـائل الرعوية والارض لدى الشعوب الزراعية . واعتناق الاسلام يستتبع الاعتراف للمرأة بالحق في الحصول على نصيب من التركة . ويتدرج هذا النصيب من كونه مجرد نصيب تافه الى أن يصبح النصيب المقرر لها في الشرع الاسلامى .

وفي التقاليد القبلية ترد بعض القيود على حرية الأرملة حيث تُلزم بمعاشرة أحد أقـارب زوجها . وفي كثير من الاحيان تضطر المرأة الى معاشرة رجل لا تكون راغبة في معاشرته . ويتجه هذا التقليد لدى القبائل الافريقية التى اعتنقت الاسلام نحو الاختفاء وابسط الأمثلة على ذلك أن الزواج لدى « الجلا » اذا أُبرمَ طبقا للتقاليد القَبَلية أُلْزمت الارملة عند وفاة زوجها بالزواج من أقرب أقاربه . أما اذا تم الزواج أمام قاض مسلم لم يتولد عنه هذا الحق ويكون للارملة حرية الزواج ممن تريد .

وبعـد فلعل في هـذا العرض السريع لبعض الآثار الحميدة للاسلام في أفريقية ما يدحض مزاعم المتقولين عليه والجاحدين فضله .

لمحاتٌ مِنَ الاقتصادِ الإسلاميّ

د. محمّد فاروق النبهان

تحتل الدراسات الاقتصادية اليوم مركز الصدارة بين الدراسات الحديثة ، لأن المشكلة التي تعترض المجتمع البشري هي مشكلة اقتصادية ، نشأت من وجود حاجات متعددة للأفراد ، لاتكفي الموارد المحدودة لاشباعها ، فتحاول كل من النظم الجماعية في العالم أن تقدم الحل المناسب للقضاء على هذه المشكلة .

العربي العدد ١١٧ أغسطس ـ آب ١٩٦٨م .

الفكر الاقتصادي في العالم

ولو حاولنا أن نرجع الى نشأة الفكر الاقتصادي خلال التاريخ ، لوجدنا أنه قديم منذ فجر التاريخ ، وهو يختلف عن علم الاقتصاد اختلافا بينا ، وعلم الاقتصاد علم ظهر في العصر الحديث .

والفكر الاقتصادي لايعتمد على نظريات متكاملة ، بل هو مجرد آراء فكرية تصدر من فيلسوف من الفلاسفة ، أو قوانين وضعية تحاول وضع تنظيم لحالة اقتصادية معينة ، دون أن تعتمد على دراسة اقتصادية دقيقة .

وقد تجلى الفكر الاقتصادي من خلال ما قام به بعض أباطرة الصين من تصرفات تنظيمية تتعلق بالاوضاع الاقتصادية ، كتحديد الاسعار وفرض الضرائب ، واقامة بعض المنشئات التابعة للدولة .

وظهر الفكر الاقتصادي في الديانات السماوية من خلال بعض الأحكام التي ذكرت في الكتب المقدسة ، أو بعض الآراء التي صدرت عن رجال الدين المسيحي .

وقد حاول بعض الكتاب المسيحيين خلال العصور الوسطى دراسة بعض المسائل الاقتصادية لبيان رأي الكنيسة فيها .

الفكر الاقتصادي في الاسلام

وجاءت كتب الفقه والاصول مليئة بالافكار الاقتصادية ، ولكننا لانستطيع أن نطلق عليها اسم العلم ، لأن العلم بحد ذاته هو كل بحث منظم متكامل الاجزاء ، يجري طبقا لطرق محددة من طرق التحليل ، ويقصد به استخلاص القوانين العامة من الظواهر الفردية الجزئية البسيطة .

فلو رجعنا الى كتب الفقه لوجدنا أحكاما تتعلق بتحريم الربا والاحتكار ، وأحكاما أخرى تتعلق بتحديد الاسعار ، أو عدم جواز ذلك ، أو مراقبة الاسواق ، فهذه الاحكام هي أفكار اقتصادية ، ولكن لانستطيع أن نطلق عليها اسم علم الاقتصاد .



ظهور علم الاقتصاد :

يعتز علماء الغرب بأنهم أول من أوجد علم الاقتصاد ، ويذكرون هذا في معرض الكتابة عن تاريخ علم الاقتصاد ، ثم ينطق المؤرخون بعد ذلك مرددين هذا الرأي .

وأول من كتب في هذا الموضوع في رأيهم آدم سمث ، وهو الفيلسوف الاسكتلندي الذي كتب كتابا عن ثروة الأمم عام ١٧٧٦ .

وقد اعتبر رجال الاقتصاد الغربيون أن هذا الكتاب أول كتاب أرسى قواعد علم الاقتصاد ، ولقبوا كاتبه بأبي الاقتصاد السياسي .

ابن خلدون وعلم الاقتصاد :

على أن ابن خلدون كتب مقدمته العظيمة في القرن الثامن الهجري ، ودرس فيها الظواهر الاقتصادية والعمرانية دراسة متينة ، وبين ما بينها من ترابط وتلازم ، معتمدا في ذلك على الاستقراء والقياس ، وهو نفس اسلوب العمل الذي قام به آدم سميث بعد أربعة قرون .

وقد أكد هذا بالمعنى الدكتور محمد على نشأت الذي قام بدراسة علمية عن الفكر الاقتصادي في مقدمة ابن خلدون ؛ قال فيها :

« ان كتابة ابن خلدون جديرة بأن تكون نقطة البدء للممارسة العلمية في الاقتصاد ، فهي ليست مجرد جمع لمعارف منوعة ، ولكنها مجموعة معارف منظمة

ومرتبة ، ينطبق عليها لفظ العلم في معناه الدقيق . »

الملامح الرئيسية للاقتصاد الاسلامي :

واذا لم يظهر علم الاقتصاد في الاسلام كعلم مستقل متكامل ، فما أجدرنا نحن اليوم أن نستخرج من بطون الكتب الاحكام التي تتعلق بالاقتصاد ، والتي نستطيع أن نكون بها علما مستقلا متكاملا .

فالكتب الفقهية مليئة بالاحكام التي تتعلق بالاموال ، ولو حاولنا أن نجمعها بعضها مع بعض، لاستطعنا أن نكون منها مجلدات كثيرة ، ومع ذلك فان هناك كتبا متخصصة تبحث في كل ما يتعلق بأحكام الأموال في الفقه الاسلامي ، وأهم هذه الكتب (الأموال) لابي عبيد القاسم بن سلام ، و (الخراج) ليحيى بن آدم ، و (الخراج) لأبي يوسف ، (والأحكام السلطانية) للماوردي ، و (الحسبة)لابن تيمية ، وغير ذلك من الكتب التي تعرض للابحاث الاقتصادية التي كانت شائعة في ذلك الحين .

وأهم صفة بارزة في الاقتصاد الاسلامي هي الاعتدال ، والاعتدال ينافي التطرف ، لأن التطف يجمع معه الحرج والمشقة ، وهو غير صالح لجميع الأزمان ، ولايحقق العدالة لجميع الافراد ، وغالبا ما يحدث نتيجة لردود فعل عكسية تنتهي بانتهاء أسبابها ،

ويظهر هذا المبدأ بكل وضوح في مجال نظرية الحق المطلق الذي وجد قبل وجود الانسان ، وقالوا أن الفرد يولد وهو متمتع بحقوق طبيعية مصونة سابقة في وجودها على القانون ، ويأتي القانون ليحمي هذا الحق ، وليمكن الفرد من ممارسته .

أما القسم الثاني : فينكر فكرة الحق المطلق ، ولايجيز للفرد أن يتصرف في أي حق من حقوقه الا ضمن ما يتعرف به القانون وما يسمح له به ، لأن القانون هو المانح للحقوق ، وبالتالي يستطيع القانون أو يسترد ما قام بمنحه للافراد .

ويقف الاسلام بين هذين الرأيين وقفة الاعتدال ، فلايعترف بالحق المطلق ، لأنه يلحق الضرر بالجماعة ، ولاينكر فكرة الحق ، لأن نكرانه اهدار

لكرامة الفرد ، بل يعترف بوجود فكرة الحق ، ولكنه يقيده بالا يستخدمه صاحبه ، الا وفق ما تأمر به الشريعة .

نظرية الملكية الفردية

يعتبر موضوع الملكية من أهم الموضوعات التي أثارت انتباه الباحثين في العصور الحديثة ، وكانت موطن نقاش عنيف بين انصار المذهب الفردي وأنصار المذهب الاشتراكي .

والملكية هي العلاقة التي أقرتها الشريعة بين الانسان وماله ، بحيث يتمكن من الانتفاع به بجميع الوسائل المشروعة ، ضمن الحدود التي أجازتها الشريعة .

ويختلف مفهوم الملكية في الاسلام عن مفهومها لدى كل من المذهبين الفردي والجماعي ، وهذا المفهوم ينبع بالاساس من طبيعة الملكية الفردية في الفقة الاسلامي ، التي تختلف في نشأتها ومظهرها ونتائجها عن طبيعتها في النظم الأخرى ، فهي ليست مطلقة ، لأن النصوص صريحة في منع الافراد من التصرف في ملكياتهم بطرق تلحق الضرر بالجماعة ، ولذلك أقر الفقهاء جواز الحجر على السفيه ، لأنه يتصرف في ملكيته تصرفا يلحق الضرر بالجماعة ، وهي ليست ملكية جماعية ، لأن النصوص واضحة في اقرار الملكية الفردية ، ولكن عليها حقوق للجماعة لابد من وفائها .

وقد تعرض علماء الشريعة للقيود المفروضة على الملكية خلال بحثهم عن الضرر والنهي عن وقوعه ، فلا يجوز للمالك أن يستعمل ملكيته بطريقة تلحق الضرر بالآخرين .

روى ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (لاضرر ولا ضرار) .

ويعتبر هذا الحديث ذا أهمية كبيرة في التشريع الاسلامي ، وهو قاعدة عامة شاملة لجميع أنواع الضرر بأي صفة كانت .

❊

←

الحقوق المترتبة على الملكية :

ولم يكتف الاسلام بفرض القيود على الملكية ، بل أوجب على المالك بعض الواجبات والحقوق لمصلحة الفقراء والمحتاجين ، وأهم هذه الحقوق :

١ـ الزكاة : وهي الالتزام المالي الذي يجب على المسلم أن يؤديه الى الفقراء ، وهو قدر معلوم من المال مفروض على رؤوس الأموال يدفع لأصحابه المستحقين .

٢ـ التكافل الاجتماعي : وهو الحق الثانى الذي يجب على المالك أن يقوم به ، وهو حق زائد عن الزكاة ، قال أبو عبيدالقاسم بن سلام في كتابه (الأموال) الذي يعتبر من المصادر الرئيسية لأحكام الأموال في الاسلام : (ان في المال حقوقا سوى الزكاة ، مثل بر الوالدين وصلة الرحم وقرى الضيف) .

بين الزكاة والنظام الضريبي القائم :

ويلاحظ كل متتبع لدراسة علم المالية العامة أن الاسلام قد طبق منذ ثلاثة عشر قرنا أحدث ما توصلت اليه النظريات الحديثة في علم المالية في مجال تطبيق الضريبة ، وذلك حينما أخذ مبدأ تعدد الضريبة على رأس المال ، واعفاء الحد الادنى من الدخل من الضريبة .

فقد فرض الاسلام الزكاة على جميع الأموال ، سواء كانت أموالا نقدية أم عينية بنسب محدودة ، وفائدة الضريبة المتعددة انها لاتشعر دافع الضريبة بالثقل ، ولا ترهقه بالدفع ، لأنها موزعة على جميع أنواع المال ، كما أنها تحقق العدالة في توزيع الضرائب على المالكين .

والجدير بالذكر أن النظم الضريبية المعاصرة كانت تأخذ الى عهد قريب مبدأ الضريبة الموحدة المفروضة على أصل الثروة ، غير أن هذا المبدأ لقي معارضة شديدة ، لأن تلك الضريبة كانت تشكل عبئا كبيرا على المالك ، مما جعلها تتراجع أمام مبدأ الضريبة المتعددة المفروضة على جميع أنواع الدخل .

وكانت معالجة مشكلة الفقر في العصر القديم تقوم على أساس الاعتماد على فكرة الاحسان الاختياري ، الذي يقوم به الغني تجاه الفقير ، دون أن يكون الغني ملزما بذلك ، ولما جاء الاسلام فرض الزكاة ، ونقل مفهوم الاحسان من فكرة الاختيار الى فكرة الحق الواجب المفروض على الغني ، وبذلك أصبح الفقير يشارك الغني بجزء معلوم من ماله وهو مقدار الزكاة ، بحيث لايستطيع الغني أن يتخلف عن دفع هذا الحق ، فاذا امتنع فعندئذ يحق للدولة أن تجبره على ذلك .

ولم يعترف المجتمع الغربي بحق الفقراء في أموال الأغنياء الا في عام ١٦٠١ ، عندما أصدرت ملكة انجلترا أول قانون يعترف بحق الفقراء ، سمته (قانون الفقراء) .

ولو حاول المسلمون اليوم تطبيق نظام الزكاة تطبيقا صحيحا لقضي على مشكلة الفقراء قضاء مبرما ، ولاستطاعوا أن يبنوا مجتمعا صالحا يقوم على أسس متينة من العدالة والكفاية ، ولاستطاعوا أيضا أن يقدموا للبشرية نموذجا مثاليا للمجتمعات الصالحة التي تقوم على الحب والتعون والاخوة والسلام .

الوظائف الاقتصادية للدولة الاسلامية :

ولايقتصر عمل الدولة في الاسلام على حفظ الأمن في الداخل ، والدفاع عن الوطن في الخارج فحسب ، بل يجب عليها أن تقوم ببعض الوظائف الاقتصادية عندما تدعوها الحاجة لذلك ، ويتمثل عملها في شكلين :

الأول : الطرف الوقائي الذي يجب على الدولة أن تلجأ اليه بمنع الانحراف في المعاملات ، عن طريق مراقبة الأسواق والمعاملات الجارية بين الناس ، وتعتمد في ذلك على (نظام الحسبة) الذي تعرض له الفقهاء وبينوا أحكامه .

ويقوم ولي الحسبة بمنع الغش والتدليس في المبايعات ، وهناك كتب كثيرة تبحث في الحسبة ، منها (نهاية الرتبة في طلب الحسبة) للشيرازي المتوفي عام ٥٨٩ ، وفيه تكلم المؤلف من عمل والى الحسبة في مراقبة الحرف والصناعات ، وكيفية منع الغش فيها .

كما كتب ابن تيمية كتابا عن الحسبة في الاسلام أو وظيفة الدولة الاسلامية .

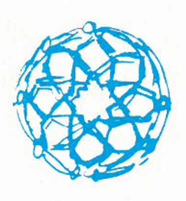
الثاني : التدخل في الشؤون الاقتصادية ، ولايكون ذلك الا عندما يحاول البائعون أن يجمعون ثروتهم عن طريق غير شرعي ، كالربا والاحتكار والاضرار بالناس ، وعندئذ يجب على الدولة أن تتدخل لمنع هذه التصرفات ، لأنها ضارة بالمجتمع .

وقد أجازت الشريعة لولي الأمر أن يحدد الاسعار اذا تمادى البائعون في غبن المشترين ، والأصل أنه لايجوز تحديد السعر ، الا أن الامام مالك أجاز التسعير لدفع الضرر عن الناس ، وقال ابن تيمية أن التسعير واجب اذا اقتضته مصلحة الجماعة ، وبين أن النصوص التي تمنع التسعير معللة بالا تؤدي حرية الاسعار الى الاضرار بالناس .

الاقتصاد الاسلامي اقتصاد اعتدال :

ان الاقتصاد الاسلامي يقوم على أساس معتدل ، فلا يتعصب للفرد على حساب الجماعة ، ولايتحمس للجماعة على حساب الفرد ، بل يحاول أن يحقق مصلحة الفرد والجماعة على السواء .

ونحن ندعو الباحثين في بلادنا الى العناية بدراسة الاقتصاد الاسلامي دراسة علمية موضوعية عن طريق استخدام الاحكام المتعلقة بالمال ، ومن بطون الكتب الفقهية ، وتلك الاحكام تستطيع أن تكون نواة لدراسة الاقتصاد الاسلامي . فنشوء علم اقتصادي عربي يجد مكانه رفيعا بين علوم هذا الزمان الحاضر .



الاقتصاد الإسلامي ومشكلة الفقر

د. محمد شوقي الفنجري

المشكلة الاقتصادية هي مشكلة الفقر ، وهي لا تتمثل كما يتصورها الاقتصاد التقليدي في ظاهرة الجوع والحرمان ، وانما في ظاهرة التفاوت الشديد في توزيع الثروات والدخول .

ولقد ادرك الاسلام منذ البداية اهمية العامل المادي ، فلم يهون من امره شأن المذاهب الروحية والمتصوفة ، ولم يغال فيه شأن المذاهب المادية والابيقورية ، وانما وضعه حيث يجب أن يوضع عاملا مؤثرا ضمن عوامل اخرى .

وكان للاسلام مفهوم وتصور خاص للمشكلة الاقتصادية يختلف عن تصور الاقتصاد الرأسمالي ، والاقتصاد الاشتراكي ، وبالتالي اختلفت المواقف .

العربي العدد ١٦٩ ديسمبر ـ كانون الأول ١٩٧٢م .

ونبين ما تقدم ، في ثلاثة مطالب متتالية :
المطلب الاول : ماهية المشكلة الاقتصادية .
المطلب الثاني : العامل المادي وتفسير التاريخ .
المطلب الثالث : تصور الاسلام للمشكلة الاقتصادية وموقفه منها .

المطلب الاول

ماهية المشكلة الاقتصادية

تتمثل اهم مظاهر الحياة وبالتالي اهم مشكلاتها في سعي كل فرد او كل جماعة في توفير اسباب معيشتها ، وبالاخص اشباع حاجاتها المادية وهي (متعددة) على حين ان ما لديها من موارد واموال (محدودة) .

فالمشكلة الاقتصادية هي اهم مشكلات الحياة ، وهي ـ بحسب الرأي التقليدي السائد ـ مشكلة تعدد الحاجات وندرة الموارد .

وبعبارة مبسطة ، ان المشكلة الاقتصادية هي مشكلة الفقر الذي لا يعدو كونه مظهرا من مظاهر زيادة الحاجات على الموارد .

وهذه المشكلة وان كانت قديمة ، لازمت الانسانية منذ فجر التاريخ ، الا انها لم تشعر بوطأتها الا تدريجيا ، بزيادة حاجات الانسان تبعا لدرجة تطوره وتقدمه . فالانسان الاول رغم قلة موارده لم يكن يشعر بوطأة الفقر ، نظرا لقلة حاجاته وتطلعاته .

فمسألة الفقر نسبية تختلف باختلاف الزمان والمكان . ولا شك ان فقير العصر الحاضر ، يعتبر غنيا بالنسبة الى انسان العصور القديمة . كما ان متوسط الحال في مصر او الهند ، يعتبر فقيرا بالنسبة لمتوسط الحال الامريكي .

وقد بلغت مشكلة الفقر ذروة حدتها اخيرا في عصرنا الحالي ، وذلك بحكم سهولة اتصال الناس بعضهم ببعض وظهور الفوارق مع ازدياد الوعي الاجتماعي ، فالفلاح في القرية ذات الاقتصاد المغلق ، لم يشعر بفقره الا حين اتصاله بعالم المدينة . ومجتمع كاليمن قبل انفتاحه على العالم الخارجي لم يكن في عزلته يشعر بفقره او تخلفه الشديد .

حقيقة مشكلة الفقر

واننا لا نعدو الحقيقة اذا قلنا ان مشكلة الفقر لا تتمثل في الجوع والحرمان او قلة الموارد . بل في وجود التفاوت الشديد في الثروة والدخول ، سواء بين الافراد على مستوى المجتمع المحلي او بين الدول على مستوى المجتمع العالمي . فليس معنى الفقر هو العجز عن الاشباع البسيط للحاجات الاساسية ، بل هو عدم اللحاق في المعيشة بالمستوى السائد في المجتمع . والفقير فردا كان او دولة هو من يعيش في مستوى تفصله هوة سحيقة عن المستوى المعيشي السائد في المجتمع المحلي او العالمي .

ونخلص من ذلك ان المشكلة الاقتصادية ـ وهي مشكلة الفقر ـ ليست كما تصورها الرأي التقليدي السائد بانها مشكلة تعدد الحاجات وندرة الموارد . وانما هي مشكلة سوء توزيع الثروة والدخول . وبعبارة اخرى هي مشكلة الانسان وسوء تنظيمه الاقتصادي وهو الامر الذي ادركه الاسلام منذ البداية على نحو ما سنبينه .

المطلب الثاني

العامل المادي

ولقد ادرك الاسلام منذ البداية اهمية العامل المادي ، وانه بدون الخبز لا يستطيع ان يحيا الانسان ، ولكنه ادرك ايضا وبنفس المستوى انه ليس بالخبز وحده يحيا الانسان .

ومن ثم فقد جاء الاسلام ـ باعتباره خاتم الاديان ـ لا يقتصر على مجرد العقيدة والهداية الروحية . وانما جاء ايضا شريعة وتنظيما سياسيا واجتماعيا واقتصاديا للمجتمع . ذلك انه لا يمكن ان تستقيم الحياة بدون عقيدة توجهها ، وشريعة تنظمها . بل لا يمكن ان تستقيم العقيدة وتنمو الاخلاق ، اذا لم يطمئن المرء في حياته المعيشية . فالعقيدة والشريعة في الاسلام يكمل كل منها الآخر ،

ولا يقوم احدهما دون الآخر ، ويمكن تصويرهما بساقي الانسان لا يستطيع ان يمشي على ساق دون الاخرى .

واذا كنا لا نتصور الاسلام في بلد يلتزم بتعاليم الاسلام السياسية والاجتماعية والاقتصادية ، دون العقيدة . فانه ايضا لا يمكن ان نتصور الاسلام في بلد يقوم أهله بالصلاة والصيام وسائر العبادات ، بينما يغفل تعاليم الاسلام السياسية والاجتماعية والاقتصادية ، التي تكفل الشورى وتقرر المساواة وتضمن حد الكفاية لكل فرد . فالتزام الشريعة ـ لا سيما تعاليمها الاقتصادية ـ هو الذي يساعد على صفاء العقيدة وعلى خلق المجتمع الاسلامي ، مجتمع المتقين . بل ان غاية العقيدة والتعبد في الاسلام هي سلامة السلوك الاجتماعي وشرعية النشاط الاقتصادي ، « فالدين المعاملة » . واننا نعجب لهؤلاء الذين يركزون على العقيدة دون الشريعة او هؤلاء الذين يبحون اصواتهم بالمواعظ الدينية والدعاوي الاخلاقية ، دون ان يشغلوا انفسهم بتوفير اسبابها الموضوعية .

اكثر من ذلك ، جعل الاسلام العامل المادي في القمة والصدارة ووضع المشكلة الاقتصادية ـ وذلك منذ البداية وقبل ان تتطور الاحداث وتفرض المشكلة نفسها ـ حيث يجب ان توضع في الاساس وفي المقدمة . ومن قبيل ذلك :

أ ـ انه اعتبر المال زينة الحياة الدنيا وقوام المجتمع ، وانه نِعمَ العونُ على تقوى الله ، وان طلب المال الحلال فريضة وجهاد في سبيل الله ، وان من الذنوب ذنوبا لا يكفرها الا الهم في طلب العيش ، وان من فقه الرجل ان يصلح معيشته ويتأنق في حياته ، وان الله تعالى يحب ان يرى أثر نعمته على عبده .

ب ـ انه يساوي بين الفقر والكفر ، ولم يستعذ الرسول ﷺ من شيء بقدر استعاذته من الفقر ، فيقول عليه السلام : « كاد الفقر أن يكون كفرا » ، ويقول « اللهم اني اعوذ بك من الكفر والفقر » ، قال رجل أيعدلان ، قال : نعم .

جـ ـ انه حين طالب الناس بالعبادة وذكر الله علَّله في القرآن بقوله تعالى : « فليعبدوا رب هذا البيت . الذي اطعمهم من جوع وآمنهم من خوف ـ قريش ٣ ـ ٤ .

فأساس العبادة في الاسلام والسبيل اليها ، هو تأمين الناس في حياتهم المعيشية ، حتى ان موسى عليه السلام حين دعا الله تعالى بقوله : « قال رب اشرح لي صدري . ويسر لي أمري ـ طه/ ٢٥/ ٢٦ » قرنه بقوله « كي نسبحك كثيرا . ونذكرك كثيرا ـ طه/ ٣٣/ ٣٤ » ، وهذا ما عبر عنه المفكر الاسلامي الجزائري مالك بن نبي بقوله « كيف أصلي وأنا جائع » .

د ـ انه اعتبر مجرد ترك أحد افراد المجتمع ضائعا أو جائعا هو تكذيب للدين نفسه . فالله تعالى يقول « أرأيت الذي يكذب بالدين ، فذلك الذي يدع اليتيم . ولا يحض على طعام المسكين ـ الماعون/ ١/ ٣ » . وجاء في القرآن « ما سلككم في سقر قالوا لم نك من المصلين . ولم نك نطعم المسكين ـ المدثر/ ٤٢ ـ ٤٤ » .

وقوله تعالى « وما ادراك ما العقبة . فك رقبة أو طعام في يوم ذي مسغبة . يتيما ذا مقربة . او مسكينا ذا متربة ـ البلد/ ١٢ ـ ١٦ » . وقد سئل الرسول ما هو الافضل في الاسلام ؟ فقال « اطعام الجائع ونجدة من تعرفه ومن لا تعرفه » .

المطلب الثالث

تصور الاسلام للمشكلة الاقتصادية

فالمشكلة الاقتصادية في نظر الاسلام ليست نابعة من قلة الموارد الطبيعية ، مما قد يتعذر التغلب عليها كما رأى الرأسماليون . وليست نابعة من عدم بلوغ التطور غايته ، مما قد يستتبع اقرار المظالم الاجتماعية عبر المراحل التاريخية السابقة كما رأى الماركسيون . وانما تتجسد هذه المشكلة في ظلم الانسان بسوء توزيع الثروة ، الى جانب كفرانه للنعمة باهماله استثمار الطبيعة وموقفه السلبي منها أو عدم استغلاله جميع المصادر التي تفضل الله بها عليه استغلالا تاما .

وعلى نحو ما سنبينه تفصيلا ، عالج الاسلام كفران النعمة بما وضعه للانتاج والتداول من احكام ، كما كفل محو الظلم بما وضعه للتوزيع والاستهلاك

من تعاليم .
ونشير هنا بايجاز الى نص المفاهيم الاسلامية في مجالي الانتاج والتوزيع .

الفرع الاول ـ من حيث الانتاج :

الانسان هو خليفة في ارض الله

جاء الاسلام منذ أربعة عشر قرنا معلنا أن الانسان هو خليفة في أرض الله : « أني جاعل في الأرض خليفة ـ البقرة/ ٣ » . وانه تعالى سخر له ما في السموات وما في الأرض « وسخر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعا منه ـ الجاثية/ ١٣ » ، وذلك ليعمر الدنيا ويحييها وينعم بخيراتها ويسبح بحمده تعالى : « فانتشروا في الارض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون ـ الجمعة/ ١٠ » .

العمل والانتاج عبادة في الاسلام

وعلى اساس تصور ان الانسان خليفة في ارض الله ، جاءت تعاليم الاسلام حاثة على العمل والانتاج فالله تعالى يقول : « وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون ـ التوبة/ ١٠٥ » ، ويقول الرسول : «اعملوا فكل ميسر لما خلق له » . بل ان العمل وزيادة الانتاج في نظر الاسلام عبادة ، والفرد العامل قريب من الله ومثاب على عمله الصالح في الدنيا والآخرة ، فالله تعالى يقول : « ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات ويزيدهم من فضله ـ الشورى/ ٢٦ » ، ويقول الرسول : « العمل عبادة » ويقول : « من أمسى كالا من عمل يده أمسى مغفورا له يوم القيامة » ، كذلك اعتبر الاسلام السعي على الرزق وخدمه المجتمع افضل ضروب العبادة ، فقد ذكر للنبي رجل كثير العبادة فسأل: «من يقوم به : قالوا : اخوه ، قال : اخوه أعبد منه » وقد أراد أحد الصحابة الخلوة والاعتكاف لذكر الله ، فقال له الرسول : « لا تفعل فان مقام

احدكم في سبيل الله أفضل من صلاته في بيته سبعين عاما » . ويقول « لأن يمشي أحدكم مع أخيه في قضاء حاجته أفضل من أن يعتكف في مسجدي هذا شهرين » .

ولقد حدد الرسول مفهوم الايمان بقوله « ليس الايمان بالتمنى ، ولكن الايمان ما وقر في القلب وصدقه العمل » ، ولخص سيدنا عمر بن الخطاب نظرة الاسلام الى العمل والانتاج بقوله : « والله لئن جاءت الاعاجم بالاعمال وجئنا بغير عمل ، فهم أولى بمحمد منا يوم القيامة » .

بعض تعاليم الاسلام في ممارسة الانتاج

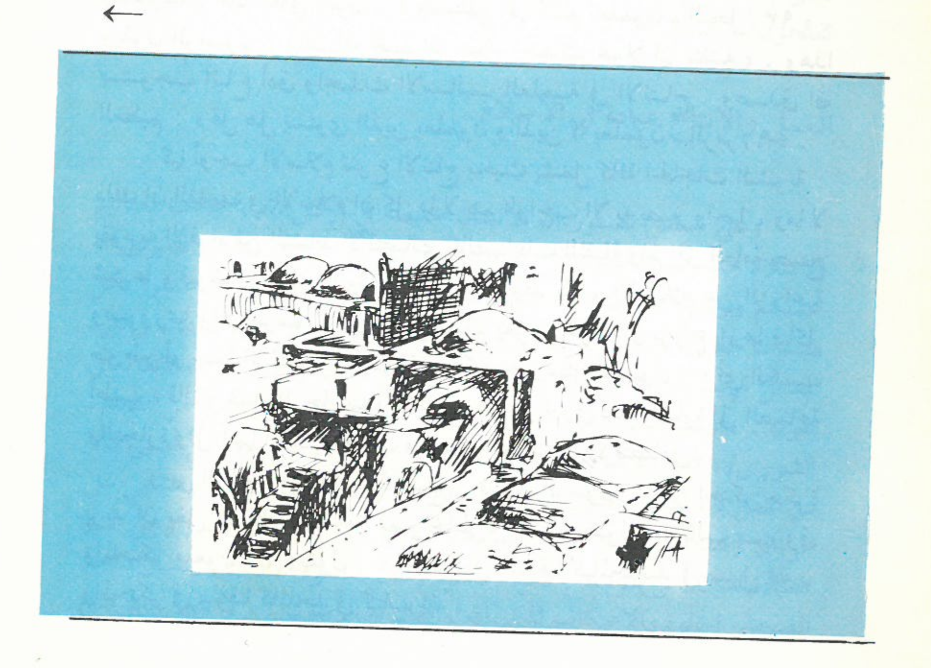
ولقد أوجب الاسلام اتقان العمل والانتاج ، واعتبر ذلك امانة ومسئولية ، فالله تعالى يقول : « ولتسئلن عما كنتم تعلمون ـ النحل/ ٩٣ » ، ويقول الرسول : « ان الله يحب اذا عمل احدكم عملا ان يتقنه » ، وهذا يستوجب اتباع أدق واحدث الاساليب العلمية في الانتاج . وصدق الله العظيم : « قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون ـ الزمر/ ٩ » .

كما أوجب الاسلام تنوع الانتاج بحيث يشمل كافة الحاجات البشرية : ذلك ان القاعدة في الاسلام ان كل ما لا يتم الواجب الا به يصير واجبا ، وما لا يقوم به الافراد من النشاط الاقتصادي كالصناعات الثقيلة والمرافق العامة يصبح شرعا « فرضا » على الدولة القيام به . وقد تكلم الاسلام عن الزراعة وضرورتها وقال الرسول : « ما من مسلم يغرس غرسا او يزرع زرعا فيأكل منه طير أو بهيمة الا كان له به صدقة » ولكن حين سئل الرسول : « أي الكسب أطيب » قال « عمل الرجل بيده وكل بيع مبرور » وفي ذلك اشارة الى الصناعة والتجارة والى أنهما أطيب الكسب وأهم أوجه النشاط الاقتصادي .

ونهى الرسول عن احتكار السلع : فيقول الرسول : « من احتكر حكرة يريد ان يغلى بها على المسلمين فهو خاطىء » ، ويقول « الجالب مرزوق والمحتكر ملعون » ، ويقول : « الجالب في سوقنا كالمجاهد في سبيل الله ، والمحتكر في سوقنا كالملحد في كتاب الله » .

كما نهى الاسلام عن اكتناز المال وحبسه عن الانتاج فالله تعالى يقول : « والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم - التوبة ٣٤ » ويقول الرسول (من جمع دينارا او تبرا او فضة ولا ينفقه في سبيل الله ، فهو كنز يكوى به يوم القيامة) ومن ثم يقول الرسول : « اتجروا في مال اليتيم حتى لا تأكله الزكاة » ، ويقول « ليس لمحتجز حق بعد ثلاث سنين » فتنزع الارض ولو كانت مواتا أو بورا من مالكها اذا انقضت عليها ثلاث سنوات بدون استثمار . وهو ما دعا عمر بن الخطاب أن يقول لبلال وقد اعطاه الرسول أرض العقيق : « ان رسول الله ﷺ لم يقطعك لتحجز عن الناس وانما اقطعك لتعمل ، فخذ ما قدرت على عمارته ورد الباقي » . بل لقد بلغ حرص الاسلام على الانتاج وتعمير الدنيا ، أن قال الرسول : « اذا قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة - أي شتلة - فاستطاع الا تقوم حتى يغرسها فليغرسها فله بذلك اجر » .

←



عوامل الانتاج في الاسلام

وقد اعتبر الاسلام من عوامل الانتاج ، عاملين هما :

(أ) العمل ويشمل عمل العامل (وهو المجهود الذي يبذله الانسان لخلق المنفعة سواء كان يدويا كعمل الفلاح والعامل ، أو عقليا كعمل المدرس والطبيب والمحامي . . . الخ) . كما يشمل عمل المنظم (وهو الذي يوجه العملية الانتاجية ويوائم بين عناصر الانتاج المختلفة بما يحقق سير الانتاج ومضاعفته) .

(ب) رأس المال ويشمل الطبيعة (أي الثروات التي ليس للانسان دخل في وجودها كالأرض والماء والحيوان والمناجم . . . . . الخ) . كما يشمل رأس المال بمعناه المعروف (أي الثروات الناتجة عن تضافر العمل والطبيعة ، والتي لا تصلح لاشباع حاجات الناس مباشرة وانما تستخدم لانتاج مواد اخرى صالحة للاشباع المباشر ، ومن قبيل ذلك رءوس الاموال السائلة كالنقود ورءوس الاموال العينية كالمباني والآلات) .

ويستفاد ذلك من اجماع فقهاء المسلمين على توزيع الربح - وهو حصيلة الانتاج - بين العمل ورأس المال . ففي عقد المضاربة ويسمى ايضا بالمقارضة يقدم احد الشركاء وهو رب المال أى المقارض (رأس المال) بينما يقدم الشريك الآخر وهو رب العمل اي المضارب (العمل) . . . وقد سمى كذلك لانه يضرب في الأرض ويسعى فيها قصدا الى المال وتنمية التجارة .

على ان يلاحظ ان رأس المال لا يعتبر في الاسلام عنصرا من عناصر الانتاج الا اذا شارك عنصر العمل في الانتاج متحملا غرمه . اما رأس المال لوحده (سواء كان في صورة رأس مال او أرض) ، فهو لا يعتبر عنصرا من عناصر الانتاج . وهذا هو السبب في ان الاسلام لا يعترف بالفائدة كعائد لرأس المال وحده (اي دون مشاركة في الربح والخسارة) ، كما انه على الرأي الذي نؤيده لا يعترف بالريع كعائد للارض وحدها (اي حالة التأجير دون الزراعة) ويكون الاصل فيه ان الأرض لمن يزرعها .

وتعتبر هذه المسألة من اهم المسائل التي يختلف فيها الاقتصاد الاسلامي ، عن كل من الاقتصاد الرأسمالي ، والاقتصاد الاشتراكي :-

ـ ففي الاقتصاد الرأسمالي عناصر الانتاج اربعة هي : العمل وعائده الاجر ، والطبيعة وعائدها الريع ، ورأس المال وعائده الفائدة ، والمنظم وعائده الربح . ويتحدد ثمن او قيمة كل عنصر من عناصر الانتاج سالفة الذكر على اساس سعر السوق الذي تحدده قوى العرض والطلب .

ـ اما الاقتصاد الاشتراكي فعنصر الانتاج الاساسي فيه هو العمل سواء كان يدويا او عقليا وعائده هو الاجر او الراتب ، والذي تحدده السلطات حسب خطة التنمية الاقتصادية آخذه في الاعتبار قوى العرض والطلب دون ان تتقيد بهما تقيدا تاما . اما بقية عناصر الانتاج الاخرى كالطبيعة ورأس المال والمنظم ، فتظل موجودة وانما ينتقل عائدها الى الدولة تتصرف فيها بحسب خطة التنمية .

ـ اما الاقتصاد الاسلامي فعناصر الانتاج فيه كما سبق ان قلنا هي العمل ورأس المال ، مع ملاحظة ان رأس المال وحده لا يكون له عائد ، الا اذا ساهم مع العمل في الغرم ، وحينئذ يكون له نصيب في العائد (ايا كانت نسبته بحسب الانفاق) في صورة ربح لا فائدة .

الفرع الثاني : من حيث التوزيع

المال مال الله والبشر مستخلفون فيه

جاء الاسلام ، منذ اربعة عشر قرنا ، معلنا ان كل ما في يد البشر من مال هو ملك لله اصلا (ولله ما في السموات وما في الأرض ـ النجم/ ٣١) ، وان البشر مستخلفون فيه (وانفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه ـ الحديد/ ٧) وانه لا يجوز للبعض دون الآخر ان يستأثر بهذا المال (وآتوهم من مال الله الذي آتاكم ـ النور/ ٣٣) .

فيقرر الاسلام أن حيازة المال ليست امتلاكا ، وانما هي وديعة او وظيفة ، ومن ثم يُلتزم فيها بتعاليم الاسلام (والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون ـ المؤمنون/ ٨) .

وقد جاءت تعاليم الاسلام في مجال التوزيع صريحة بان لكل حاجته اولا بقوله تعالى (وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ـ الاسراء/ ٢٦) ، وقوله تعالى (والذين في اموالهم حق معلوم للسائل والمحروم ـ المعارج/ ٢٤ ـ ٢٥) ، وقوله تعالى (وفي اموالهم حق للسائل والمحروم ـ الذاريات/ ١٩) ويقول الرسول عليه الصلاة والسلام (من ترك كلا ، فليأتني فانا مولاه) اي من ترك ذرية ضعيفة فليأتني بصفتي الدولة فانا مسئول عنه كفيل به ، وقوله (من ترك ضياعا فعلى ضياعه) .

وهذا الحق هو حق الله الذي يعلو فوق كل الحقوق ، وفي انكاره او اغفاله انكار للدين نفسه لقوله تعالى (أرأيت الذي يكذب بالدين ، فذلك الذي يدع اليتيم ، ولا يحض على طعام المسكين . . الماعون/ ١ ـ ٣) .

وقول الرسول (ليس المؤمن الذي يشبع وجاره جائع الى جنبه وهو يعلم) ، وقوله (ايما اهل عرصة اصبح فيهم امرؤ جائعا فقد برئت منهم ذمة الله ورسوله) ، وقوله (المسلم اخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه) . ويعلق على الحديث الاخير الامام ابن حزم في كتابه المحلى فيقرر ان (من تركه يجوع ويعرى فقد اسلمه) ، ويضيف ابن حزم ان للجائع عند الضرورة ان يقاتل في سبيل حقه في الطعام الزائد عند غيره (فان قتل الجائع فعلى قاتله القصاص ، وان قتل المانع فالى لعنة الله) .

كما ان هذا الحق مقرر لكل مواطن في المجتمع الاسلامي ، بغض النظر عن ديانته او جنسيته ، ويروى ابو يوسف في كتابه الخراج أن الخليفة عمر بن الخطاب رأى شيخا يهوديا يتكفف الناس ، فسأله عن السبب فقال : الجزية والحاجة والسن ، فأمر عمر بطرح جزيته وأن يعال من بيت مال المسلمين ، وأرسل الى خازن بيت المال : (انظر هذا وضرباءه فوالله ما انصفناه ان أكلنا شبيبته ثم نخذله عند الهرم) .

ولقد عبر الفقهاء القدامى عن هذا الحق باصطلاح حد الغنى او حد الكفاية تمييزا له عن حد الكفاف ، بمعنى ان لكل انسان حاجته الضرورية التي تختلف باختلاف الزمان والمكان ، بحيث اذا عجز لسبب خارج عن ارادته ان يوفر لنفسه الحد اللائق للمعيشة ، فان نفقته تكون واجبة في بيت مال المسلمين اي في خزانة الدولة .

وانه متى توافرت لكل فرد من افراد المجتمع حاجاته الضرورية من مأكل وملبس ومسكن . . . مما يسميه رجال الفقه الاسلامي بحد الكفاية تمييزا له عن حد الكفاف ، فان التوزيع يكون بعد ذلك على اساس ان لكل تبعا لعمله . فالقرآن يقول (للرجال نصيبٌ مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن - النساء/ ٣٢) ، والحديث النبوى يقول (لا بأس بالغنى لمن اتقى) .

نظرية التوزيع في الاسلام

وقد لخص الخليفة عمر بن الخطاب نظرية التوزيع في الاسلام بقوله : (ما من رجل الا وله في هذا المال حق ، الرجل وحاجته . . . والرجل وبلاؤه) ، وقوله (اني حريص على الا أدع حاجة الا سددتها ما اتسع بعضنا لبعض ، فاذا عجزنا تآسينا في عيشنا حتى نستوى في الكفاف) .

وفي اواخر ايام حياته حين بدأت تظهر طبقة ممعنة في الغنى ، ولم تسعفه طعنته في علاج الموقف ، قال كلمته المشهورة (لو استقبلت من امرى ما استدبرت لاخذت فضول الاغنياء فرددتها على الفقراء) .

هكذا الاسلام لا يسمح بالغنى الا بعد كفالة حد الكفاية ، كما لا يسمح بالتفاوت الفاحش في الثروة أو بالترف .

ومؤدى ما تقدم أن الاسلام لا يسمح بالغنى الا بعد توفير حد الكفاية لا الكفاف لكل مواطن . وبعبارة أخرى أنه لا يسمح بالغنى مع وجود الفقر ، وانما يبدأ الغنى والتفاوت فيه بعد إزالة الفقر والقضاء عليه نهائياً . ومن هنا فنحن مع القائلين أنه في الظروف العادية حيث يعم الفقر وينتشر الحرمان ، لا يجوز لأحد أن يمتلك أكثر من حاجته . ويؤكد هذا قوله تعالى (ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو - البقرة / ٢١٩) ، والعفو هنا هو ما زاد عن الحاجة . وقول الرسول عليه السلام :

(اذا بات مؤمن جائعاً فلا مال لأحد) ، وقول الرسول (ان الأشعريين اذا أرسلوا في الغزو أو قل طعام عيالهم في المدينة ، حملوا ما كان عندهم في ثوب

واحد ثم اقتسموه بينهم في إناء واحد بالسوية ، فهم مني وأنا منهم) ، وقول الرسول في سفر (من كان معه فضل ظهر فليعد به على من لا ظهر له ، ومن كان له فضل زاد فليعد به على من لا زاد له ، ويضيف الرواة أن الرسول ذكر من أصناف المال ما ذكر حتى رأينا أنه لا حق لأحد منا في فضل) .

كذلك فان الاسلام اذ يسمح بالغنى بعد ضمان حد الكفاية ، وذلك لكل تبعاً لعمله ، الا أنه لا يسمح بالتفاوت الفاحش في الثروة كما لا يسمح بالترف . فالغنى والتفاوت في الثروة والدخول ليس مطلقاً في الاسلام ، بل هو مقيد بقيدين أساسيين : -

أولهما - ألا يكون التفاوت في الغنى كبيراً ، اذ من أكبر بواعث السخط والجرائم في المجتمعات وخلق الطبقية والصراع بينها ، التفاوت الفاحش وتركز الثروة في يد فئة قليلة من الناس ، الأمر الذي نهى عنه الاسلام بقوله تعالى (كي لا تكون دولة بين الأغنياء منكم - الحشر / ٧) . وكشف عنه تصرف الرسول بتوزيع فيء بني النضير على المهاجرين واثنين فقط من الأنصار كانا من الفقراء .

ثانيهما - الا يؤدي الغنى الى الترف لقوله تعالى (واتبع الذين ظلموا ما أترفوا فيه وكانوا مجرمين - هود ١١٦) . وقد علمنا التاريخ أن الشعوب حين تبدأ حياة الترف والمغالاة ، فانه يكون ذلك إيذاناً بغروب شمسها وأفول نجمها ، وصدق الله العظيم (واذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها ، فحق عليها القول فدمرناها تدميرا - الاسراء / ١٦) . وهو ما عبر عنه الرسول ﷺ بقوله : (فوالله ما الفقر أخشى عليكم ولكن أخشى أن تبسط عليكم الدنيا كما بسطت على من قبلكم ، فتتنافسوها كما تنافسوها ، فتهلككم كما أهلكتهم) . وقد حلل ابن خلدون في مقدمته مبدأ كراهية الاسلام لأسلوب الترف بان من شأنه إشاعة السلبية والتكاسل ، وأنه جرثومة القضاء على الحضارة .

لقد أدرك الاسلام منذ البداية ، أن مشكلة الفقر لن يحلها الاحسان ، ولن تتداركها الاجراءات الاصلاحية التي تستهدف تسكين الآلام أو تخفيف الحرمان بل لا بد من حل جذري . ومن هنا كانت نقطة البداية في الاقتصاد الاسلامي ، بالاضافة الى الحث على اتقان العمل وزيادة الانتاج ورفعه الى مرتبة العبادة ، ما قرره من ضمان حد الكفاية بين الأفراد .

كتاب العربي

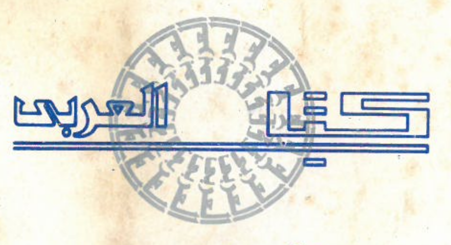
الفهرس



هذا الكتاب

عندما نقدم هذا الكتاب الى القاريء العربي والمسلم نقدمه على أنه رؤية اسلامية لبعض القضايا المطروحة علينا جميعا ، وهي اجتهادات قابلة للمناقشة وحتى النقض في بعضها ، وقابلة للتثبيت والانتشار في بعضها الآخر .

ذاك هو الحوار المطلوب من أجل تأصيل فكر ثقافي اسلامي يعايش العصر ويتفاعل معه .



مِرآة العَقل العَربي

الأسعار بالداخل

مطبعة حكومة الكويت